٥ الحرب الباردة على الكينونة العربية

# الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر



مختار الغوث

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٥)

# الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٥)

# الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر

مختار الغوث

صوفيا
Σοφία

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٥)

# الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر

مختار الغوث

الطبعة الثانية - 2021

ISBN 978-9921-721-42-3



صوفيا
Σοφία

الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2
البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com
هاتف: 52224643-965+
@sophia_kwt

# الفهرس

# الذريعة إلى الحرب

اشتدَّت الحرب على العربية بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ اشتدادا لا مثيل له، فقد جعلها الغرب لغة إرهاب، وكان مقتضى ذلك أن يقتلها حيث ثقفها، ويأخذ عليها السبل، ويحاصرها في عقر دارها، وفي كل مكان، تحله من الأرض، كما يفعل بـ«الإرهابيين». ويبدو من قرائن كثيرة أن ما أراد بها لم يكن عفوًا، وإنما كان مبيتا، لضعف مسوغاته، وعدم العلاقة بين اللغات وسلوك أهلها وعقائدهم، ولِمَا أثبت الخبراء، والباحثون، والمحللون السياسيون من أن حوادث الحادي عشر من سبتمبر عمل أمريكي بحت، أريد به تسويغ ما أزمع «المحافظون الجدد»، من الحرب على العالم الإسلامي واحتلاله، للتحكم في سياسته واقتصاده وأفكاره، لِمَا ثبتت لهم نجاعتُه من الأساليب في ترويج الأفكار والشعارات، واختراع عدو، يُنصَب غرضا للشعوب، وتوجَّه إليه نقمتها، إذا أريد أن تؤيِّد ما يبيَّت له، وما يُتوسَّل إلى الإيقاع به من وسائل؛ إذ كان أفضل أسلوبٍ لجمع الناس على أمرٍ تخويفهم إياه، واستنبات الكراهية في القلوب لعدو مشترك، يُجرَّد من إنسانيته، وتُنسب إليه قدرة خارقة على ارتكاب الشر[1]، كما كان إعلام الغرب يفعل بالشيوعية، أيام الحرب الباردة، ثم بآية الله الخميني، ثم صدام حسين، ثم الجماعات الإسلامية، ثم رجب طيب أردغان. وكان هذا الأسلوب في التشويه محلَّ استياء من السوفييت، أبان عنه خروتشوف في جلسة من جلسات الأمم المتحدة، صاح فيها قائلا: إن الناس في روسية «لا يأكلون الأطفال»، يشير إلى أن الدعاية الغربية تنسب إلى الشيوعيين كل فظيع من الأفعال، على وجه يخرجهم من الإنسانية، ويسلكهم في الوحوش. ومن سياسة الغرب أن يصنع العدو كما يريده، ويلصق به ما شاء من خصال الشر

---

(١) عصر التشهير بالعرب والمسلمين، ١٤.

التي تمكّنه من تخطيط هويته على الوجه الذي يريد[1].

وذهب ديفيد هارفي إلى أن الأحوال في أمريكة عام ٢٠٠٢ كانت أخطر مما كانت عليه منذ سنين قبل ذلك، فقد بدأ الركود الاقتصادي منذ مطلع عام ٢٠٠١، وازدادت البطالة، وفُقِد الأمن الاقتصادي، وزادت فضائح الشركات، وأخذت إمبراطوريات الشركات الراسخة تنحلُّ وتتفكك بين عشية وضحاها، وينتشر الفساد والإخفاق في الأعمال والمحاسبة والأنظمة، على وجه، أفقد وول ستريت وسوق الأوراق المالية سمعتها، وانخفضت قيمة الأسهم والسندات انخفاضا مخيفا، وفقدَ صندوق التقاعد ربع قيمته أو ثلثها، أو فقدها كلها، وأصيبت احتمالات تقاعد العاملين بضربة قاصمة، وكانت الرعاية الصحية في فوضى شديدة، وأخذ فائض أموال الحكومات الاتحادية المحلية وفي الولايات يتبخر، وعجْز الميزانية يزداد، وميزان الحساب الجاري مع سائر العالم يسير من سيئ إلى أسوأ، وغدت أمريكة أكبر دولة مدينة في العالم. وكان التفاوت الاجتماعي في ازدياد، ولم تستطع تشريعات خفض الضرائب تقليل هذه الظاهرة، وإنما زادتها، وتعفَّنت إجراءات حماية البيئة، ولم يشأ أحد في الإدارة فرضَ نظام على الأسواق، مع وجود أدلة واضحة على إخفاقها، وتفاقُم أحوالها. هذا إلى أن جورج بوش كان قد انتُخب في المحكمة العليا بفرق صوت واحد بينه وبين منافسه آل غور، وشَكَّك في شرعية انتخابه مَنْ لا يقلُّ عن نصف السكان قبيل الحادي عشر من سبتمبر. وما كان يحول دون إلغاء الحزب الجمهوري إلغاءً سياسيا سوى تعاون شديد بين الشعب، مبني على عصبية قومية، كان يتخذ مسوغاتها من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والهلع من الجمرة الخبيثة. فما كانت عند جورج بوش وسيلة أفضل من تحويل الأنظار إلى العراق. وكان خوف قوة العراق، وحركة المد العربي الشغلَ الشاغل للحكومات الأمريكية المتعاقبة. وكان كولن باول قد وضع خطط طوارئ عسكرية للحرب على العراق قبل أن تبدأ حرب الخليج الأولى، وكان بول وولفوفيتز يدعو إلى تغيير الحكم في العراق منذ عام ١٩٩٢، ويتحدث عن ذلك علانية، وكان تغييره سياسة مقررةً في عهد كلينتون، وازداد إصرار

(١) مسألة الهوية، ١٨٧.

المحافظين الجدد عليها، واتفقت على ذلك كلمتهم في كتاب، نُشِر عام ١٩٩٧ بعنوان «مشروع القرن الأمريكي الجديد». وكان من الموقعين على المشروع جيب، أخو بوش، وديك تشيني، وكبير موظفيه، لويس ليبي. وفي يناير عام ١٩٩٨ كتبت مجموعة مشروع القرن الأمريكي الجديد رسالة إلى كلينتون، تحثه على إطاحة صدام حسين، وأضيف إلى الموقعين دنالد رامسفيلد، وبول ولفوفيتز، وريتشارد أرميتاج، وأصبح بعد ذلك معاونا لوزير الخارجية، كولن باول، وريتشارد بيرل، رئيس هيئة سياسة الدفاع، فيما بعد، فلما انتخب جورج بوش رئيسا، أصبح ديك تشيني نائبا له، وولفوفيتز نائبا لوزير الدفاع، وليبي رئيسا لموظفي ديك تشيني، ومستشارا لشؤون الأمن القومي[١].غير أن المصرِّين على إطاحة صدام كانوا يعلمون أن ذلك يحتاج إلى كارثة ككارثة بيرل هاربر، يسوَّغ بها في الداخل والخارج. فلما كان من أمر الحادي عشر من سبتمبر ما كان، كان ذريعةً إليه[٢]. بل صُنِعَت حوادث الحادي عشر من سبتمبر ليسوَّغ بها ما كان يصر عليه المحافظون الجدد، ولكن ديفيد هارفي رغب عن التصريح -وإن كان هو مقتضى كلامه- بما صرَّح به نيل ماكاي: في مخطط أولي سري لسيطرة الولايات المتحدة على العالم يتبين أن بوش وأعضاء إدارته كانوا يخططون لهجوم متعمد على العراق من أجل تغيير الحكم، قبل أن يصل إلى الحكم في يناير عام ٢٠٠١[٣]. ومما يثبت ذلك ما سنشير إليه من الدراسات، وهو أيضا مقتضى توجه المحافظين الجدد، وما كانوا يتقلدون من أفكار، ولا سيما مثقفيهم، كما قال ميخائيل ليند: كان لمعظم مثقفي المحافظين الجدد في وزارة الدفاع جذور في اليسار، وهم بمعظمهم من اليهود الأمريكيين المنتمين إلى حركة العقد الرابع والخامس التروتسكية التي صارت ليبرالية معادية للشيوعية بين العقدين السادس والثامن، ثم أصبحت شكلا يمينيا ذا نزعة إمبراطورية عسكرية، لا سابق لها في تاريخ الثقافة السياسية الأمريكية[٤]. هذا إلى أن زعماء الدعوة إلى الحرب في أمريكة من أعز أصدقاء إسرائيل والمساعدين المقربين

(١) حرب بلا نهاية، ١٨٩.
(٢) الإمبريالية الجديدة، ٢٣ وما بعدها.
(٣) انظر: أوكار الشر، ١٩٤.
(٤) حرب جورج دبليو بوش الوقائية بين مركزية الخوف وعولمة الإرهاب، ٨١.

لقادتها العسكريين والسياسيين[١]. ومنهم جورج بوش، فقد كان يسمي أريل شارون رجل سلام، ويدعوه معلمي[٢]، وهو رأي سائر المحافظين الجدد فيه أيضا[٣]. ولذلك كان الأثر العقدي والعنصري في الحرب واضحا جدا، كما نبه على ذلك أحد المحللين: الحرب على «الإرهاب» حرب عنصرية في أساسها، ذلك أن فريق بوش لم يضع لها سببا غير «هؤلاء الأشرار»، يعني المسلمين العرب[٤]. وقال غيره إن هذه الحرب كان فيها حفنة من الرجال وامرأة واحدة يتخذون قرارات ذات عواقب سيئة، بمعزل عن كثير من المعارضين الذين كُتِمت أصواتهم في البنتاغون ووزارة الخارجية، ووكالة المخابرات المركزية، وغيرها من الوكالات التي حذرت الرئيس وعصبته من عصابة تحركها عقائد، وأوصته بوجوب التفكير قبل الإقدام على الحرب. وقالت له: إنهم يدفعون بأمتنا إلى كسب حرب، ستنجم عنها معارك لا يمكن كسبها، أو -في الأقل- لا يمكن كسبها دون دفع ثمن اقتصادي وبشري باهظ[٥]. ويعني مشروع القرن الأمريكي الجديد الذي كان يخطط له هؤلاء سيطرةَ أمريكية سيطرة كاملة على العالم، وإنشاء سبعمائة قاعدة عسكرية في العالم، والمراقبة الشاملة لأنظمة الاتصال في العالم، والتحكم في الفضاء لأغراض عسكرية، وأن يكون تقدم التنمية المحلية والدولية من الطاقة إلى الثقافة والعلاقات التجارية على ما تقتضي منافع أمريكة[٦].

وقال ديفيد هارفي أيضا إن الحرب الباردة لما انتهت انتهى معها التهديد الروسي، فلم يكن لأمريكة عدو طوال العقد العاشر، غير أن هذا العقد كان أسوأ عقد في تاريخها، فقد فَقَدت الأخلاقَ في التنافس، وأمسى المبشرون بالاقتصاد الجديد من ذوي الملايين بين عشية وضحاها يزدهون وهم يجمعون ثرواتهم، وانتشر الغش والاحتيال والتخطيط لهما انتشارا عظيما، وانتشرت الفضائح

---

(١) حرب دبليو بوش الوقائية،، ٨٨.

(٢) السابق، ٩٥.

(٣) حرب بلا نهاية، ٢٤.

(٤) السابق، ٧٤.

(٥) السابق، ٧٤.

(٦) شركة البربرية المتحدة، ١١١.

الحقيقية والوهمية، والشائعات المثقلة بالشر والفساد التي تدور على اغتيالات، يُخَطَّط لها في البيت الأبيض، مع اتهام الرئيس بالضلوع فيها، وكان يُتحدَّث بها في كل مكان، واندلعت حوادث شغب في لوس أنجلوس، وكانت حوادث القتل الجماعي والتفجير التي وقعت في واكو وأوكلاهوما رمزا لمعارضةٍ وعنْف داخليين، كانا هاجعين زمنا طويلا، وكان طلاب المدارس يطلقون النار فيقتلون رفاقهم في مدينة كولومباين، وتجاوزت حوادث الهرج والمرج كل حدٍّ، وصار فساد الشركات الذي أفسد السياسة مكشوفا وفاضحا. والمجتمع -باختصار- بعيد من المدنية، وهو منقسم، ويتفتت بسرعة مفزعة، ويتخبط في المنافع الخاصة. وتضمَّن بيان جورج بوش الانتخابي عام ٢٠٠٠ وعْدا برسم وجهة شديدة الوضوح، تهدي إلى الأخلاق والفضيلة. فلما فاز بالرياسة، اختارَ فريقَه كله من المحافظين الجدد. وأتاحت له حوادث الحادي عشر من سبتمبر أن يفرض النظام والاستقرار على المجتمع المدني في البلاد، وأن يُمْضيَ ما كان يرجو المحافظون الجدد والحكومات الأمريكية من كارثة، يقنعون بها الداخل والخارج لتنفيذ ما كانوا ينوون من غزو العراق وتغيير الحكم فيه، وكان غزو العراق أكبر بكثير من مجرَّد إبعاد الأنظار عن المصاعب الداخلية، لقد كان فرصة عظيمة لفرض نظام اجتماعي جديد، والقرب من فكرة الكومنولث[1].

وقال محمد عابد الجابري إن في الغرب اتجاها، يزداد انتشارا، تغذيه الصهيونية العالمية، يعدُّ الإسلام الخصم الذي سيحلُّ محل الشيوعية عدوًّا للغرب، ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي والخبراء والمحللون الإستراتيجيون يُبَغُّون عدوًا للغرب وحضارته، ويحشدون الأدلة التي ترشِّح الإسلام لهذه المهمة. ذلك أن العدو صار جزءا من بنية العقل الأوربي المعاصر؛ فقد عاشت أمريكة مدة طويلة على خطر خارجي يهدِّد «العالم الحر». وكانت الشيوعية هي الخطر الذي تستعمله القوى الاقتصادية المهيمنة على المجتمع الأمريكي، الموجِّهة لسياسته[2]. وربما كانت عبارة الجابري هذه غير دقيقة، فإن الخبراء والمحللين الإستراتيجيين الغربيين لم يتعنَّوا كثيرا في تطلُّب عدو، يخلف

---

(١) الليبرالية الجديدة، ٢٦ وما بعدها.

(٢) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢٠٦ وما بعدها.

الاتحاد السوفييتي، مذ لاحت بوادر نهايته، وإنما تعنوا -إن كانوا قد تعنوا في تطلب شيء- في تطلُّب ما يسوِّغون به ما قرر السياسيون أن يكون العدو الذي يخلف الاتحاد السوفييتي، قبل نهايته، وكانت أقوالهم في ذلك واضحة جدا، كما قال ديك تشيني في فبراير عام ٢٠٠٢ أمام مجلس العلاقات الخارجية: لما زال عدو أمريكة (الاتحاد السوفييتي) سأل كثير من الناس عن الوجهة التي ستتجهها سياستنا الخارجية، لكن لم يظهر تهديد عالمي وحيد وعاجل، يتفق عليه مَن يكفي من الخبراء، وقد تغير ذلك قبل خمسة أشهر (الحادي عشر من سبتمبر)، فالتهديد الآن معروف، ومهمتنا واضحة لا لبس فيها[١]. وقال ديفيد كين: الصراع الدائم والمحتوم بين الغرب والإسلام يمكن اعتباره ملائما جدا للمؤسسة العسكرية الأمريكية الباحثة عن عدو جديد في حقبة ما بعد الحرب الباردة[٢]. وقال جياني ديميكلس، رئيس المجلس الوزاري الأوربي، والناطق بلسان حلف الأطلسي، في يوليو عام ١٩٩٠ -ردا على سؤال سُئِله-: ما مسوغات بقاء حلف الأطلسي بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والشرق الذي كان اشتراكيا، قال: صحيح أن الحرب مع الشيوعية انتهت، إلا أن حربا أخرى يمكن أن تحل محلها، بين الغرب والعالم الإسلامي[٣]. وقالت مجلة «شؤون دولية» في عدد يناير عام ١٩٩١: لقد شعر كثير من الغربيين بالحاجة إلى تهديد يحلُّ محل التهديد السوفييتي، والإسلام عتيد لتلك الحاجة، وهو في المتناول، وهو -دون الثقافات الموجودة في الجنوب- الغرض المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس إلا لأنه الثقافة الوحيدة القادرة على تحدي الثقافة العلمانية الغربية تحديا حقيقيا[٤]. وقالت مارغريت تاتشر إن المسلمين يرفضون القيم الغربية، ومصالحهم تعارض منافع الغرب، وهم أصحاب عقيدة تعادي أمريكة والغرب، فهم كالبولشفية، ولا بد من اصطناع خطة طويلة المدى، كتلك التي اصطنعت للشيوعية، لهزيمتهم[٥]. هذا إلى غرض آخر، كان ثابتا في

(١) حرب بلا نهاية، ١١٣.
(٢) السابق، ٣٢٤.
(٣) الإسلام في عيون غربية، ٥٣.
(٤) السابق، ٥٤.
(٥) السابق، ٤٩.

السياسة الأمريكية فيما يسمَّى الشرق الأوسط، هو أن من يسيطر عليه يسيطر على النفط العالمي، ومن يسيطر على النفط العالمي يسيطر على اقتصاد العالم[1]. ولهذا كان النفط سببا من أهم أسباب اختيار أمريكة الأعداء الذين ستشن عليهم ما سمته «الحرب على الإرهاب»، فقد أثر في انتقاء الدول التي ستُحارَب، والدول التي ستنجو من الحرب[2]. وكانت منافع السياسيين الذين تولوا قيادة أمريكة، ومنافع الشركات التي كانوا يعملون فيها سببا آخر. فمنذ منتصف العقد العاشر من القرن العشرين كانت لأفغانستان عناية خاصة في السياسة الخارجية الأمريكية، فقد أدرك الأمريكيون أهمية ما في بحر قزوين من غزير النفط والغاز، كما يبدو من قول ديك شيني عام ١٩٩٨ إنه لا يمكن أن يفكر في زمن، يظهر فيه مكان يعادل في أهميته الإستراتيجية بحر قزوين، لكن نقل نفطه وغازه من روسية وأذربيجان سيزيد سيطرة روسية على جمهوريات وسط آسية، ونقله من إيران مخالف لما تريد أمريكة من عزلها، ونقله من الصين سيكون دعما لها إستراتيجيا، وهو إلى ذلك باهظ التكلفة. فالخيار المفضل -إذن- أن يُنقَل من أفغانستان وباكستان والهند. وكان ديك تشيني، من المشاركين في مفاوضات أنبوب النفط في عهد كلينتون، وكان يومئذ نائبا عن تسع شركات نفطية، وكوندوليزا رايس، وكانت مديرة في شركة شيفرون تكساسو، مكلفةً شؤونَ باكستان ووسط آسية، ثم كان ديك في عهد جورج بوش نائب الرئيس، وكوندوليزا مستشارة الأمن القومي، ثم وزيرة للخارجية. وتولى حامد كرزاي رياسة أفغانستان، بعد إسقاط طالبان، وكان من كبار مستشاري يونوكال، وهي شركة أمريكية، مقرها كاليفورنية، كانت قد تولت مد أنبوب النفط من تركمانستان إلى باكستان مرورا بأفغانستان، وهو مشروع قديم، وصار جون ماريسكا أحد موظفي يونوكال السابقين سفير أمريكة في أفغانستان[3]. ويدل ذلك كله على مكانة النفط من دواعي الحرب على الإرهاب، وما كانت أمريكة تريد من غزو أفغانستان. وهو ما لمح إليه ضابط المخابرات الأمريكي السابق،

---

(١) الإمبريالية الجديدة، ٢٩.

(٢) حرب بلا نهاية، ١١٥.

(٣) السابق: ١١٦.

كينيون جيبسون، تلميحا كالتصريح، معلقا على ما أعقب حوادث الحادي عشر من سبتمبر، وما كانت أمريكة تُعِدُّ من حرب على المسلمين: أمدُّ يدي -أنا النصراني- إلى العالم الإسلامي، وأرفض التذرع بالدين إلى سرقة النفط، والاتِّجار بالمخدرات، والأسلحة[1]، يعني أن ذلك هو غرض آل بوش وعصابتهم من هذه الحرب، وليست فيها مصلحة لأمريكة. وقالت ريتشارد كلارك، بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر: أدركت وأنا أكاد أشعر بألم جسدي شديد، أن رامسفيلد وولفوفيتز كانا يحاولان الإفادة من هذه المأساة الوطنية للترويج لخطتهما في العراق، ومنذ عهد هذه الإدارة، بل قبل ذلك في الحقيقة، كانا يضغطان من أجل شن حرب على العراق. وقد قال لي أصدقائي في البنتاغون: إننا سنغزو العراق في وقت ما من عام ٢٠٠٢[2]. ونبه كريستوفر هيتشنز، وكان ممن دافعوا بشدة عن غزو العراق، على أن ترميم صناعة النفط العراقية كان نهاية للاحتكار السعودي، ونحن نعلم أن كثيرا من أمثال ولفوفيتز كانوا يتلهفون إلى ذلك، لكنهم لا يستطيعون إعلانه على الملأ، بأسلوب حصيف. وقالت إدارة بوش إنها تريد نقض قرار تأميم نفط العراق التاريخي، قبل أن تنتهي من «إعادة الإعمار»[3]. وهذا يعني أن اختيار العراق هدفا سبق حوادث الحادي عشر من سبتمبر، بوقت طويل، أي إن التجريم سبق الجريمة، كما قال ديفيد كين[4]، وأن النفط كان من أهم دواعي غزوه. وهذا التحليل وغيره، مما لا نريد أن نفيض فيه؛ لأنه لا يعنينا الآن، يدلُّ على أن حوادث الحادي عشر من سبتمبر من صنع الحكومة الأمريكية، وهو ما تتفق عليه طائفة كبيرة من الخبراء، خصَّته ببحوث، قدَّمت فيها من الأدلة على ذلك، وعلى تهافتِ مزاعمِ من نسبها إلى غيرها، ما يكفي، منها ضابط المخابرات الأمريكية السابق، جيبسون كينيون، في كتابه «أوكار الشر»، والمحلل الفرنسي، تيري ميسان، في كتابيه «الخديعة المرعبة»، و«فضيحة البنتاغون»، ولَمَّح إليه نعوم شومسكي مرارا في كتابه «الحادي عشر من أيلول». وما أثبتوا يساوق ما كان يفكر فيه أصحاب «مشروع

(١) أوكار الشر، ٩.
(٢) حرب بلا نهاية، ١١٧.
(٣) الموضع السابق.
(٤) السابق، ١٨٧.

القرن الأمريكي»، قبل حوادث الحادي عشر من سبتمبر بأربع سنين. وإذا كان «مشروع القرن الأمريكي» يعني السيطرة على العالم، والسيطرة عليه مشروطة بالسيطرة على الشرق الأوسط ونفطه، ولم يكن في العالم حينئذ من ينازع أمريكة إلا المسلمون، وكان الخوف من قوة العراق، وحركة المد العربي هما الشغل الشاغل للحكومات الأمريكية المتعاقبة، فإن القضاء على ذلك سيكون أكبر همِّ الحكومة التي تريد تنفيذ «مشروع القرن الأمريكي»، فضلا عما فيه من جمع الأمريكيين على عدو، يُشغَلون به عما بدا أنه بداية انهيار الدولة، وهو ما وعد به جورج بوش في برنامجه الانتخابي، وسيكون القضاء على قوة العراق وحركة المد العربي قضاء على قوتهما المادية والمعنوية، وهو ما ظهر فيما صنعت أمريكة بالعراق من تهديم مؤسساته الثقافية ونهبها، فضلا عما فعلت بسكانه، ومدنه، واقتصاده. وأبان عما كان يبيت من ذلك في فلتة لسانه التي أظهرت بعض ما كان يضمر، إذ قال إن حربه ستكون حربا صليبية، أي حربا ماحقة، لا تبقي ولا تذر ما يُمْكن أن يَنْبتَ منه يوما ما يهدد منافع أمريكة، وتفرُّدها بقيادة العالم، وسيطرتها عليه. وقد حاولت أمريكة بعد ذلك أن تخدع العرب عن حقيقة ما أراد جورج بوش، فزعمت أنما هي زلة لسان، بيد أن ذلك لم يُجُز على غير العرب، إن كان قد جاز عليهم أيضا، ولم يتجاهلوه عجزا أو صغارا، فقد قال مدير إذاعة الفاتيكان مثلا إن أمريكة اصطنعت لهجة ومواقف صليبية، وقال يوحنا قلته، نائب البطرك الكاثوليكي في مصر إنه كان يعني ما قال، ولم تكن زلة لسان[1]، وقال ديفيد كين ما يدل على أنها لم تكن زلة لسان؛ لأنه عد الحرب «حملة صليبية»[2]. هذا إلى أن ما صدر عن الغربيين عامة، والأمريكيين خاصة، ولا سيما جورج بوش، كانت آثار الصليبية فيه واضحة، وكانت محاولة تنصير المسلمين، وحملهم على اعتقاد القيم الغربية، ولا سيما العلمانية، حملا، وردهم عن قيمهم واضحة أيضا، وعد الإسلام أكبر تحد للحداثة، ولا سيما العلمانية[3]، وهو ما أبان عنه ذهاب قساوسة التحالف

---

(١) الإسلام في عيون غربية، ٤٨.

(٢) حرب بلا نهاية، ٢٨٤.

(٣) الإسلام في عيون غربية، ٥١.

النصراني، والمؤتمر المعمداني الجنوبي، والجيب السامري مع الجيش الأمريكي إلى العراق، وهم لا يخفون رغبتهم في تنصير المسلمين[1]، غير أن ما يريدون من تنصيرهم ليس نقلهم إلى النصرانية، وإنما تغيير قيمهم وثقافتهم، وتوجيههم وجهة، لا يكونون فيها خطرا على الغرب ومنافعه، كما قالت مجلة «شؤون دولية»: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني، لكن عالم الإسلام استثناء من ذلك تامٌّ جدا ومدهش، فلم يُعلمن، وسيطرته على المؤمنين به سيطرة قوية، وهي الآن أقوى مما كانت عليه قبل مائة عام، ومقاوم للعلمنة، ووجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرّقت مجتمعات أخرى «غيرَ متطورة»، أثار الغرب فيها الاضطرابَ والإذلالَ، معضلةِ إضفاء المثالية على الغرب ومحاكاته، لقد امتلك مقومات الإصلاح الذاتي، باسم الإيمان المحلي، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة[2]. وتأبِّي الإسلام على العلمانية، واستمساك المسلمين به، وعدم اتخاذ كثير منهم الغرب مثالا، يحاكونه، مما يؤرق الغرب، ولا سيما أمريكة، منذ زمن بعيد، كما أبان عن ذلك نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة»، فقد قال إن ما سماه «الأصولية الإسلامية» هي عدو أمريكة، فإنها تريد استرجاع الحضارة الإسلامية، والعمل بالشريعة الإسلامية، والدعوة إلى أن الإسلام دين ودولة، واتخاذ الماضي هاديا للمستقبل[3]، وذلك يعني استقلال المسلمين عن الغرب، والاستقلال أكبر مهدد لمنافع الغرب؛ لأنه يحول بينه وبين التمادي في نهب ما ينهب من ثروة المسلمين، ولا سيما النفط، ويجعل مبنى العلاقة معه على الندية، وتبادل المصالح تبادلا قائما على التكافؤ، وليس على ما يقوم عليه الآن.

فأمريكة تعد العدة لهذه الحرب منذ لاحت نهاية الحرب الباردة، وتفكر في شنها متى رأت أن مصالحها تقتضي شنها، وما كان يمنعها إلا انتظار ما تتذرع به إلى شنها، فلما أعياها اختلقته، ولم تجد من يعارضها من الحكومات الإسلامية؛

---

(١) تصفية استعمار العقل، ١٨.

(٢) الإسلام في عيون غربية، ٥٤ وما بعدها.

(٣) السابق، ٥٧.

لأنها سمتها بغير اسمها (الحرب على الإرهاب)، فخفَّ لعونها من لا يعقل؛ ليصطنع عندها يدا، يظن أن ستستثنيه بها مما تريد بغيره، فإذا انتهت المعركة، تبين أن الذي كان يحارَب هو الإسلام والمسلمين، والحضارة الإسلامية، فهما ما يُرْهِب أمريكة، لا الجماعات التي قد يكون بعضها صنيعةً من صنائعها التي تسوِّغ بها الحرب على من تريد، وتتوسل بها إلى بلوغ ما تبغي. ولا يستبين العرب ذلك إلا ضحى الغد، إذ تغير أمريكة وسائلها، وتبدل علاقاتها، فيتبين أن قد خانتهم فروج الأصابع، وأنهم كانوا يصادقون عدوا، ويبنون على وهم. غير أن تلك الإفاقة -إذا أعقبت الحرب العسكرية- قلما تعقب الحرب الحضارية التي تُلْبَس ثوب الانفتاح، والإفادة مما في اللغات الأجنبية من علم وتقنية، ويُولاَّها من يدافع عنها بمنطق العلم، وله من السياسة أذن، تبلِّغ مَن تكون له ما يريد. ولهذا أصبحت الإنجليزية تتبوأ مكانة اللغة الثانية، وليست مجرَّد لغة أجنبية، فحسب، والعربية تتوارى في زوايا المهملين، والقلوب منها مَغيظة محنقة، وهي لا تصلح للدنيا وإنما تصلح للدين والآخرة، وبعض التخصصات الأدبية، أما العلم والمال، فإنما تصلح لهما الإنجليزية والفرنسية. ولا يخفى أن هذه الحرب ليست حربا حضارية فقط، كما قد يُفهم من كلام هنتنغتون، بل هي حرب حضارية عسكرية أيضا؛ لأن أمريكة ترى أن لا تغني إحداهما عن الأخرى، فالحرب العسكرية تقتل العدو، فتريح منه، وتوقع الرهبة في قلب من بقي حيا بما توحي إليه من أن من خالف أو نادَّ، كان مصيره ما رأى، كما قال الكاتب الكيني، نغوغي وا ثينغو: «الاستعمار الذي تقوده الولايات المتحدة يتقدم إلى شعوب الأرض المناضلة، وكل الداعين إلى السلام والديموقراطية والاشتراكية بإنذار نهائي: قبول السرقة أو الموت»[1]. والحرب الحضارية تحدد المسالك، وتغير الأفكار، وتجعل صاحبها يرى بعين غيره، ويفهم الوجود كما يحب أن يفهمه، وتستلُّ ما يستنبت عزة، أو يشعر بخصوصية، تترتب عليها ممانعة، أو رفض للتبعية. ولهذا كان الفرنسيون في إبان احتلال المغرب هم الذين يدرِّسون التاريخ المغربي بالفرنسية، فكانوا يصورون المغاربة جهلة جبناء؛ فيتخرج التلامذة في مدارسهم وقد انغرس فيهم شعور بالنقص، والتسليم

---

(١) تصفية استعمار العقل، ١٨.

بفوق المستعمر، وكان بعضهم يلقن تلامذته أنهم فرنسيون، إمعانا في سلخهم من هويتهم، وازدراء حضارتهم وتاريخهم[1].

نقول هذا، لنجعله مدخلا نستعين به على تفسير ما نال العربية بعد الحادي عشر من سبتمبر، وأنه كان جزءا من خطة مبيتة، وضعتها أمريكة وحلفاؤها للقضاء عليها، وعلى كل سبب من أسباب بقاء المسلمين؛ لأن الحوادث التي جُعلت ذريعةً إلى الحرب، إذا كانت مبيتة، فكل ما تلاها مبيت أيضا، وهو المقصود، وإنما الحوادث مسوِّغ مفتَعل. ومن آيات ذلك أنه في أيام معدودة من احتلال العراق تركت حربُ أمريكة على العربية الخداع، وكشفت القناع، وكان لذلك طريقان: اتهامها بالقصور الذاتي عن مسايرة العصر، بسبب الأزمة التي هي فيها، تنظيرا، وتعليما، ونحوا، ومعجما، واستعمالا، وتوثيقا، وإبداعا، ونقدا، وزعم أنها سبب تخلف العرب الحضاري، والمسارعة إلى إحلال الإنجليزية محلها في شؤون الحياة العامة والخاصة، ولا سيما التعليم. وفي مدة لا تتجاوز أسبوعين أخذت جامعات عربية تعلن حاجتها إلى أساتيذ مؤهلين للتدريس بالإنجليزية في التخصصات كلها، ومنها مقررات الهوية: التاريخ، والجغرافية، والاجتماع، والفلسفة الإسلامية[2]. ولم يمض إلا أيام معدودة على احتلال العراق حتى أعلن الأمريكيون عزمهم على استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي بدعوى تسهيل الانتقال الديمقراطي[3]، وتغيير مناهج التعليم، ومراجعة الكتب لتخليصها من تقديس الرؤساء وتمجيدهم، ومن النظام التربوي الذي لا يوافق نظريات التعليم والتربية الحديثة؛ لما يقوم عليه من حفظٍ وترديدٍ لكلام القدماء، دون فهْم، أو مراعاةٍ لمتطلبات العصر، وهو مما يصنع عقولا متبلِّدة، عاجزة عن الاختراع، ومتعصبة، وإرهابية، تهدد السلام، وأن تغيير نظام التعليم سيعين على غرس حُبِّ الديموقراطية في نفوس التلامذة، ونقلِ العرب إليها شيئا فشيئا، وأن الحكومة الأمريكية ستُعِدُّ الكتب، ثم تهديها إلى تلامذة العراق[4]. وانتهجت حكومة أمريكة في العراق سياسة

---

(١) الإصلاحات التعليمية بالمغرب، ٧٥.

(٢) اللغة العربية بيت الكينونة، ٣٠٢.

(٣) العربية وسؤال الهوية.

(٤) عصر التشهير بالعرب والمسلمين، ٥٠.

لغوية جديدة، جعلت الإنجليزية هي مصدر الرزق، وشرط التوظيف، وعلَّقت العراقيين بها كما يتعلق بها غيرهم من العرب، طمعا فيما يُتاح للعارفين بها من عمل وجاه. فصار الشباب العراقي يتهافت على تعلمها كما يتهافت أهل المغرب العربي على تعلم الفرنسية، وأهل مصر والأردن والخليج العربي على تعلُّم الإنجليزية. ثم فَتحت الحكومة للإنجليزية بابا، لم يُفتَح قبلها، فجعلت تعليمها يبدأ من الصف الثالث الابتدائي، بعد أن كان يبدأ من الصف الخامس، متعللة بأن الطريقة القديمة فيها خلل، كان سببَ ضعف خريجي الكليات والمعاهد في الإنجليزية(1). وهو أمر ما يُتوقَّع أن يزداد إلا سوءا، مادام الذين يحكمون العراق هم تلك الثلة التي تحمل الجنسية الأمريكية والبريطانية، فإنهم لن يصنعوا بالعراق إلا ما تريد أمريكة، ولن يكون فيه من يستطيع محاسبتهم أو صدَّهم عما يريدون.

وكان استبدال الإنجليزية بالعربية في العراق وغيره من الدول العربية جزءا من «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، تسميه الحكومة الأمريكية «إصلاح المنطقة»، غايته -زعمتْ- إحداث تفاهم أفضلَ بين العرب والأمريكيين، ولغةٍ مشتركة بين العربية وغيرها من اللغات. ويزعم هذا «الإصلاح» أن الأمريكيين متعطشون إلى معرفة أسرار العربية، والكتابات القديمة والحديثة التي كوَّنت العقل الثقافي العربي الإسلامي. وأن العربية لا بد أن تخضع للتغيير والتحرر من الصور القديمة التي ظلت عليها قرونا؛ فقد كانت سببَ صعوبة تعلُّمها على الغرب، وسببَ صعوبةِ الاقتراب من أفكار من يتكلمون بها، وأن العلوم الدولية لا يمكن أن تكتب بها لتعقُّد حروفها، وصعوبة كتابتها ونطقها، وهي بخلاف اللغات المشتقة من اللاتينية، كالإنجليزية والفرنسية، فمن السهل على العرب إتقانهما، وهذا دليل على سهولة الحروف اللاتينية وقدرتها على التكيف والتجدد في كل حال. وأن أمريكة أجرت منذ عام ٢٠٠٢ إلى أول عام ٢٠٠٤، أكثر من ستمائة دراسة متخصصة، بإشراف مؤسسات بحثية، زعمت أنها مرموقة، انتهت إلى أن من الصعب التقاء العربية والإنجليزية، وأن هذا سبب كره العرب أمريكةَ وإسرائيلَ، وأن العرب -إن كانوا حراصا على أن يكون

(1) اللغة العربية المعاصرة في دول الخليج، ٢٤ وما بعدها.

بينهم وبين الغرب حوار حضاري- لا بد أن يوافقوا على تغيير الحروف العربية، وتغيير مضمون الثقافة العربية التي ستنشَّأ عليها الأجيال العربية[1].

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا التقرير من تغابٍ، قد يكون دليلا على أن كاتبيه لم يجدوا ما يلصقون بالعربية من عابٍ، طلبوه طويلا، فأعجزهم، ولم يجدوا إلا ما يأنف من قوله كل ذي لب، ولم يكتبه من كان ينبغي أن يكتبه من علماء اللغة؛ فكانت غايته التنفير من العربية، ووسمها بما ليس فيها، والتأليب على أهلها، وزرعَ كراهيتهم في نفوس من يقرؤونه. وهم، إذ يلصقون بالعربية ما يلصقون، يصرحون بأن لغاتهم، ولا سيما الإنجليزية، لغات راقية، وتعلُّمها سهل، والعرب يتقنونها، ولا يجدون مشقة في إتقانها؛ فيمكن أن يلتقي عليها أهل الأرض كلهم، غيرَ العرب؛ لأن للعرب لغة ليست كاللغات، وهم بسببها شعب منبوذ، ومكتوب عليه أن ينعزل ويُعتزَل، ويحيا في تخلُّف، أو يلحقَ بأهل الأرض بموافقتهم في اصطناع اللغة التي ارتضوا. أي إن التقرير جعل استبدال الإنجليزية بالعربية شرط إخراج العرب من العزلة واندماجهم في «العالم»، كما أن استبدال الكتابة للاتينية بالكتابة العربية شرط قبول الغرب ما يَحرصون عليه من حواره. ولا يخفى أثر الأمريكيين في هذا التقرير، مما فيه من تعالٍ، وامتداح للحضارة الأمريكية المستلِبة التي ترى أنها أهلٌ لأن تعم الأرض، دون غيرها من الحضارات، وهو ما يتغيا «مشروع القرن الأمريكي». وقد قال جان جاك روسو إن الجنس الغالب يندر أن يُقِرَّ بعنصريته، ويمكن القول إن ذلك حكم، يشمل الأجناس كلها، وإن مردَّه إلى أسباب شتى، منها أن للعرق الغالب منافع كبيرة في ذلك، وأنه كثيرا ما يغفل عن تحيزه، ويعدُّ عنصريته أمرا صحيحا ومفهوما بالفطرة، وأن لعنصريته من المسوغات والقوة ما للطبيعة. ويصدق هذا على ما تقول أمريكة في العربية والإنجليزية، وقد قدَّمنا من عيوب الرسم الإنجليزي والفرنسي ما يزع من له حياء عن كتابة ما ورد في هذا التقرير.

ولا يتضح كيف ستكون اللغة المشتركة بين العربية وغيرها من اللغات، إلا بأمرين: ما أشرنا إليه من التكثر من الدخيل، والنحت، والتركيب المخالفين لسنن العربية، وحذو الأساليب العربية على الأساليب الإنجليزية، واستبدال

---

(١) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٨٥ وما بعدها.

معاني الكلم الإنجليزي بمعاني الكلم العربي، فذلك هو الذي ييسر للأمريكيين فهْمَ العربية، وما يترتب عليه من سهولة مراقبة «الإرهابيين»، وفهْم ما يقولون، وهو من أهم ما يتغيا هذا المشروع. والأمر الثاني إلغاء المناهج التي تدرِّس قواعد العربية وآدابها، كالشعر العمودي ذي القافية الواحدة، والمناهج الدينية المشتملة على ما يحول دون «بناء الثقة» بين العرب والغرب، والجد في تطبيق «الحرية والديمقراطية» في أوسع معانيهما، ومما يعين على ذلك أن يتعلم المثقفون والطلاب في الجامعات طريقة جديدة في كتابة ما يخاطِبون به الغرب[١]. فالعربية الجديدة التي يريدها مشروع الشرق الأوسط -إذن- عربية سهلة الفهم على الأمريكيين، خالية مما يصعب عليهم تعلمه، وما يخالف ما عهدوا في لغتهم، ومخلَّصة مما يبغِّض أمريكة وإسرائيل إلى العرب، ويدعو إلى عدم الثقة بهما، وما يُكتَب بها ليس فيه أثر للإسلام. فهي -إذن- لغة محذوة على الإنجليزية في بنائها، محشوة بما يريد الأمريكيون من أفكار، مفرغة من دين العرب، وتراثهم، وثقافتهم، وفكرهم. وقد ترتب على هذا الغرض شروع أمريكة بعد الحادي عشر من سبتمبر في منع طبع المصحف، وتدريس بعض القرآن، ومنْع الاستشهادِ بما ترى أنه يُوزِع المسلمين بكراهية اليهود والنصارى من القرآن[٢]، وتخليص الثقافة العربية مما يحضُّ على الكره. فكان بعض من وَكَلت إليهم إمضاء خطتها يستخرجون من التراث العربي كل لفظ يذمُّ اليهود والنصارى، وينسبونه إلى الإرهاب، ويزعمون أنه يحض على الكراهية، حتى خشينا في الأعوام الأولى من تلك الحملة أن تُمنع قراءة الفاتحة في الصلاة، أو تُسقَط منها الآية الأخيرة: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، وهو ما صرَّح المشروع بأنه من أغراضه: إن غاية هذا المشروع ليست تحرير العربية من صورها القديمة التي ظلت قائمة كما هي منذ آلاف السنين، فقط، وإنما تحرير العقول الإسلامية بمحو الموروثات «السيئة» التي تحض على الانتقام والعنف والإرهاب[٣]. وما كان المقترَح المتعلق بالكتابة إلا تمهيدا لتحريف القرآن،

(١) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، ٢٩٢.
(٢) الهوية العربية والأمن اللغوي، ٤٣ وما بعدها.
(٣) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، ٢٩٢ وما بعدها.

وإخراج ما لا يرتضي منه اليهود والنصارى، كما قال أحد معدِّيه، تيودور هارتزول، وهو يهودي، كما يبدو من اسمه: إن من أغراض هذا المشروع الرئيسة نشر نسخة من القرآن باللغة الجديدة، تُخْرِج ما فيه من آيات، تحضُّ على العنف، وعدم الثقة بالغربيين[1]. ويشمل استبدالَ الأرقام الغربية بالأرقام العربية في الكتابة، ولا سيما الكتابات الرسمية، ومنها أوراق الهوية التي يحملها العرب[2]. ولعل ما طرأ من تغيير ألواح السيارات في بعض البلدان العربية، بعد الحادي عشر من سبتمبر، بجعْل حروفها وأرقامها أجنبية، أو زيادة الأرقام والحروف الأجنبية في أرقامها وحروفها العربية كان من آثار هذه الخطة، وأن أسبابه كانت أمنية، في المقام الأول. وكانت ثقافة أمريكة التي تُجْبِر على هذا ونحوه، وتتدخل في ثقافات الشعوب وخصوصياتها أولى بأن تُنقَّى من الإرهاب؛ فإن ما فيها من دواعيه لا يقل عما في غيرها من الثقافات، كما قال نعوم تشومسكي: «للولايات المتحدة بالحقيقة حضارة .. من أكثر الحضارات الدينية الأصولية تطرفا في العالم: لا الدولة، بل الثقافة الشعبية»[3]. وهي عريقة في ذلك التطرف جدا، فقد قال برتراند رسل إن البريطانيين الذين هاجروا إلى أمريكة إنما هاجروا لأنهم لم يكونوا قادرين على تقلُّد الفضيلة البريطانية في حب الوفاق، وكانوا غلاة، غير قادرين على التكيف مع هذه الفضيلة، فكونوا لهم عقلية مختلفة عن عقلية البريطانيين[4].

(١) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، ٢٩٥.
(٢) الموضع السابق.
(٣) الحادي عشر من أيلول، ١٩.
(٤) الفلسفة وقضايا الحياة، ١١١

## محو الذاكرة العربية: العرب والهنود الحمر

وكان التحكم في التعليم العربي من وسائل أمريكة إلى ما تريد من إعادة صياغة العقل العربي، وهي تعوِّل عليه في بلوغ ما تريد من العرب أكثر مما تعول على سلاحها الذي قتلتهم به، واحتلت أرضهم، كما قال جورج بوش: إن تغيير التعليم يستطيع مالم تستطع طائرات إف١٦[١]؛ فإن السلاح لا يهزم النفوس، ولا يحمل على الإذعان لما تريد، وما زال عند العرب من القوة المعنوية ما لا ينال منه السلاح، على ما فعلت بهم أمريكة وحلفاؤها. وكانت الحقيقة التي لا تَخفى عليها ولا على غيرها من الدول الغربية أن أعز المسلمين نفوسا، وأشدهم إباء للاستعمار الغربي، وأبعدهم من الخضوع له، وأقلهم إعجابا بالغرب وحضارته أشدُّهم تملُّؤًا من العلوم العربية الإسلامية، وأن هؤلاء كانوا هم وقود الثورات التحررية من الاستعمار الأوربي، وسيكونون وقود كل ثورة، تتصدى للاستعمار الأمريكي، وأن الذين درسوا اللغات الأجنبية، وتأثروا بثقافاتها من العرب بعكسهم، فقد كانوا أقرب المسلمين إلى الاستعمار، وأيسرهم اصطناعا، وأسلسهم قيادا لِمَا أراد بهم، ولذلك كانت منهم الحكومات الخفية، وخلفاء الاستعمار، وبطانة الحكومات العربية التي تحرس منافعه، والأشخاص الذين وصفتهم دول الاستعمار بأنهم ظل لها، والثورة الجزائرية مثال لذلك، فإن الذين صاغوا سنيها الأولى التي حسمت مصيرها، وأنجزت الاستقلال، هم الفلاحون، وتلامذة المدارس العربية الأهلية التابعة لجمعية العلماء، ومدارس حزب الشعب الابتدائية، ومدارس الزوايا، كمدرسة الكتانية بقسنطينة، وطلاب جامع الزيتونة، وجامع القرويين، وطلاب القرآن الكريم بكتاتيب الريف. ولذلك سارعت فرنسة إلى إغلاق المدارس العربية من فور اندلاع الثورة، وأخذت تطارد المثقفين بالعربية من طلبة ومعلمين، وخريجين،

---

(١) بالأسماء: أستاذة جامعية تكشف المستور عن المدارس الأجنبية في مصر.

وكان طلاب هذه المدارس والمعاهد وأساتيذها ومعلموها مدرجين في أسماء المشبوهين بملفات الشرطة السرية، وكان يُسَارَع إلى اعتقالهم أو التحفظ عليهم بمجرد حدوث تظاهر أو تحرك سياسي[1]. على حين كان طلاب الفرنسية من آخر من التحق بالثورة، وكان التحاق بعضهم بها بإيعاز من فرنسة من أجل أن تختار منهم من يفاوضونها على الاستقلال بشروطها، وكانوا هم الذين تحكموا في مفاصل الدولة بعد الاستقلال، فوجهوها الوجهة التي تريد. وكذلك كان تلامذة المدارس القرآنية والمدارس الحرة بالمغرب، وكانوا ٢٢٪ من تلامذة التعليم العام، فقد كانت مدارسهم منطلقا للحركة الوطنية[2]. من أجل ذلك أعلنت أمريكية في ديسمبر من عام ٢٠٠٢ ما سَمَّته «مبادرة الشراكة مع الشرق الأوسط»، وربطتها بما سَمَّته «الوكالة الأمريكية للتنمية»، وأسندت إدارتها إلى بنت نائب الرئيس الأمريكي حينئذ، إليزابيث ديك تشيني، بعد تسميتها مساعدة لوزير الخارجية في شؤون الشرق الأوسط. ونصَّت المبادرة على «إصلاح» حال الطفل العربي، بمشروع تعليمي، يعيد تصوُّرَه للوجود، وعلاقتَه بالمخالف، وأرصدت له أموالا طائلة، جُعِل قسط منها كبيرٌ لإعداد مليون كتاب، وبناء ثلاثة آلاف مدرسة، وتعليم مائة وعشرين ألف تلميذ، وإعداد ستة آلاف مدرِّس، على أن يُفرَغ من إنجاز المشروع عام ٢٠١٣، وعُرِضت الحصيلة على لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ في ١٩ أبريل عام ٢٠٠٥ م[3]. وغاية هذا المشروع صياغة النشء العربي كما تريده أمريكة أن يكون: «كبقر الجنة: لا ينطح، ولا يرمح»، تُحتَلُّ بلادهم، وتدمَّر، ويبادون، وتنهب ثروتهم، ويبلغ العدو منهم ومن بلادهم ما أراد، ثم يأمن عواقب ما فعل؛ لأنه صنعهم على عينه صناعة، سلبتهم من العزة الفطرية ما يحمل على الانتصار، والذود عن البلاد والعباد، والثأر للكرامة، وإنما يقابلون صنيعه بالرضا، والتسليم، ولهذا كان كثير من خريجي المدارس الأجنبية في مصر -كما قد رأينا- يعدُّون الاستعمار الغربي للبلاد العربية أمرا إيجابيا، ويأبون أن يسموه استعمارا. أي إنها تريدهم نسخة

(١) التعريب في الجزائر، ٣٥.

(٢) نظرة عن تدريس اللغات وتعلمها، ٣١.

(٣) الهوية العربية والأمن اللغوي، ٤٤.

من اليابانيين بعد الحرب الثانية، في خضوعهم، واستسلامهم المطلق، ورغبتهم عن الانتقام، والتسليم لما تريد، من التبعية، وقبول الهوان، ولا يتأتى ذلك إلا بأن تحول بينهم وبين أن يعرفوا من دينهم وثقافتهم ما يدعوهم إلى العزة، وإباء الضيم، والانتصار ممن يبغي عليهم. بل تريد لتجعلهم نسخة من الهنود الحمر، بعد أن محت ذاكرتهم، وألقت الاستسلام، والرضا بالواقع، وعدم الطموح إلى ما هو خير منه، في قلوبهم؛ حتى اعتقدوا أن فيما تأتي خيرهم، وأنها خير لهم من أنفسهم، وأن نسيان الماضي زعيم بصلاح المستقبل، ومصالحة الواقع والرضا به هما كل ما يتاح لهم. وكانت تزين لأبنائهم أن ينظروا إلى هنديتهم باشمئزاز، وتعلِّم أطفالهم أن القتال بين أجدادهم والمهاجرين الأوربيين كان قتالا بين البربرية والحضارة، وأن احتلال المهاجرين بلادهم، وما تبعه من إبادةِ سلفهم كان من نعم الله عليهم، وأن عليهم أن يتعلموا أن أمريكة وطنٌ، أسَّسَه حجاج قديسون، ورعون، مسالمون، ركبوا هول المحيط مرضاةً لله، وطاعةً له، ولم تكن هذه البلاد قبل مجيئهم إلا مجاهل، تسكنها الوحوش، وكائنات دون البشر، لا تختلف عن الوحوش؛ ولأنها كانت كذلك اعتدت على «رسل الحضارة» الذين كانوا يتَّسمون بالنبل، والخير، والشجاعة، وكانوا مثالا لإنفاذ أمر الله[1].

وبيَّن المفوض توماس مورغن ما ينبغي أن يُعلِّمه الطفل الهندي، ليكون متمدنا، فقال: لا بد من غرس حب أمريكة في عقله وقلبه، وأن يَعدَّها وطنا صديقا، ضحَّى من أجله، وأعطاه كثيرا، وعليه أن ينسى ما يقول أهله في البيض، ويعلمَ أن كل ما فعلوا إنما كان لمصلحته، ويجعلَ «أبطال التاريخ الأمريكي وعظماءه» مثَلَه الأعلى، ويشعرَ بالفخر بما أنجزوا، وألا يسمعَ أو يعرفَ شيئا مما فعلوا بالهنود، أو ما «يسمَّى» ظلم البيض للهنود، فإن كان في تاريخه «التعس» ذكْرٌ لبعض ما كان من ذلك، فيجب أن يُكذَّب له، ويُفهَم أنَّ ما صنع البيض كان من أجله، وأن مستقبلا باهرا ينتظره[2]. وهذا بعينه ما يريد مشروع الشرق الأوسط، فهو يريد العرب هنودا حمرا، ليست لهم ذاكرة، ويدينون بأنَّ احتلال أمريكة أرضهم، وإبادتهم، كانا لمصلحتهم، وأن ينسوا الماضي، ويعتقدوا أن

---

(١) أمريكة والإبادات الثقافية، ١٧

(٢) السابق، ١٨.

مستقبلا باهرا ينتظرهم، إذا نسوه ورضوا بالواقع. ولعل أمريكة إنما راغت إلى هذه السياسة مع الهنود لعلمها أنهم لو عرفوا تاريخها في بلادهم، وما صنعت بأسلافهم، ما هدأ لهم بال حتى يثأروا لهم، ومن غير الممكن أن تقوم لأمريكة قائمة إذا هَمُّوا بذلك، وجدُّوا فيه، إلا أن تبيدهم كما أبادت سلفهم، وكذلك العرب، إذا لم تَمْحُ ذواكرهم، وتصنعهم على عينها الصنع التي أرادت «مبادرة الشراكة مع الشرق الأوسط»، فبعيد أن يقر لها قرار في بلادهم، أو تهنأ باحتلالها، أو تبلغ منها ما أرادت. وقد قال إدوارد سعيد قبيل وفاته في سبتمبر عام ٢٠٠٣: من الشائع سماع كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها، يتحدثون عن تغيير خريطة الشرق الأوسط، كأنما المجتمعات والتجمعات يمكن هزُّها كما تُهزُّ حبات الفستق في جرة، ويبدو أنهم غير قادرين على فهْم أن التاريخ لا يمكن محوه، كما يُمحى اللوح، وإثبات مستقبل أمريكة عليه، وفرض أساليبها في الحياة[1]. غير أن ما صنعت بالهنود الحمر، وما صنعت بعدهم باليابانيين، وانتصارها العسكري على العرب، وما رأت من مطاوعة السياسة العربية إياها فيما تريد أطمعتها في ذلك، وفي إمكان أن تبلغ من العرب ما أرادت.

ومن المفارقات أن تسعى أمريكة ومَنْ وافقها من دول الغرب في محو الذاكرة العربية، وهي تجدُّ في تخليد تاريخها وعداواتها في عقول ناشئتها، حتى إن الحروب الصليبية، وفتح الأندلس، وفتوح الترك في أوربة الشرقية، ما تزال ماثلة في ذاكرتهم، كأنما وقعت أمس، وما زالوا بسببها يُكِنُّون للمسلمين من العداوة ما لا يكنُّون لأهل ملة من الملل، ويعادونهم أشدَّ مما يعادون الوثنيين[2]، كما قال صموئيل هنتنغتون: الكابوس الشخصي للأوربيين هو الذاكرة التاريخية للغزاة المسلمين في أوربة الغربية، والترك عند أبواب فيينة[3]. وقال: بعض الغربيين، كبل كلينتون، يقولون إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام خلاف، وإنما الخلاف بينه وبين المتشددين الإسلاميين الذين يدعون إلى العنف، ولكن أربعة عشر قرنا أثبتت عكس ذلك. العلاقات بين الإسلام والنصرانية كانت

(١) حرب بلا نهاية، ٢٤٤.
(٢) فيض الخاطر، ١٠/ ١٥٤.
(٣) صدام الحضارات، ٢٧٤.

غالبا عاصفة، وصراع الغرب والماركسية اللينينية كان ظاهرة سطحية زائلة، إذا ووزنت بالصراع العميق المستمر بين الإسلام والنصرانية[1]. وقال ريتشارد نيكسون: ليس لأمة من الأمم، ولا الصين، صورة سلبية في الضمير الأمريكي كصورة العالم الإسلامي[2]. وهذه الثقافة هي التي جعلت جورج بوش يقول إن الحرب التي سيشن على المسلمين حرب صليبية، وهي مقتضى ما أقرَّ به الأوربيون من أن الاتحاد الأوربي نادٍ نصراني[3]، وأنهم لا يريدون فيه دولة إسلامية، يعنون تركية، وليسوا سعداء بوجود دولة مسلمة أخرى (البوسنة) في أوربة[4]، وهو مقتضى ما قال كلود شيسون لعلي عزت بيجوفيتش: أنت أصولي، ولن نسمح بدولة أصولية في أوربة[5]. وكان ما قال كلود شيسون، وما فعلت فرنسة، وأكثر الغربيين في حرب البوسنة والهرسك جزءا من تلك الثقافة التي صاغت وجدان الغربيين، وهي التي صنعت علاقة الاتحاد الأوربي بتركية، فجعلتها تقف على أعتابه منذ عام ١٩٦٣، تستجدي عضويته، وما زال يمانع فيها، على ما بدَّلت من جلدها، ولبست من العلمانية فوق ما أراد أن تلبس، وغيرت لغتها وكتابتها، وحرَّمت العربية، وأعلنت الحرب على الإسلام أكثر مما أعلنته أوربة، من غير مواربة ولا تردد، ومع ذلك يقول لها الأوربيون: الحق ما شهدت به الجغرافية، ما تعلَّمنا في المدرسة أن تركية دولة أوربية[6]. وقال أحد وزراء خارجية فرنسة لرجب طيب أردغان: لا تضيعوا جهودكم سدى؛ لن يقبلكم الأوربيون في اتحادهم[7]، وقال زعماء الأحزاب النصرانية الديموقراطية في ألمانية إن تركية لا يمكن أن تكون عضوا في الاتحاد الأوربي؛ لأن ثقافتها مختلفة جدا عن ثقافته[8]. غير أن من مقتضيات الديبلوماسية، والمهارة بانتزاع المنافع ألا يصرِّح بعض الأوربيين لتركية -أحيانا- بما يريدون، وألا يصرح

---

(١) صدام الحضارات، ٣٧٠.
(٢) انتهاز الفرصة، ١٩٥ (نقلا عن: مسألة الهوية، ١٧٩).
(٣) صدام الحضارات، ٢٧٤.
(٤) السابق، ٢٣٨ وما بعدها.
(٥) حرب صليبية بكل المقاييس، ١٥١.
(٦) انظر: الحركة الإسلامية في تركية، ١٣٨.
(٧) أردوغان: نجري استعدادات لقفزة نوعية في الديمقراطية والاقتصاد.
(٨) تعايش الثقافات، ١٩٢.

بعض الغربيين بعداوة العرب، لئلا ينبهوهم على ما يريدون بهم، وليظلوا في غفلتهم، يخاصم بعضهم بعضا، ويرميه بالتعصب، وأنه مسكون بنظرية المؤامرة، والتخلف؛ أنْ سَمَّى الغرب باسمه، ولم يُسمِّه بما يتظاهر به مخادعةً، وسترا لذلك النظام الثقافي المستحكم في عقله الباطن، وليجمِّل ما يفعل من الأفاعيل التي يُظهِر فيها ما لا يستطيع إخفاءه، وإن كان يمكن تأويله تأويلا بعيدا، يجوز على من يجهل ثقافة الغرب، ويجهل تلك الأقوال والحوادث، أو يتجاهلها، مع أن فيها ما لا يمكن تأويله بحال، كإجماع الدول الغربية على منع الصومال أن يصطنع العربية لغة رسمية، وتأييد بعضها الانقلاب على الرئيس التركي، رجب طيب أردغان عام ٢٠١٦، ومنْع وزرائه دخول أوربة للتحدث إلى الترك المقيمين بها في الاستفتاء على النظام الرئاسي عام ٢٠١٧، وما سبق ذلك وتلاه من تواطؤ الإعلام الغربي كافة على شيطنته. نعم، تلك هي الذاكرة الغربية المفعمة بتاريخ الحروب والثارات بين المسلمين والأوربيين، على ما أتى عليها من قرون. وهي ذاكرة، صنعها التعليم، والإعلام، والثقافة، وتتحكم في سياستهم تجاه المسلمين، ويريدون أن يمحوا ذاكرة العرب، لئلا يتذكروا من تاريخهم ما يجعل في قلوبهم غلاًّ، قد يحمل على الانتصار منهم، وإعداد العدة لصد عدوانهم، مع أن كلوم المسلمين من الغرب بين «دامٍ وجالب»، وقد أتت على ما توعي ذاكرة الغرب قرون كثير.

ولعل مما جرَّأ أمريكة وغيرَها من الدول الغربية على هذا المشروع، وأطمعها في إنفاذه ما رأت من قلة عناية العرب بتاريخهم القديم والحديث، وعدم عناية بعض الحكومات العربية بالهوية، لانفصالها عن الشعوب، وقلة حظها من الوعي والثقافة، وعدم إدراكها ما يترتب على النيل من الهوية من مضار، وإسلاسها القياد للدول المستكبرة، وما يستتبع إسلاسه من جدٍّ في أن يجهل العرب التاريخ الحديث، وألا يكون له أثر في ثقافتهم النفسية، صونا للعلاقة بتلك الدول، أن تنال منها معرفته[1]. ويطَّرد هذا وضعف اتصال الحكومة بشعبها، ومبلغ تأثير الدولة المستعمرة في سياستها. وقد استعانت الدول المستعمرة قبل أمريكة بمحو الذاكرة وطمس التاريخ والتجهيل به

(١) عولمة الثقافة، ١٢١

على استتباع الشعوب العربية وتوجيهها؛ لأن الشعوب إذا جهلت التاريخ لم يكن في قلوبها ما يدعو إلى الارتياب في سياسة المستعمر ومقاصده، وصار تاريخه في البلاد وأهلها كأن لم يكن، وصار ما بينها وبين مستعمراتها من علاقة ثقافية صنعتها اللغة التي أُكرهت عليها إكراها مسوِّغا لما تريد بها، ووسيلة إلى استمالة الشعوب، وإقناعها بأنها أقرب إليها ممن ليس بينه وبينها مثل تلك العلاقة. أي إن جهل التاريخ محا الذاكرة، فيسَّر الخديعة، وأعان العدو على بلوغ ما أراد، ولو كان التاريخ معروفا، ما تأتَّى ذلك. ولقد يحسن أن نقدم مثالا لذلك من الجزائر، وما فعلت حكومتها بتاريخها مع الاستعمار الفرنسي، وما كان لذلك من أثر في إضعاف مناعة بعض الجزائريين من التأثر بالفرانكفونية، وإضعاف الشعور الوطني في نفوسهم، وحرصهم على الفرنسية، وإقبالهم على تعلمها، والاعتزاز بها، وعدم شعورهم بغضاضة في ذلك، كأن لم تكن بينهم وبين فرنسة «بحور من الدماء، وجبال من الجماجم»، كما قال هواري بو مدين. وكأن فرنسة التي فعلت بالجزائر ما فعلت ليست هي فرنسة التي تأبى أن تعتذر منه ومن تاريخها فيها، وترى أن ما فعلت هو ما كان ينبغي أن يُفعَل، وأنه كان خيرا للجزائر، كما قال جاك شيراك: إن فرنسة طوال استعمارها الجزائر لم تفعل «إلا الشيء الجيد، وإنما قام الجيش الفرنسي بما ينبغي أن يقوم به في الجزائر، وهو عمل يُشكَر عليه»[1]، فإبادة الجزائريين واحتلال أرضهم، ونفيهم منها، وطمس هويتهم، والإصرار على استلحاقهم أمر جيد، ومما ينبغي أن يقوم به الجيش الفرنسي، وهو يشكر عليه. ومن الممكن أن تعود فرنسة إلى ما فعلت بالجزائر، ما دامت تراه جيدا، وينبغي فعله، والنسيان يسوغ لها أن تعيد الكرة مرة أخرى، وأن تتمادى فيما تفعل ولو بيد غيرها. ولو أنها اعتذرت، وإن لم تكفِّر عما فعلت، لكان للنسيان ما يسوغه، أما أن تصر على أن جرائمها كانت إحسانا، وأن يبقى استعمارها، لكن بأيدي صنائعها، وأن تصر على أن تبقى علاقتها بها كما كانت، وأن تستلحقها، وتمنعها لغتها وحضارتها، وتستتبعها، وترتكب في حقها من المذابح ما هو معروف في العشرية الدموية، التي كانت بتدبير منها ومن جنرالاتها في الجزائر، فأمْرٌ لا مسوغ له سوى الجهل الذي لا

(١) جرائم فرنسا في الجزائر، ١٣ و ٩٥.

يُعذَر به. ولو أحسنت معاملة الجزائريين في الظاهر، على سبيل الخداع، لكان للعامة عذر في الانخداع بها؛ فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وحقائق الأعمال وغاياتها إنما يدركها الخاصة، أما أن تصنع بهم من العذاب وتحتقرهم من الاحتقار ما لا يجهله أحد منهم، حتى لقد أرغمتهم على أن ينتسبوا إلى الحيوان والنبات، وما يستحيي من ذكره، ثم يحبوها حبا يجعلهم يفعلون مختارين ما تريدهم عليه: أن ينسلخوا من هويتهم ليقلدوها، ويتنكبوا لغتهم ليصطنعوا لغتها، ويستوي في ذلك خاصتهم وعامتهم، فمنافٍ لما جبلت عليه النفوس من بغض من أساء إليها. ولو كانت إساءتها عابرة، مهما بلغت، ولم تطل، ولم تكثر، ثم تلاها ما ينسيها من الإحسان، أو تقادم العهد، لهان الأمر، أما أن تكون إساءة إستراتيجية، وغاياتها ما تزال كما كانت، واحتلالها ما يزال، فما أفهم له معنى، سوى أن هذه الأمة أمة ليست كالأمم، أو أن فرنسة ساحرة من أكبر السواحر! وما أعني الجزائر بعينها، وإنما هي مَثَل أمثِّل به فقط؛ إذ كانت غاية التمثيل الإيضاح، وخير الأمثلة أجلاها وأشهرها، وأوضحها للخاص والعام، وإلا فما يقال في الجزائر يصدق على غيرها من دول الإسلام، في علاقتها بمن يستعمرها، كبريطانية وفرنسة وأمريكة وإيطالية. وهذا النسيان والغفلة هما اللذان جعلا قلوب المسلمين معلقة بجلاديهم، وبمن جعلوا منهم عدوهم الإستراتيجي، يسيرون حيث يريدون لهم أن يسيروا، ويثقون بهم، مع أنهم لم يروا منهم ما يحمل على الثقة، وما يتكشف من أمرهم ليل نهار يدل على عداوة لا مثيل لها. فقد أعرضت الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال عن إحصاء جرائم فرنسة في الجزائر، وسوَّغ بعض متفرنسيها ذلك بما يدل على قلة ما بينه وبين الشعب من روابط نفسية وشعورية وثقافية وفكرية، كزعم مصطفى الأشرف أن الكبرياء الوطنية هي التي جعلت الجزائريين يكتمون آلامهم، ولا يجاهرون بها ولا بمآسيهم وأحزانهم[1]. مع أن التوثيق لا ينافي ما زعم، وإنما هو جزء من التاريخ والثقافة، يجب أن يخلَّد، وتتوارثه الأجيال، لتعرف مَن هي، وما علاقتها بالغير، وتستعين بتاريخها على فهم واقعها، وما يريد بها عدو الأمس واليوم، وكيف ينبغي أن تعامله. أما عدم التوثيق، فمحو

---

(١) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٨٨ وما بعدها.

للذاكرة متعمَّد، يدل على تقبل الظلم والعدوان، والرضا بهما، والتستر على جرائم العدو، والحفاظ على منافعه، والاعتداد بها أكثر من الاعتداد بمصالح الشعب والوطن[1]؛ لأنه يُخفِي حقيقته، ويعين على أن يُظَنَّ به خلاف ما ينبغي أن يُظن، ويجعل القلوب سَلَمًا له. وسياسة طي الماضي وتناسيه، وعدم نكء الجراح، والعمل على بناء علاقات، تتجاهله، على وجه يُبْقِي على ظلْم المظلوم، وغبن المغبون، ويعين الظالم على التمادي فيهما، لا يقبله إلا لئيم أو مغلوب على أمره؛ لأن المغلوب ليس في وسعه غير الصبر، وعفوه أشبه بعفو الفريسة عن السبع، وصفْحها عنه، وهو ينشب فيها أظفاره. ويزيده قبحا من حكومة الجزائر أن فرنسة كلها من يمينها إلى يسارها تفخر بما فعلت، وتصرُّ على التمادي فيه، وسياستها في استلحاق الجزائر تجري على قدم وساق، وأكثر ما تكتب وتقول في الجزائر يكتبه ويقوله رجال رسميون وشبه رسميين، وبعضهم سفاحون يفخرون بجرائمهم، ويمجدون ما فعلوا بها، فهل يستحيي المظلوم من ذكر ما ناله، ويفخر الظالم بخطاياه؟[2]. ومن غير المستساغ، بل من العار، أن ينسى الجزائريون جرائم فرنسة في الجزائر، حتى تصير كأن لم تقع، وتتعمد حكومتهم تجهيلهم بها؛ لئلا يكون لها أثر في نفوسهم، وكثير من ساسة فرنسة ومفكريها يشعرون منها بعقدة ذنب، «يستعملون كثيرا من الحيل والنفاق الديبلوماسي لإخفائها»[3].

ولهذا العمل وجه آخر، هو أنه يربي الأجيال على تجرُّع الذل والهوان، والصبر عليهما، وأن يستوي عندها مَنْ أكرمها ومن أهانها، بدلا من تربيتها على العزة، وإباء الضيم، والإصرار على الانتصاف من الظالم، حتى لا يهمَّ بالظلم مرة أخرى، ثم العفو عنه عن مقدرة. ومن آثاره ما يشيع في مسلمي اليوم، من الميل إلى الدول التي استعمرتهم، وتعلُّقهم إياها تعلقا لا أثر فيه للشعور بذلك التاريخ وما كان فيه من مآس، ولا بالسياسة الحاضرة التي لا تختلف عن السياسة الغابرة إلا في الأساليب. فلما محيت الذاكرة، وجُهِل التاريخ كان كل شعب

---

(١) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٨٨ وما بعدها.
(٢) السابق، ١٨٨.
(٣) السابق، ١٨٩.

عربي يركض وراء مفترسه، يصطنع لغته، وثقافته، ويتهالك على مماثلته، ويجد بينه وبينه من الروابط الثقافية والنفسية ما لا يجد بينه وبين غيره، من الدول التي لم تكن بينه وبينها عداوة. ولا يمانع بعض الشعوب أن يعود إليه الاستعمار، ويرى بعضها أن حاله على الاستعمار كان أصلح منه على «الاستقلال». ويكفي من ذلك أن تكون الجزائر البلد الفرنكفوني الثاني بعد فرنسة، وأن تكون علاقتها بفرنسة كعلاقة الهنود الحمر بأمريكة. وإنما أنهاها إلى ما انتهت إليه ما أنهى الهنود الحمر إلى ما انتهوا إليه: محو الذاكرة، وصياغة العقول على الوجه الذي أراد المستعمر. ولعل هذا سبب ما نبه عليه محمد العربي ولد خليفة من أن كثيرا من الأدب الفرنسي الذي كُتب في الجزائر وعنها ينتمي إلى عهد الاستعمار، وأن كثيرا مما يُكتَب ويحوَّل بسرعة مدهشة أفلاما، وتتهافت عليه دور النشر الفرنسية ليس إلا تعبيرا عن العقيدة الاستعمارية التي تتخفى حينا باستحياء، وتسفر حينا عن وجهها بوقاحة، وكثيرا ما تبدأ بذكريات عابرة عن كفاح الجزائريين لتنتهي إلى أن الاحتلال شيء، وثقافة المحتل شيء آخر، وأن ثقافته هي التقدم، والعلم والتقنية، والحداثة، والانفتاح، إلخ[1]، وهو ما أوجزه كاتب ياسين في قولته الشهيرة: إن الفرنسية في الجزائر غنمية حرب. وهذا مما يسوغ القول إن الجزائر ما استقلت، وإنما تولى حكمها بعض الجزائريين نيابة عن فرنسة، وما يزال كل شيء فيها يسير على ما تريد. وهذا ما تريد أمريكة، إذ تخطط لقتل العربية وإحلال الإنجليزية محلها، وتسعى في تخليص المناهج العربية من كل ما يبتعث عزة النفس، ويورث إباء الضيم، ويذكِّر بما فعلت وتفعل بالعرب. وأقل ما في حفظ التاريخ والتذكير به من الفائدة حذر العدو، وعدم الثقة به، والمناعة من الاستعمار، والحرص على الاستقلال، ولا سيما الاستقلال الثقافي والعلمي والاقتصادي. هذا إلى ما يجب من المطالبة بالتعويض عن جرائم المحتل.

ومما ينبغي أن يفهم في هذا السياق صدور أمر من وزارة التربية الجزائرية عام ١٩٦٧ بعدم امتحان طلاب شهادة الثانوية العلمية والرياضية في التاريخ؛ لأنهم هم الغالبية العظمى من طلاب الثانوية، على حين كان الذين يدخلون

---

(١) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ٥٤.

منهم في امتحانات الثانوية الفرنسية بإشراف البعث الفرنسي بالجزائر يُمتَحنون في البرنامج الفرنسي كله، ومنه التاريخ[1]. أي إن حكومة الجزائر الخفية تخفي تاريخ الجزائر عن الجزائريين بإيعاز من فرنسة؛ ولا تخفي حكومة فرنسة تاريخها عن الفرنسيين، وليس في وسعها أن تفعل؛ لأنها في بلد ديموقراطي، لا يمكن أن تكون حكومته على خلاف ما يريد الشعب، أو تنتمي إلى غير ما ينتمي إليه، أو تابعة لسياسة من يعاديه، أو منفصلة عنه انفصال الحكومات العربية عن شعوبها. ويتجاوز الأمر التاريخ إلى كل ذي صلة بالهوية، ولا سيما اللغة والدين، فإن الجزائر منذ استقلت ومادة الدين تدرَّس في التعليم العام كله ولا يمتحن فيها؛ ليُصرَف الطالب عن الاهتمام بها، فيتخرج وهو جاهل بدينه كل الجهل. وهو أمر لا يرتاب العارفون بالسياسة الفرنسية في الجزائر في أنه بتخطيط من الإدارات المركزية للفرانكفونية بباريس[2]. والدين هو الذي يصوغ الشخصية العربية، ويلقنها فلسفتها في الحياة، وأهم عنصر من عناصر هويتها، وعنصرها الآخر (اللغة) مرتبط به أشد الارتباط، وهو الذي صنع الجزائر، وبطولاتها، وتحديها الاستعمار الفرنسي، وأعجز فرنسة عن تذويبها وتطويعها، فإذا جهله الطالب، وجهل تاريخه، محيت ذاكرته، وامَّاعت شخصيته، وغدا من اليسير عليه أن ينساق حيث تسوقه فرنسة، كما وقع عام ١٩٧٩، فقد خرج طلاب الثانوية في الجزائر العاصمة ذكورا وإناثا، يصيحون: «التاريخ إلى المزبلة»، لَمَّا أن قَرَّر وزير التربية إدخاله في امتحان الثانوية العلمية، ولكنه تراجع عنه. ولما قررت الحكومة استعادة ثانوية «ديكارت»، وكانت الإدارة الاستعمارية قد أبقتها قلعة لبقايا الجزائريين الأهالي، خرجت نساء كثير من كبار الموظفين في مسيرة تطالب بالإبقاء عليها، وبإلغاء مادة التاريخ من برامج التعليم الرسمية، وكان ما يهتفن به: «التاريخ إلى المزبلة، والعربية إلى المتحف»[3]. وربما لو درسوا تاريخ جرائم فرنسة في الجزائر، وما فعلت بآبائهم وأجدادهم من الفظائع، ومنها التجارب النووية، وكيف اتخذت الجزائريين فئرانا لتجاربها النووية، ما وقع

---

(١) التعريب في الجزائر، ٨٩.

(٢) السابق، ٨٩.

(٣) نكبة التعريب في الجزائر ٢، صحيفة الشروق، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦ م.

شيء من هذا كله، ولكنهم لا يعرفونه[1]؛ لأن فرنسة حجبته عنهم عمدا، وحجْبه عنهم جريمة أخرى من جرائمها المستمرة في لجزائر؛ من أجل أن تفعل بآبائهم وبلادهم ما فعلت، ثم تجعل خلَفهم صنائع، تستعين بهم على بلوغ ما تريد من إدامة استعمارهم واستعمار بلادهم. وفي عام ١٩٨٠ خرج طلاب بعض الكليات والمعاهد المفرنسة بجامعة الجزائر، والمركز الجامعي بتيزي وزو، يدعون بسقوط العربية، والحياة للجزائر الفرنسية، وأحرَقوا العلم، والمصحف، وبالوا على أضرحة الشهداء. وخرجوا عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ يعترضون على تعريب الإدارة، وفي ١٨ مارس عام ١٩٨٠ أضرب طلاب جامعة تيزي وزو عن الدراسة، وأحرقوا العلم الجزائري، ورفعوا مكانه علما انفصاليا، وكانوا يصيحون: «تسقط العربية، يسقط الإسلام، تحيا الجزائر فرنسية»[2]، وخرجوا عام ١٩٩٠ يعترضون على قانون تعميم العربية، وفي عام ٢٠٠٥ أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية قانونا، يمجد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، فحاول مجلس نواب الجزائر إصدار قانون يجرمه غير أن اللوبي الفرنكفوني المتحكم في الدولة حال دون إصداره[3]. وإنما كان هذا أثرا من آثار خطة ديغول عام ١٩٥٨، وما أرادت من غسل عقول الأجيال الجزائرية الشابة من كل أثر للثورة الجزائرية، ومن قيم الجزائر العربية الإسلامية[4]، وأثرا من آثار فصل الجزائريين عن تاريخهم ودينهم، فقد سلبهم ذلك هويتهم، وترك في عقولهم ونفوسهم فراغا، كان من اليسير أن تملأه كل فكرة يسمعونها، وتستميلهم كل دعوة يُدعون بها، فغدوا يحتقرون أقدس مقدساتهم ويعادونها، ويبولون على أعظم رموزهم التاريخية والثقافية، ويتبرؤون منها، طاعةً لفرنسة، بعد أن عصاها سلفهم ١٣٢ عام، قُتِل فيها من يزيدون على نصفهم، وشرِّد كثير منهم في الآفاق. وإنما كان يجب أن تربى الأجيال الجزائرية منذ احتلت فرنسة الجزائر إلى أن تقوم الساعة على فلسفة الشاعر العربي:

نساجلها العداوة ما بقينا ... فإن متنا نورثها البنينا

(١) تفجير فرنسا النووي يهز مواقع التواصل في الجزائر.

(٢) القضية الأمازيغية في الجزائر، ٩٩.

(٣) بريد الجزائر يقرر إلغاء اللغة الفرنسية من كافة الوثائق الرسمية.

(٤) السابق، ٩٠.

فذلك هو مقتضى فلسفة فرنسة في الجزائر، منذ احتلتها: أنها جزء لا يتجزأ منها، كما قال شارل ديغول: ستبقى الجزائر فرنسية من عدة أوجه، وستحافظ على الصبغة التي اكتسبتها مثلما احتفظت فرنسة بالصبغة الرومانية، مع أن شعبها في الأصل كان غاليا[1]. وكان بعد الاتفاق على استفتاء الجزائر على الاستقلال يهددها بالتقسيم، إذا اختارت الاستقلال[2]، يرهب الشعب بذلك ليحمله على الرضا بالاستعمار. وبعد الاستقلال أنشأ الأكاديمية البربرية في باريس عام ١٩٦٧ م[3]، من أجل أن يتخذها وسيلة ضغط، يضغط بها على الجزائر كلما أرادت أن تقرر قرارا سياديا، كالتعريب. وكان يقول: «كانت الجزائر تحتل في حياتنا القومية أهمية لا مجال للموازنة بينها وبين بقية البلاد التي كانت تابعة لنا ...، فقد تعزز موقفنا في إفريقية والبحر المتوسط بفضل الجزائر، إذ أقمنا فيها نقطة تسلل إلى المغرب وتونس والصحراء... وجندنا عددا من المحاربين الجيدين»[4]، وهذا من أسباب ذلك الإصرار على استبقائها جزءا من فرنسة، كما أنه من أسباب أن بعض ضباط الجيش الفرنسي دبروا انقلابا على شارل ديغول من أجل مفاوضته الجزائريين، وتوجهه إلى إعطائهم الاستقلال عن فرنسة، وكان ذلك يوم ٢٢ من إبريل ١٩٦١ م[5]. وعملَ بهذه الفلسفة كل من خلفه من الرؤساء، إلى اليوم، فقد قال فرانسوا ميتران عام ١٩٨٩ م لأحد مقربيه في جلسة خاصة: سأعيد لكم الجزائر دون أن أدفع فرنكا واحدا من ميزانية فرنسة»[6].

ويبدو أن الجيل الحالي يجهل تاريخ الثورة الإسلامية الجزائرية، كما يجهل حوادث عهد الاستقلال، وهذا الجهل يخدم السياسات الاستعمارية في أقطار المغرب والمشرق؛ لأنه يفصل الأجيال عن ماضيها، وعن ثقافتها وحضارتها، ويقطع صلة بعضها ببعض، فتفتح أعينها على حاضرها بسيئاته كلها ومآسيه،

---

(١) مصير وحدة الجزائر، ١٣٥.

(٢) مواقف بن يوسف بنخدة، ٣٢٦.

(٣) شرح مقولات بن نعمان، ٦٨.

(٤) مصير وحدة الجزائر، ٦٠، واطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، ١٦٩.

(٥) اتفاقيات إيفيان، ٢٣.

(٦) مصير وحدة الجزائر، ٥٢.

وتتقبله بخضوع تلقائي؛ لأنها لا تعرف غيره، وتحسب أنه قدرها الذي تستحيل مغالبته، وهي لا تفكر في تغييره، كالعبد الذي نشأ في مجتمع العبيد، لو أعطي الحرية لشك في قدرته على مزاولتها، ولتهيب من العيش في ظلها، وهذه أيضا هي الحرب النفسية الاجتماعية التي يشنها الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي، ويشحن بها فكره[1]. وسياسة الإنساء المتبعة في الجزائر وغيرها من الأقطار العربية هي التي أنست كثيرا من العرب علاقتهم بالدول المستعمرة وتاريخها وحاضرها الأسودين في بلادهم، وعلَّقت قلوبهم بجلاديهم، وجعلتهم يسيرون حيث يريدون لهم، ويثقون بهم مع أنهم لم يروا منهم ما يدعوا إلى الثقة، وما يتكشف من أمرهم ليل نهار يدل على عداوة لا مثيل لها. ولا جرم أن ما عليه أهل المغرب العربي من التهالك على الثقافة الفرنسية والإعجاب بها وسيلة تتوسل بها فرنسة عن وعي إلى قتل روح المقاومة، وتدجين الشعور، وإنساء ما لا يجوز أن ينسى، من أجل أن يخلى بينها وبين الأرض تفعل فيها ما تشاء، وتستلحق أهلها وتستتبعهم. دعك من ضروب الكيد والإهانة والمسخ التي ما تزال تتمادى فيها بأشد ما يكون، حتى لتمسخ الشعوب، وتحول بينهم وبين لغاتهم وهوياتهم، وتجعلهم خدما للغتها، يتحملون منها ما تخاف عليه، إذ أيقنت أنها إلى زوال.

وما يفهم من عنوان مشروع الشرق الأوسط أن الدول الثماني التي أقرَّته عازمة على تغيير العربية، ليكون تعلُّمها في متناول الغربيين، ولا يجدون فيه صعوبة، فإن لم يمكنها ذلك، استبدلت بها لغات يسهل فهمها، وتمكِّن من مراقبة العرب من كثب، لمعرفة ما يتلجلج في صدورهم، وما يزمعون؛ لتحول بينهم وبينه، ومعرفة دوافعه؛ لتعالجهم منها؛ فلا يتعدَّون الحدود التي تَحُدُّ لهم، ولا يعملون عملا ينال من منافعها، من غير حاجة إلى ترجمة، قد تكون غير دقيقة، ولا معينة على معرفة ما توسوس به نفوسهم. وكان لهذا التقرير، والسياسةِ الغربية تجاه العرب، بعد الحادي عشر من سبتمبر، تأثير كبير، مسَّ ثقافة العرب ولغتهم في الصميم، من غير أن يشعروا بذلك شعورا يستفز، أو يُعْدي على المقاومة. فما سماه هذا التقرير «تحديث العربية» -مثلا- ترتب عليه ما مسَّ

---

(١) ثمانون عاما من الحرب الفرنكفونية ضد الإسلام واللغة والعربية، ٦.

العربية من تغيير، ودعوةٍ إليه على يد كثير من لغويي العرب وكتّابهم في هذين العقدين، على وجه، انتهك محارمها، وأسقط الحدود بينها وبين الإنجليزية والفرنسية، بما أدخل فيها من دخيل، ونَحْت، وأساليب، صيرتها مسخا شائها، وكلُّ كلمة منها أو أسلوب هما كلمة أو أسلوب إنجليزيان أو فرنسيان؛ لأنهما ترجمة لهما حرفية. وذلك غرض من أغراض هذا المشروع، وغاية من الغايات التي كانت تسعى إليها بريطانية وفرنسة منذ حين. غير أن المسخ الذي مسَّ العربية، وإن كان يعين الأجانب على فهمها، وفهم ما يقول «الإرهابيون» من أهلها، ليس هو كل ما أراد تقرير الدول الثماني، وساستها بعد الحادي عشر من سبتمبر، وإنما أرادوا أمورا أخر، منها استبدال الإنجليزية والفرنسية بها، في شؤون الحياة كلها: التعليم، والإعلام، والإدارة، والحياة العامة، ومضارتها بالعاميات، وبعْض اللغات الوطنية.

## أولا- استبدال اللغات الأجنبية بالعربية

ما يعلنه هذا التقرير أن الدول الثماني مُصرَّة على تحويل العرب عن العربية إلى الإنجليزية والفرنسية، لتسهِّل اتصالها بهم وتأثيرها فيهم، وإزالة ما بنفوسهم من كره أمريكة وفرنسة وإسرائيل، لعدم معرفتهم بالإنجليزية. غير أن تسهيل الاتصال ليس هو غاية الاستبدال، وإنما غايته محو الذاكرة، إذ كان دين العرب وتراثهم محمولين في جوف العربية، وإذا استبدلت بها لغة أخرى، نسوا لغتهم؛ فحيل بينهم وبين ما في جوفها؛ فانتهى الشعور بالتمايز بينهم وبين غيرهم من الشعوب، وانهدم الركن الذي كانوا يأوون إليه، وانطمست هويتهم، وانقرض منهم ما سوى الأجساد؛ فذهبت دواعي كره أمريكة وفرنسة وإسرائيل، ودواعي الانتقام منها. ومما يعجب له المرء كثيرا أن يستنكر التقرير أن يكره العربُ أمريكة وفرنسة وإسرائيل، ويرى أنهم غير محقين في كرهها، كأن إسرائيل ليست هي التي احتلت أرضهم، وطردتهم من بلادهم، وترتكب فيهم من المذابح والجرائم ما ترتكب منذ سبعين عاما، وأكبر مناصر لها في ذلك، وأكبر مدافع عن جرائمها دول الغرب، ولا سيما أمريكة، وبريطانية، وفرنسة، وهي التي خلقتها، ومكنت لها في بلاد العرب. وكأن أمريكة ليست هي التي دمرت العراق عام ١٩٩١، وصبَّت عليه من القنابل في يومٍ ما يفوق ما ألقت منها في الحرب الثانية كلها، بعد أن حاصرته عاما، ودمرت جيشه، ودفنت جنوده أحياء في خنادقهم. وليست هي التي محته من الوجود عام ٢٠٠٣، وقتلت ملايين من شعبه، وعذبتهم في سجونها، وانتهكت أعراضهم، وضربتهم بقنابل اليورانيوم المستنفد، وسائر أصناف الأسلحة المحرمة. وليست هي التي كان جنودها يزاولون ما يزاولون من أعمال فاضحة في سجن أبي غريب، وقرًى وبلداتٍ ومدنٍ من العراق، من اغتصاب، وتحرش، وإرغام للنساء على التعري،

واغتصابٍ مروِّع في مساجد الفلوجة[1]. ووضعوا سواجير الكلاب في أعناق السجناء، وجرُّوهم بها جرا، تعمدا لإذلالهم، وكانوا يطؤون على أعناقهم، وكانوا يقتدون في ذلك الإذلال المتعمد بما فعل سلفهم من المستعمرين الأوربيين بالمسلمين[2]. وقتلت منهم عمدا في العام الأول من الاحتلال عام ٢٠٠٣ أكثر من ١٠٠ ألف[3]، وقال شون هيوز، جندي مشاة فرقة المارينز الأولى عام ٢٠٠٣ إنه رأى كثيرا من جثث الأطفال مبعثرة في شوارع الناصرية (جنوبي العراق)، مع ما لا يحصى من جثث المدنيين[4]. وقتلت العقوبات عام ١٩٩١، ٥٠٠ ألف طفل دون الخامسة[5]. وليست هي التي محت الفلوجة، وهدمتها على رؤوس العراقيين، ودنَّست المصاحف، وبال عليها جنودها، وسرقوا حلي النساء، ودمرت أفغانستان واحتلتها، وأبادت كثيرا من أهلها، وسجنت من سجنت من المسلمين في غوانتانامو، وارتكبت ما ارتكبت في حقهم من الفظائع[6]!.

ومن لم يعرف من الغرب إلا قشرته، أعجبه ما ينتحل من دعاوٍ، وظنَّ ما تقول وتفعل قلة من فضلائه، تحب العدل، وتكره الظلم، وتناصر الإنسان، يصدُق على الغرب كله، ومن خلَص إلى عوده، علم أنْ ليس فيه ما يُحَبُّ، وأنه مركَّب من الأَثَرة، والكبرياء، والطمع، والجشع، والعدوان، وليس له اعتداد بالبشر خارج حدوده. كما أبان عن ذلك روبرت كوبر، مستشار توني بلير عام ٢٠٠٢ إبانة لا مزيدا عليها: ينبغي على عالم ما بعد الحداثة أن يبدأ بتعود ازدواج المعايير. فنحن يعامل بعضنا بعضا على أسس قانونية وقواعد أمنية تعاونية مفتوحة، لكن حين نعامل الدول العتيقة الطراز خارج أوربة ما بعد الحداثية، نحن بحاجة إلى العودة إلى الأساليب التي هي أشد قسوة، وهي تلك التي استعملت في الحقبة السالفة: القوة، الهجوم الاستباقي، الخداع،

---

(١) ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، ٢٧٥.

(٢) حرب بلا نهاية، ٦١ و ٦٦.

(٣) السابق، ٣٢.

(٤) السابق، ٥١.

(٥) السابق، ٥٥.

(٦) ما بعد الاستشراق، ٢٧٧.

وكل ما هو ضروري. فنحن نحافظ فيما بيننا على القانون، فإذا عملنا في الغابة، وجب أن نستعمل قانون الغاب[1]. وتاريخه الطويل في الاستعمار، وخططُه في الاستحواذ على البشر وما يملكون أبلغ من كل شيء يقال فيه. وأحلافه وخططه الحربية المتجددة، وما ينفق على سلاح الدمار، وما يستحدث منه، واصطناعُه الأعداء، كلما فرغ من عدو، التمس غيره، دليل على عدوانيته، وأن لا أمن ولا أمان لأهل الأرض ما دامت في يده قوة. وكلّ من له إلمام يسير بتاريخه يعلم أن فيه من الظلم، والجسارة على سفك الدماء، والحرص على التفرد بما في الأرض من دون أهلها، ما ليس في أمة من الأمم. وهذا مما يقرُّ به فضلاؤه ومنصفوه قبل غيرهم، فقد قال روجيه جارودي إن «الغرب» كلمة بغيضة، وثقافته ثقافة شوهاء، وهو أخطر عارض طرأ على الأرض، وقد يفنيها. وكان يعلن بغضه لـ«الغرب»، ويقول إنها «كلمة رهيبة»، ويقول: إنني لا أحب لفظ الغرب، وقد حَمَّلوه كثيرا من التعريفات التي خدمت قضايا مشبوهة في تقسيم العالم[2]. وقال نعوم تشومسكي: ثقافة الإرهاب متجذرة وعميقة، وتهيمن على الحضارة الغربية[3]، وقال إن «الولايات المتحدة.. دولة إرهابية رائدة»[4]، وهي الدولة الوحيدة التي أدانتها محكمة العدل الدولية بسبب الإرهاب الدولي، واستعمالِ القوة غيرِ الشرعية، لغايات سياسية، وأمرتْها بإنهاء الجرائم، وأن تعمل على إصلاحاتٍ مهمَّة، فقابلت حكمها بالاحتقار، وصعَّدت حربها الإرهابية على نيكاراغوا، ونقضت قرار مجلس الأمن، وعارضت هي وإسرائيل وحدهما قرارات مماثلة في جميعة الأمم المتحدة العامة[5]. وقال: ما أدري ماذا تسمُّون السياسات التي كانت سببا قويا في قتل مليون من المدنيين العراقيين تقريبا، نصفهم من الأطفال، وهو الثَّمَن الذي قال أمينها إن أمريكة مستعدة لدفعه، فهل لهذا اسم غير الإرهاب؟ أمَّا العون على الفظائع الإسرائيلية، فمثال آخر[6]. ومما

---

(١) حرب بلا نهاية، ٣١٩.
(٢) حوار الحضارات، ١٧.
(٣) الحادي عشر من أيلول، ١٠٤.
(٤) السابق، ١٢ و ٤٢.
(٥) السابق، ١٠٢.
(٦) الحادي عشر من أيلول، ٤٧.

يصدِّق قوله في تأصُّل الإرهاب في الثقافة الأمريكة قول جورج بوش لعبد الله بن الحسين، ملك الأردن، إن عندنا شهوة لسفك الدماء، لكننا لن نتركها توجه رد فعلنا، غير أننا سنبدأ قريبا بإنزال العقاب الشديد[1]، وشكوى وزير دفاعه، رامسفيلد بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر، عدمَ وجود أهداف، تستحق القصف في أفغانستان، وأن على أمريكة أن تفكر في قصف العراق؛ لأن فيه أهدافا أفضل[2]، فهو يشتهي الانتقام والتدمير، كما يشتهي رئيسه سفك الدماء، وإنزال العقاب الشديد، وهو ما تعبر عنه تسميته (رامسفيلد) الحرب على العراق «حرب الصعق والترويع»[3]. وقال مايكل إكناتييف: إن حرب أمريكة على الإرهاب ليست سوى نوع من الاستعمار، وسعيٍ لتكوين إمبراطورية[4]. وفي قمة الأرض بجوهانسبيرغ عام ٢٠٠٢ حَمَلت المنظمات الإنسانية خارج قاعة المؤتمر علَم أمريكة وقد كُتِبَ عليه: «شكرا للرئيس بوش لجعله الولايات المتحدة مكروهة جدًّا»[5]، وقال صن ميانغ مون، مؤسس كنيسة التوحيد: إن الدولة التي هي حصاد الشيطان هي أمريكة[6]. وقال ريتشارد بيرثولد، أستاذ التاريخ في جامعة نيو مكسيكو: من نسفَ البنتاغون حصل على صوتي[7]، وقال أستاذ فيزياء في جامعة ماساتشسيتس - أمهيرست: «العلَم الأمريكي رمز إرهابٍ، وموتٍ، وخوفٍ، ودمارٍ، واضطهادٍ». وقال طالب من طلاب الصحافة في مؤتمر جامعة نورث كارولينة: إذا توليت رئاسة أمريكة، فسأعتذر للأرامل والأيتام كلهم أولُ، وللمعذبين والفقراء، والملايين الأخرى من ضحايا الاستعمار الأمريكي كلهم. وذكر نعوم شومسكي طرفا من إرهاب أمريكة والغرب، وجرائمهما في حق الإنسانية كلها، فقال إنها أبادت سكان أمريكة الأصليين، واجتاحت نصف المكسيك، وتدخلت بالعنف في المواقع المجاورة، واجتاحت هاواي والفيلبين (قتلت منهم مئات الألوف)، وفي النصف الأخير

(١) حرب بلا نهاية، ١٤٢.
(٢) السابق، ١٤٣.
(٣) حرب جورج دبليو بوش الوقائية، ٧٤.
(٤) الإمبريالية الجديدة، ١٣.
(٥) أوكار الشر، ٢٧٥.
(٦) عالم جورج بوش السري، ٧٩.
(٧) أمريكا: الكتاب الأسود، ٢٦.

من القرن الماضي لجأت إلى القوة في أماكن كثيرة من العالم، وكان قتلاها في العالم كثيرا جدا[1]. وبحجة مكافحة الشيوعية ألقت طائراتها من القنابل على أرياف كمبودية أكثر مما ألقت على اليابان في الحرب الثانية، فقتلت ٧٥٠٠٠٠[2]. وقُدِّر الذين أصيبوا في حربها على فيتنام بزَمانة بمليون شخص، بسبب الحرب الكيميائية التي شنت عليهم[3]. وقتلت مليونا ونصف المليون من البشر، ودمرت ما قيمته ستون بليون دولار، في عهد ريغان وحده[4]. وفي العقد التاسع من القرن العشرين أشعلت حربا في أمريكة الوسطى، قُتِل فيها مائتا ألف، وملايين اليتامى واللاجئين، وأخربت أربعة بلدان، وكان سبب ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية أحسنت إلى الفقراء![5]. وزوَّدتْ حكومةَ تركية ٨٠٪ من الأسلحة التي قاتلت بها الكرد في جنوبي شرقي تركية، فقتلت منهم عشرات الآلاف، وشرَّدت ما بين مليونين وثلاثة ملايين، ودمَّرت ٣٥٠٠ قرية[6]، مع أنها تنصب نفسها حامية لكرد العراق من صدام حسين، فهي «تحميهم» في العراق، وتعين على قتلهم في تركية![7]، وأوقع الجيش الذي أعانته على حكم إندونيسية عام ١٩٦٥ مجزرة قُتل فيها نحو من مليون نسمة، معظمهم من القرويين الذين لا أرض لهم، وهي مجزرة شبهتها المخابرات الأمريكية بجرائم هتلر، وستالين، وماو تسي تونغ، ومع ذلك استحسنها الغرب استحسانا لا يمكن وصفه، وغدا سوهارتو من يومئذ صديق أمريكة المتميز، والأول في العالم الإسلامي، مع أنه لا يُعلَم أن القرويين الإندونيسيين آذوا الغربيين بشيء، وسَمَّته إدارة بل كلينتون «رجلها اللطيف»، وعدَّته عام ١٩٩٥ في «النوع الملائم لها من الرجال»، مع أن سجلَّه من أفظع سجلات آخر القرن العشرين، من الذبح، والتعذيب، وغيرها من المظالم[8].

---

(١) الحادي عشر من أيلول، ٦ وما بعدها.
(٢) أمريكا: الكتاب الأسود، ٩٧.
(٣) أوكار الشر، ١٤٢ وما بعدها (هامش).
(٤) الحادي عشر من أيلول، ٨١.
(٥) السابق، ٩٦.
(٦) السابق، ١٠٦.
(٧) أمريكا: الكتاب الأسود، ٧٩.
(٨) السابق، ٧٩ و ٩٤ وما بعدها، والعولمة والإرهاب، ٨٨.

وقال نعوم تشومسكي إن حوادث الحادي عشر من سبتمير لم تَثبت نسبتها إلى من نُسِبَتْ إليه[1]، وإن الجيش الجمهوري الإيرلندي لما فجَّر القنابل في لندن لم يدْعُ أحد إلى قصف بلفاست الغربية أو بوسطن، مصدرِ كثير من تمويله، وإنما اعتقلت بريطانية المجرمين، وكشفت عمن كان سببَ الإرهاب. ولما فُجِّر المبنى الاتحادي في أوكلاهوما، دُعِي إلى قصف الشرق الأوسط، فكاد يقصف لولا أن عُرف المفجِّر، وهو أمريكي، ولم تنطلق الصيحات لتدمير مونتانا وإيداهو، حيث مقر مليشيا اليمين المتطرف التي يرتبط بها المفجِّر، وإنما بُحِث عنه، واقتيد إلى المحكمة، فدين، وبُحث عن المظالم التي حملته على ما فعل؛ لتزال. وهذا بخلاف ما تُعامل به أمريكة العرب، وبخلاف ما فعلت بأفغانستان والعراق بعد الحادي عشر من سبتمبر، مع أنها لم تَجِدْ دليلا، يدين من نَسَبتْ إليهم التفجير، ولا تلبَّثَت يسيرا لتعرفه، ولمَّا طالبها كثير من دول العالم بالتحقيق في الحادثة لمعرفة فاعلها، أبت باحتقار، وأصرَّت على أن تُلْبِس الجريمة من أرادت، ثم قصفته كما كانت قد بيتت[2]؛ لأن سياستها ليست مبنية «على الحقائق والأدلة، بل على الاعتقاد والقوة»[3]. وفعلت أوربة في إبان استعمارها مثلما فعلت أمريكة، فقد اجتاحت جيوشها معظم العالم بوحشية شديدة، وهي ظالمة، ولم يقاتلها من احتلت بلادَهم إلا نادرا، فلم تغْزُ الهندُ إنجلترة، ولا الكونغو بلجيكةَ، ولا إثيوبية إيطاليةَ، ولا الجزائرُ فرنسة[4].

وإذا كان من دأب الغربيين، عامة، والأمريكيين خاصة، أن يُلْبِسوا غاياتهم لباسا إنسانيا وأخلاقيا، يتزينون به في عيون من لا يعرفهم، ويسوِّغون المنكر من أفعالهم، فما خفي يوما أمرهم ولا مقصد من مقاصدهم على عارف، فقد قال ديفيد هارفي: اعتادت أمريكة منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا أن تخفي مكاسبها الإقليمية واحتلالها الأرض بقناعِ نشْرِ قيمها في العالم دونما حدود للمكان، وغلَّفت تلك القيم بخطاب جميل، كانت نهايته ما

(١) أمريكا: الكتاب الأسود، ٦٩ و ١١٤ وما بعدها و ١٢٧.
(٢) الحادي عشر من أيلول، ٢١ و ١٢٦.
(٣) حرب بلا نهاية، ١٣.
(٤) الحادي عشر من أيلول، ٦ وما بعدها.

صار يعرف بالعولمة[1]. وهل إذا قال جورج بوش بعد عام من الحادي عشر من سبتمبر: سنستعمل «قوتنا ونفوذنا اللذين ليس لهما نظير لخلق مناخ من النظام الدولي والانفراج، تزدهر في ظله الحرية والتقدم في دول كثيرة، فالعالم الذي ينعم بالسلام والحرية يخدم مصالح أمريكة على المدى البعيد، ويعكس المُثُل الأمريكية، ويوحِّد حلفاء أمريكة...، نحن نريد سلاما عادلا، ينعدم فيه الاضطهاد والفقر والبغضاء، ويَحُلُّ محلها الأمل بالديموقراطية، والتنمية، وأسواق حرة، وتجارة حرة»[2]، هل يَخْفَى على أحد ما يريد، ومقاصد ما فعل، وما كان يريد أن يفعل؟ وأن أمريكة خاصة، والغرب عامة، ما نزلا أرضا إلا أسرع إليها الخراب، وسُفِكت الدماء، وأُذِلَّ الإنسان؟ ومتى استُعْمِلت قوة أمريكة وسلطانها يوما من أجل الحرية، أو في غير الظلم ونصرة الظالمين، والعدوان على المستضعفين؟ ومن ذا الذي يحمل قول كولن باول: إن أمريكة أهل لأن يوثق بأنها لن تسيء استعمال قوتها، على محمل الجد، ولم يرها يوما أحسنت استعمال القوة؟ ومن ذا الذي يصدِّق أن أفغانستان وغيرها من البلدان تطالب بنوع من الإدارة الأجنبية المستنيرة شبيهة بتلك التي قدَّمها رجال إنجليز واثقون، يلبسون الخوذ، ويمتطون الخيل[3]، كما زعم مايكل إكناتييف؟ وكيف يطالب الأفغان بإدارة كإدارة الإنجليز، وهم الذين ضربوهم هم وإخوانهم من الكرد بالغازات السامة، بأمر من ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطانية يومئذ، «وكان وحشا فظا حقيقيا»، كما قال تشومسكي، وكان يسميهم «القبائل الهمجية»؛ لأنَّ ضربَهم بالغازات السامة سيرهبهم، ويحافظ على حياة البريطانيين، وبعد ذلك بمدة أخفت الحكومة البريطانية وثائق تلك الحوادث من مكتب الإرشيف القومي، لطمسها، لبشاعتها؟[4]. وهل رأى العالم من أمريكة، وبريطانية قبلها، ومن الدول المستعمرة كلها إلا ما يخلِّد بغضها في نفوس البشر لأُخرَى الدهر، حتى أولئك الذين لم ينلهم بطشها، ولم يقع عليهم استعمارها، وإنما يمقتونها حمية للإنسانية، وشنآنا للظلم؟ وهل جاءت واحدة

---

(١) الإمبريالية الجديدة، ٥٦.

(٢) السابق، ١٥.

(٣) السابق، ١٤.

(٤) العولمة والإرهاب، ٧٦ وما بعدها.

منها إلا بالظلم والقتل والدمار والاحتلال؟ إنما هذا شيء يُستغفَل به من لا يعرف حقيقة الاستعمار الغربي، أو هو في أحسن الأحوال من قبيل ما قال الله -تعالى-: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا).

لقد ارتكب الغرب عامة، وأمريكة خاصة، من الجرائم في حق الإنسانية ما لم ترتكب أمة من الأمم، ولم تُعرف في التاريخ أمة أقسى من الغرب، ولا أقلَّ إنسانية، ولا أشدَّ وحشية وإرهابا، وإفسادا في الأرض، ولذلك قال دارون: «حيثما خطا الأوربيون، مشى الموت في ركابهم إلى أهل البلاد»[1]، وقال تولستوي: «أولئك الذي يقدِّمون أنفسهم على أنهم أكثر الشعوب تحضراً وتقدماً هم في واقع الأمر أكثر الشعوب سفكاً للدماء وأقلهم إنسانية وأخلاقاً». وكان القتل في تاريخهم قرينَ الاستعمار، وقلَّما بلغوا من بلد ما أرادوا إلا بالقتل والدمار، وكانوا -مع ذلك- يرون أن ما يفعلون قربةٌ إلى الله، ونعمة منه على من يَقتلون ويدمرون، وأنهم ينشرون الحضارة، ويُخْرجون الناس من الظلمات إلى النور، يستوي في ذلك أولهم وآخرهم، وهو أمر، ما أعرف له نظيرا إلا ما ورد في أسفار العهد القديم، مِنْ زعم اليهود أن الله أوصاهم عند الانتصار على العدو بالإبادة الشاملة التي لا تستثني طفلا رضيعا، ولا امرأة، ولا حيوانا[2]. ومما يبين عن جانب من وحشية الأوربيين وعدائهم للإنسانية، ما جاء في رسالة جون ونثروب، الحاكم الأول لمستعمرة مساشوستس إلى نانتنيال ريش: بفضل الله ونعمته لم يَمُت من المستوطنين (الأوربيين) الأربعة آلاف في السنة الماضية سوى اثنين أو ثلاثة بالغين، وبعض الأطفال، وكنا نادرا ما نسمع بالملاريا أو غيرها من الأوبئة، أما الهنود الحمر، فماتوا كلهم تقريبا بالجدري، وبذلك أعطانا الله صكَّ هذه الأرض[3]. وقول وليم برادفورد، حاكم مستعمرة بليموث: مما يُرضي اللهَ ويفرحه أن تزور هؤلاء الهنود، وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت، فيموت ٩٥٠ منهم من كل ألف، وينتن بعضهم فوق الأرض، فلا يجد من يدفنه. «إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته»[4].

---

(١) الهويات والتعددية اللغوية، ١٧.

(٢) انظر: سفر صموئيل الأول، الإصحاح الخامس عشر.

(٣) الهويات والتعددية اللغوية، ١٧.

(٤) الموضع السابق.

وهو شبيه بما كان المارشال الفرنسي فالي يقول فيما صنع بالجزائريين: «إن الله معي ينصرني، ويرعاني»[1]، وبما كان جورج بوش الابن يقول لخلصائه، إن الله هو الذي يهديه إلى ما يرتكب من جرائم في حق البشر[2]. وفي أثناء حملته الانتخابية كان يقول إن يسوع هو المفكر المفضل لديه؛ لأنه «أنقذ له قلبه». وقال بعد انتخابه: «ما كنت لأصبح حاكما لو لم أكن أؤمن بخطة إلهية، تحل محل الخطط الإنسانية كلها»[3]. وقال في خطبته الأولى بعد توليه الرياسة: إن ملكا «يقود الدوامة، ويوجه هذه العاصفة»[4]. وقال لجاك شيراك، وهو يحاول إقناعه بدخول فرنسة الحرب على العراق إنه نزل عليه وحي من السماء بإعلان الحرب على العراق؛ لأن يأجوج ومأجوج خرجوا في الشرق الأوسط للقضاء على الغرب النصراني، فعلم جاك أنه يعتقد أن جيشا عالميا إسلاميا متشددا يهدد الغرب؛ لأنه يساند إسرائيل، وما العدوان على منهاتن يوم ١١ أيلول (سبتمبر) لديه سوى بداية تنفيذ المخطط[5]. وقال هوارد سيمبسون: إن المستعمرين الإنجليز ما اجتاحوا أمريكة بعبقريتهم العسكرية، أو دوافعهم الدينية، أو طموحهم، أو وحشيتهم، وإنما بحربهم الجرثومية التي لم يَعرِف لها تاريخ الإنسانية مثيلا[6]. وهو واضح من قول وليم برادفورد: «تزور هؤلاء الهنود، وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت». وقد أهدى بعض هؤلاء إلى الهنود في فورت كلارك عام ١٨٣٧ أغطية مسمومة بجراثيم الجدري، فقتلت منهم في أقل من سنة أكثر من مائة ألف نسمة[7]. وكان الهنود الحمر قبل غزو كولمبس بلادهم ١١٢ مليون نسمة، فلم يبق منهم عام ١٩٠٠ سوى ربع مليون[8]. ولَخَّصَ نيقولاس أوستلر -وكان يتعمد عدم تسمية الأشياء بأسمائها، ويؤثر التلميح على التصريح، على وجه يَخفى المراد منه على من لا يعرف

---

(١) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٣٥٤.
(٢) حروب جورج دبليو بوش الوقائية، ٩٤.
(٣) عالم جورج بوش السري، ١٦.
(٤) السابق، ٦.
(٥) أسرار غريبة حول حرب بوش على العراق يكشفها شيراك، ٢١.
(٦) الهويات والتعددية اللغوية، ١٧.
(٧) الموضع السابق.
(٨) أمريكا والإبادات الجماعية، ١١ و ١٦، والهويات والتعددية اللغوية، ١٦.

طرفا من تاريخ الأوربيين في أمريكة، وما ارتكبوا فيها من جرائم، لا مثيل لها- لخص ما فعل بعض الأوربيين في أمريكة، فقال إن من المستحيل تقدير سكان الأمريكتين، قبل اتصال الأوربيين بهم، ذلك أن التقديرات تتراوح بين ١٣ مليونا و ١٨٠ مليونا، ولكنْ في كل مكان دليل على سقوط قتلى بالجملة، وبكثرة، في السنين الأولى من وصول الأوربيين، وقد شكا الإسبان من تفريغ أول الجزائر التي استعمروها من سكانها، وهي كوبا، وهسبانيولا. وتُبيِّن الأرقام سبب شكواهم، فقد كان سكان هسبانيولا عام ١٤٩٤ م، ١ر١ مليون نسمة، وفي عام ١٥١٤ (أي بعد ثمانية عشر عاما فقط) كانوا ٢٢ ألف نسمة فقط!. وأصاب المكسيكَ كثيرٌ من الأوبئة، وبدأت بالزيارة الإسبانية لعاصمتها تينوكتيتلان التي أُبعد عنها جلُّ سكانها الأصليين، وانتشرت جنوبا إلى غواتيمالا. وكتب جوزيف دي أوكوستا في العقد التاسع من القرن السادس عشر أن سكان سواحل حوض البحر الكاريبي كله تعرضوا للضياع والتشرد، وفُقِد منهم تسعة وعشرون من كل ثلاثين، وقال إن من المحتمل أن سائر الهنود سيضمحل بعد وقت قصير. وقاد هرناندو دي سوتو حملة من فلوريدة والساحل الجنوبي الشرقي لأمريكة الشمالية في منتصف القرن السادس عشر، فوجد زحاما كثيفا من الهنود، متجمعين في مدن صغيرة على نهر المسيسيبي قرب ممفيس الحديثة، ولما زار الرجال البيض البلاد عام ١٦٨٢ (وكانوا فرنسيين) وجدوها مهجورة (أي إنهم أبيدوا). وكان فتك الأمراض بالسكان الأصليين أسرع من فتك رؤوس حراب الإسبانيين، فقد وصل الجدري إلى بيرو عام ١٥٢٥، وإلى فرانسيسكو بيزارو عام ١٥٣٢، وأودى بحياة هواينا كاباك، من عشيرة الإنكا، وكثير من أقاربه. وبعد ذلك حلَّت أوبئة كالتيفوس، والزكام، والدفتريا، والحصبة، ومزيد من الجدري، في كل مكان، فأبادت السكان. «ولم يكن الغزاة الإسبان غزاة إنسانيين على نحو ملحوظ»[1]. وما يزال التعطش إلى سفك الدماء، وإبادة الشعوب، دون شعور بالحرج، ديدن الشعوب الأوربية -ومنها الأمريكيون- حتى اليوم، حتى ليمكن أن يعد غريزة فيهم، أو كالغريزة، فقد قتل الأمريكيون من الفييتناميين في عهد ريتشارد نيكسون واحدا وعشرين ألفا، قبل اتفاق وقف الحرب، ومن يزيد

(١) إمبراطوريات الكلمة، ٤٦٩ وما بعدها.

على ٦٠٠ ألف مقاتل، وعددا غير معروف من المدنيين، ولا يعرف كم مات من كمبودية ولاوس[١]، وقتلوا من مقاتلي فييتنام عام ١٩٦٧ مائة ألف، وجرحوا خمسين ألف مدني[٢]. وفي عام ١٩٦٩ ذبح لواء المشاة الخفيف الحادي عشر من الفرقة الأمريكية من لا يقل عن ٣٥٠ من الفييتناميين المدنيين العزل، وأطلق الجنود وصغار الضباط الرصاص، وقتلوا بالسلاح الأبيض الشيوخ والنساء والأطفال، حتى الرضع منهم، وضربوا بعض النساء واغتصبوهن قبل أن يقتلوهن، وأحرقوا المساكن كلها حتى سووها بالأرض، وألقوا جثث القتلى من الناس والمواشي في الآبار لتسممها[٣]. وبلغ مجمل من قتلوا من الفييتناميين طوال الحرب ثلاثة ملايين[٤]. وكانت أمريكة تدفع ٨٠٪ من تكلفة الحرب الفرنسية في فييتنام، وتعينها بمائتي خبير[٥]. وكشف كتاب كاظم المقدادي «التلوث الإشعاعي والمضاعفات الصحية لحروب الخليج» جانبا مما فعلت أمريكة بالعراق في حربيها عليه عامي ١٩٩١ و ٢٠٠٣، فقد قصفته بذخائر مشعة، بلغت أكثر من ٢٢٠٠ طن متري من اليورانيوم المنضَّب، وقال بعض الباحثين إنها بلغت أكثر من ٣٠٠٠، أي أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ كلغم[٦]، تساوي ٢٥٠ قنبلة ذرية، وكان من آثار ذلك ما قال العالم الكَنَدي، هاري شارما، من أنه سيموت بالسرطان ٥ - ١٢٪ من الذين عُرِّضوا لأسلحة اليورانيوم المنضب عام ١٩٩١، وأن مائة ألف عراقي في البصرة وحدها أصيبوا بالسرطان بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٨، ٧٥٪ منهم أطفال. وكان هذا سبب أمراض السرطان المسجلة في العراق، وتشوُّه المواليد الخلقي، وتلويث البيئة. وانتشرت في العقدين الأخيرين الأمراض السَرطانية في المجتمع العراقي انتشارا عظيما، فبلغ المصابون بها أكثر من مليون إصابة مُسجَّلة، وما يزال المصابون يزيدون، هذا إلى عشرات الآلاف من الإصابات والوفيات غير المسجلة، تظهر كلَّ عام.

---

(١) غطرسة القوة، ١٨.

(٢) السابق، ٦٢١.

(٣) السابق، ٦٩٩.

(٤) السابق، ٦٠٩ (هامش).

(٥) السابق، ٣٤٦.

(٦) التلوث الإشعاعي في العراق، ١٠.

ويموت من هذه الإصابات كل عام ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف نسمة. وقد يصاب المريض بغير حالة سرطانية (اثنتين أو ثلاث، أو أربع) في وقت[1]. وإشعاع اليورانيوم المنضب، يدوم -إن لم ينظَّف في وقته- أربعمائة وخمسين مليار سنة، أي طول الحياة. ومن أشد أضراره أن الأمراض التي تصيب الجسم منه تورث، ولا تقتصر على من يصاب بالإشعاع وحده[2]؛ ولهذا قالت العالمة الأمريكية موريه: إن مستقبل العراقيين الوراثي (الجيني) قد دُمِّر، أما البيئة في الخليج، فملوثة تلويثا تاما بالإشعاع، وتذهب التقديرات العلمية إلى أنها ستظل مشعَّة إلى آخر الدهر، وستمتد آثار الحرب الإشعاعية إلى ما يجاور الخليج من الأقاليم، أيضا[3]. وتجاوزت آثار هذه الأسلحة العراقيين إلى جنود الدول الغازية، فقد تبين من معلومات نشرتها الجمعية الملكية البريطانية أن الجنود الذين استنشقوا أو ابتلعوا اليورانيوم المنضب تلفت كُلاهم في أيام قليلة. وقالت رابطة مخضرمي حرب الخليج إن من لا يقل عن ثلاثمائة ألف جندي من جنود الحرب مصابون بأمراض مهلكة، وقد طلب ٢٠٩ آلاف من هؤلاء التعويض عن العجز الذي أصابهم من الأمراض. وقال بعض خبراء الطب النووي في جامعة جورج تاون إن عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين والبريطانيين المرضى يموتون الآن بسبب الإشعاع الذي عُرِّضوا له في حرب الخليج عام ١٩٩١، وعُثِر بتفاعلات كيميائية في أوصالهم وعظامهم وأدمغتهم وبولهم، سببها اليورانيوم[4].

ونهبت أمريكة متحف العراق ودار الكتب الوطنية عام ١٩٩١، وكانت لندن ونيويورك أعظم سوقين لبيع ما اشتملا عليه من وثائق ومخطوطات وآثار نادرة، ونُهِب عام ٢٠٠٣ كثير من النسخ القديمة النادرة للقرآن الكريم، والخطوط الإسلامية، وما لا يعوَّض من الوثائق العثمانية، ودُمِّر ما لا يُحصَى من النصوص، وأُشعلت فيه النيران، وكان ذلك على مرأى ومسمع من الجيش الأمريكي[5].

---

(١) اليورانيوم الذي ألقي بالعراق يساوي ٢٥٠ قنبلة ذرية، موقع الجزيرة نت.

(٢) التلوث الإشعاعي في العراق، ١٠.

(٣) السابق، ١١.

(٤) كيف تقصف أمريكا أبناءها بالسلاح النووي، ١٠٦ وما بعدها.

(٥) الحكومة الأمريكية متورطة في سرقة مدبرة للكنوز الفنية العراقية، ٢٣ وما بعدها.

وهي جريمة في حق الإنسانية كلها جمعاء. هكذا فعل «العالم الحر»، الذي يدَّعي أنه رسول الحرية، والسلام، والحضارة، والتنوير، والرقي، والإنقاذ، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، وأن غيره إرهابيون، وقتلة، وظلاميون، فعلَ ببغداد ما فعل بها المغول عام ٦٥٦ هـ، إلا أن المغول لم يكذبوا، ولا انتحلوا غير نيتهم، ولا ادعوا أن لهم أربا غير الذي أصابوا، و«العالم الحر» منافق عليم اللسان، صليب الوجه، يقتل الضعيف، ويقول للعالم إنه قتله حفاظا على الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وإن العالم يجب أن يكون عونا له عليه؛ لأن في قتله تخليصا للعالم من الإرهاب!. وفعلت زعيمة «العالم الحر» شيئا آخر، ينم على ما أرادت من «تخليص العالم من أسلحة العراق»: عمدت إلى وزارة الري العراقية، فنهبتها ودمرتها تدميرا تاما[١]، وسَمَّت دان أمستوتز مديرا للشؤون الزراعية بالعراق، وكان مديرا لشركة كارغيل، أكبرِ مصدِّر للحبوب في العالم، ومعنى ذلك -كما قالت منظمة أوكسفام الخيرية البريطانية- أن تسميتها إياه في هذا المنصب إنما كانت من أجل أن يعوق إعادة إصلاح الزراعة في العراق، ليتأتى له بيع الحبوب الأمريكية على أهله. وقال مدير المنظمة، كيفين واتكينز: إن تسميته مسؤولا عن إعادة بناء الزراعة في العراق كتسمية صدام حسين عضوا في لجنة حقوق الإنسان![٢].

وليست أمريكة التي يبغضها العرب «ظلما» هي التي تحمي إسرائيل، وتتعهد بأن تفوق العرب مجتمعين، وتدافع عنها في المنظمات الدولية، وتستعمل حق النقض لتحميها من «عتاب» مجلس الأمن في بعض ما تأتي من جرائم، وتعطيها الأموال الطائلة، وتسلحها بأحدث الأسلحة، وتفتح لها أبوابها، لتصيب منها ما تشاء، على وجه يجعل أمريكة أشبه بمستعمرة يهودية منها بدولة صديق، أو حليفة. وهي التي أعانتها على غزو لبنان، وسلَّحت غزوها، ودافعت عنه، فقتلت من أهله عشرين ألف نسمة، لأغراض سياسية، ولم يكن لغزوها سبب أي سبب آخر[٣]. ومع هذا لا يدري ساسة أمريكة لماذا يكره العرب أمريكة، ولا

---

(١) الحكومة الأمريكية متورطة في سرقة مدبرة للكنوز الفنية العراقية، ٣٢ وما بعدها.
(٢) أوكار الشر، ٣٦٧.
(٣) العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم، ٧٤.

يدرون لماذا يكرهون إسرائيل، وفرنسة، وهو سؤال لم يسأله المغول؛ لأنهم كانوا أوضح، وأصدق مع أنفسهم ومع الناس من «العالم الحر»! وهم يدرون، في الحقيقة، ولأنهم يدرون يريدون أن يمحوا ذاكرة العرب مما علق بها من فظائع أمريكة والغرب، وأن يحولوا بينهم وبين أن يعلموا ما لا يعلمون منها، وهو أكثر مما يعلمون، مخافة أن ينتقموا منهم؛ لأن ذاكرة تضم سجل فظائع الغرب في العالم، ولا سيما العالم الإسلامي، لا تسالم أو تنتصف.

وكان موقف أكثر الطبقة الفرنسية المثقفة من استعمار الجزائر غير كريم، فقد تراوح بين الاستحسان والتأييد والصمت، ولم يحرك أكثرهم ساكنا للتنديد بجرائم فرنسة في الجزائر[1]، كأليكسيس دوتوكفيل، وفيكتور هيجو، ولامارتين، وكان لامارتين من رجال السياسة يومئذ، وأيد ما فعلت، وكان بلزاك يأمل أن تجلب الجزائر خيرا كثيرا لفرنسة[2]. وكانوا يسوغون مجازر فرنسة في الجزائر، وكان فكتور يقول: «إن الغزو الجديد الذي قمنا به في الجزائر ذو شأن كبير ومفرح، إنها الحضارة التي تكتسح البربرية، إنه الشعب المستنير الذي يذهب باتجاه شعب غارق في الظلام، ويقصد الجزائريين، نحن إغريق العالم، وعلينا أن نضيئه»[3]. واعجب لحضارة تقوم على ذبح البشر وحرقهم، وتشريدهم، وبقر بطونهم، والتمثيل بجثثهم، وتدمير غلالهم وقتل حيوانهم، واعجب لإضاءة هذا وما هو أسوأ منه كل ما فعلت بالجزائر، ويدعو أدباؤها إلى التمادي فيه. وإذا لم تكن هذه هي البربرية، بل أسوأ ما يتخيل منها، فما أدري ما هي. وقال ألكسيس دي توكفيل: لقد سمعت مرات في فرنسة أناسا -أحترمهم، ولا أوافقهم- يستنكرون إحراقَ المحاصيد، وإفراغ المطامير، وأسْرَ رجال بلا سلاح، وسبي نساء وأطفال، لكن لا بد من هذه الأعمال لكل من يريد محاربة العرب، إن قانونَ الحرب يجيز لنا تدمير البلد، ونحن نفعل ذلك بإتلاف المحاصيد، والهجوم الذي نسميه غزوة، للاستيلاء على الأشخاص والقطعان[4]. وقال في تقريره عام ١٨٤٧: لقد استحوذنا على موارد المؤسسات الدينية التي كانت

(١) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ١٧.
(٢) الموضع السابق.
(٣) جرائم فرنسا في الجزائر، ٢١.
(٤) الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ٢١، وجهاد الجزائر، ١٠.

موقوفة على التعليم العام وسدِّ حاجات المعوزين كلِّها، وصرنا نستعملها في غير ما كانت مجعولة له، لقد هدمنا المؤسسات الخيرية، وتركنا المدارس تندثر، وشتتنا المحاضر، لقد انطفأت الأنوار من حولنا، وتوقف نَدْب رجال الدين والقانون، ومعنى ذلك أننا صيَّرنا المجتمع الإسلامي أكثر بؤسًا وفوضى وجهلا وبربرية مما كان عليه قبل أن نعرفه[1]. وهي أمور ليس فيها ما يمكن أن يبيحه خلق، وتوكفيل يقر ببعض ذلك، بيد أنه يرى أن قانون الحرب يسوغه، ولكنه لم يذكر مسوغات الحرب. ويذهب بعض الباحثين إلى أن فيكتور هيجو اعترف بأن احتلال الجزائر وصمة عار لفرنسة[2]، وهو اعتراف ربما كان متأخرا، إذ تكشَّف من فظائعها ما لم يكن يخطر لأحد ببال، وكان -بعد- اعترافا نظريا، لم يتعدَّ القول. وممن يُستثنون من مثقفي فرنسة ألفونس دوديه، فقد صور بؤس الجزائر، وموبسان، فقد رأى كل شيء في الجزائر جميلا ما عدا الوجود الفرنسي[3]. ومن وقف على بعض ما فعلت فرنسة بالجزائر لم ينقض عجبه من أن يعدَّ الفرنسيون أنفسهم في البشر، فضلا عن العالم المتحضر، ولم يدر ما تعني الهمجية عند الفرنسيين إذا كان ما فعلوا بالجزائر من أفعال المتحضرين، أو لا ينافي التحضر! وقد اعترف بكثير مما فعلت ضباطها الذين أشرفوا على فعْلها ونفذوه هم وجنودهم، واستنكره بعضهم أشد الاستنكار، حتى أشدهم قسوة، وحقدا على الجزائريين، واعترفوا بما كانوا يتسمون به من وحشية، وتبلُّد، وتجرُّد من الإنسانية. فقد سجَّل الجنرال روفيقو في تقرير، أرسله إلى القيادة يوم ١٦ إبريل عام ١٨٣٢: لقد فاجأنا قبائل في سهل المتيجة، وهي نائمة، وفي العودة كان جنودنا الفرسان يحملون الرؤوس على سيوفهم، أما حيوانهم، فبيع للقنصلية الدانمركية، أما أشلاء الجسم الملطخة بالدماء، فوضعت في معرض في باب عَزُّون، وكان الناس يرون حلي النساء وهو في سواعدهن المقطَّعة، وآذانهن المصلَّمة[4]! وقال بيجو: لقد أحرقنا كل شيء،

---

(١) التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، ٨١ (نقلا عن: التعريب في الجزائر بين تعريب الفكر والتعريب اللغوي، ٨١ وما بعدها)، والتعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ٢٠

(٢) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ١٧.

(٣) الموضع السابق.

(٤) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٩٠.

وحطمنا كل شيء، لم يكن الجنود يميزون بين الرجال والنساء والأطفال، كانوا يفعلون كل شيء: النهب والقتل والتشريد، كم من امرأة بقر بطنها وهي ترضع طفلها. ومنعت الحكومة الفرنسية الصحف أن تعرض لهذه الأعمال الوحشية مخافة أن تصل إلى الرأي العام الأوربي»[١]. وقال العقيد مونتانياك، وهو أكثر الضباط الشبان حقدا على الجزائريين، في رسالة إلى أحد أصدقائه: أراك تسألني: ماذا نفعل بالنساء اللائي نأسرهن؟ إننا نحتفظ ببعضهن رهائن، ونبادل بعضهن بالخيل، ثم نبيع الأخريات في المزاد العلني كالمواشي للجنود، ومن هؤلاء النسوة من هي غاية في الجمال، ومن الأطفال من له جمال ساحر. وفي المعارك التي نخوضها منذ أربعة أشهر مشاهد يرقُّ لها الصخر الأصمُّ، لو كان لأحدنا وقت يفسح فيه المجال للعواطف، غير أننا صرنا ننظر إلى هذا دون مبالاة، وهذا أمر لا تستريح إليه النفس. وهكذا يا صديقي العزيز ينبغي أن نحارب العرب: ينبغي أن نقتل الرجال الذين تزيد أعمارهم على خمسة عشر عاما كلهم، ونأسْر النساء والأطفال ونبعث بهم إلى جزائر ماركيز، أو غيرها. وبإيجاز: «ينبغي أن نقضي على كل من لا يركع أمامنا كالكلب»[٢]. وفي ٨ مايو عام ١٩٤٥ قتل الفرنسيون ٤٥ ألف جزائري[٣]. وكان الجنرال بيجو يقول إنه يجب قتل من جاوز ١٥، والاستيلاء على النساء والأطفال، وإرسالهم إلى جزائر الماركيز، أو إلى جهة أخرى، «وإفناء كل ما من شأنه أن يزحف تحت أقدامنا كالكلاب»[٤]. وقال موريس فاهل (Maurice Wahl)، وهو أحد غلاة الاحتلال الفرنسي المتحمسين لنشر الثقافة الفرنسية: «لقد شرعنا بادئ ذي بدء في هدم كل المسايد تقريبا (وهي المدارس الابتدائية)، والزوايا (الريفية)، والمدارس (الثانوية)، وبعض المدارس الإسلامية الأخرى الموجودة قبل ١٨٣٠، وبعدها انهمكنا في إجراء تجارب ارتجالية لم تنجرَّ عنها سوى نتائج هزيلة، وأحيانا سلبية»[٥]. واعترف الدوق دوفال، الوالي العام على الجزائر في تقرير له إلى

---

(١) آثار التربية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ٨.

(٢) الموضع السابق، والجزائر: الأمة والمجتمع، ٣٣٤.

(٣) جرائم فرنسا في الجزائر، ١٤

(٤) السابق، ٢١.

(٥) حزب البعث الفرنسي، ٧٣.

حكومة فرنسة: «قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها دكاكين وثكنات»[1]. وقدَّر بعضهم شهداء الجزائر منذ الاحتلال إلى الاستقلال بأكثر من مليونين ونصف، ولعل الصواب ما قال جاك جوركي، وهو فرنسي، إنهم قتلوا عشرة ملايين[2].

وقال حمدان خوجة إن بعض المجازر لم ينج منها أحد، لا من الرجال ولا من النساء، ولا من الأطفال، وإن الرضع قُطِّعوا على صدور أمهاتهم[3]!. وكان الفرنسيون يقولون صراحة إنهم يريدون الجزائرَ دون جزائريين[4]؛ ليوطنوا فيها من أرادوا توطينه من الفرنسيين والأوربيين، توطينا يتملكونها به، ويجعلونها -كما أرادوا- جزءا لا يتجزأ من فرنسة، ولذلك فعلوا بهم مثلما فعل المهاجرون الأوربيون بالهنود الحمر. وكان جانب من هذه السياسة مبنيا على ثقافة وفلسفة عند الأوربيين في علاقة أوربة بالمغرب العربي، منذ احتل الروم هذا الإقليم، وهي التي أوحت إلى هيغل أن يقول في كتابه «محاضرات في فلسفة التاريخ»: ينبغي تقسيم إفريقية إلى ثلاثة أقسام: الأول يقع جنوبي الصحراء الكبرى، وهو إفريقية على الأصالة، وهي الأقاليم الجبلية التي نجهلها جهلا تاما، والثاني ما يقع شمالي الصحراء (المغرب العربي)، وهو ما سماه إفريقية الأوربية، ولقد كان من الواجب أن يربط هذا الجزء من إفريقية بأوربة، ولا بد أن يرتبط بها. وقد بذل الفرنسيون أخيرا جهودا ناجحة من أجل ذلك[5]. وهذه الثقافة والفلسفة هما اللتان أوحتا إلى ماكس نوردو أن يقول: إن شمالي إفريقية يجب أن يكون مهاجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية، وأما سكانه الحاليون، فيجب أن يدفعوا نحو الجنوب، وفي مجاهل الصحراء إلى أن يفنوا هنالك[6]، وإلى أرمون فيكتور هين، مؤسسِ شركة استعمار الجزائر أن يقول: يستحيل أن يدمج الأهالي (الجزائريون)، ينبغي طردهم إلى الجنوب وإبادتهم. لا بد من معاملتهم معاملة

---

(١) حزب البعث الفرنسي، ٨٢.

(٢) جرائم فرنسا في الجزائر، ٢١ و ٢٣.

(٣) المرآة، ٢١٦.

(٤) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٩٥.

(٥) السياسة الاستعمارية وإجراءاتها ضد التعليم العربي الإسلامي في الجزائر، ١٧٨، والمغرب المعاصر، ٨٢ (نقلا عن: بورقيبة والإسلام، ١٣٢ (الهامش).

(٦) اللغة بين القومية والعالمية، ٤٩، والجزائر في التاريخ، ٤٦٤.

الوحوش، ورميهم في الصحراء[1]. وإذا كانت فرنسة قد نفت كثيرا من الجزائريين إلى بعض مستعمراتها خارج إفريقية، وحملت سياستها الوحشية كثيرا منهم على الهجرة إلى تركية، وبعض الأقطار العربية، كتونس، ومصر، والشام، والحجاز، فقد أخرج الإيطاليون أهل الجبل الأخضر منه، وهم لا يقلون عن ثمانين ألف عربي، إلى بادية سرت القاحلة، واغتصبوا نحوا من مائتي ألف هكتار من أرضهم، وأذاعوا على لسان قنصلهم في الأرجنتين أن حكومة برقة وطرابلس تعطي الأرض الخصبة فيها كلَّ إيطالي، يريد النقلة إليها. وفي عام ١٩٢٤ انتزعوا ٤٢٠ ألف هكتار من غير مقابل، وفي بعض الأحيان كان المقابل عن كل مائة ألف هكتار ستة آلاف فرنك إيطالي، أي خمسين جنيها تقريبا، وخرج أهل الجبل الأخضر عند إجلائهم منه وهم لا يملكون ما يقتاتون به، فرتبوا لكل أهل بيت فرنكين في اليوم، فكانوا يعيشون بهما عيشة بؤس تفتت الأكباد، وفي أثناء نقلهم إلى صحراء سِرْت كان كلما عجز واحد منهم عن مواصلة المشي قتل[2]. وهو عمل يدل على سياسة مبنية على فلسفة كتلك التي بنت عليها فرنسة سياستها مع الجزائر. والسياسة التي تبنى على فلسفة، وتصدر عن ثقافة لا يؤمل أن تتغير إلا إذا تغيرت الفلسفة والثقافة، وتغيرهما إنما يكون بعد زمن طويل. والغفلة عن هذا، وتناسيه، ومد اليد للقتلة الذين يسهرون ليلهم في التخطيط لإمضاء هذه السياسة، ويمضون النهار في تنفيذها ليست من الحكمة، ولا يمكن أن تنسب إلى كريم. وكان المستوطنون الأوربيون الذين جلبتهم فرنسة ليحلوا محل الجزائريين -وكانوا يسمون الأقدام السوداء- يقولون: «الجزائر جميلة، ولكن من دون الجزائريين»[3]. وكان هذا سبب ما يقومون به من الإبادات والتهجير اللذين تحدث عنهما الفرنسيون، كحرب الإبادة التي استمرت أربعين عاما، من ١٨٣٠ إلى ١٨٧٠، وهلك فيها ٢٫٩ مليون، من خمسة ملايين كانوا هم سكان الجزائر حينئذ، أي ٥٨٪ من السكان[4]. وقال مونتانياك: لقد محا الجنرال لاموريسيير من

---

(١) الجزائر في التاريخ، ٤٦٤.
(٢) تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، ٤٧٥.
(٣) جرائم فرنسا في الجزائر، ٣١.
(٤) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٢٢ و ٦١، والجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٩٢ و ١٩٦ وما بعدها، ووضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٥٥ وما بعدها، وخمسة قوانين تكشف الوجه المرعب للاستعمار الفرنسي في الجزائر.

الوجود خمسا وعشرين قرية، في هجوم واحد، فما أن حُدِّد موقع القبيلة حتى انطلق الجنود كلهم نحوها، فوصلنا إلى الخيام، وقد استيقظ أهلها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين في كل وجه، النساء والأطفال والرجال، مع مواشيهم، فجندي يقتل نعجة، وجندي يدخل الخيمة، فيخرج منها بزرابيَّ على كتفه، وجندي يحمل دجاجة، وتُضْرم النيران في كل شيء، ويلاحَق الناس والحيوان، في صراخ وثغاء وخوار، وضجة تُصِمُّ الآذان، وصار ما يُنهَب من هذا ونحوه مصدر مَوْن الجيش الفرنسي، وما يُنهَب ويباع يوزع ثمنه على الضباط والجنود: الربع للضباط، والنصف للجنود[1]. وبعد تلك الإبادات كانوا ينصِّرون الأطفال بالقوة، كما فعل لافيجري في عامي ١٨٦٧ و ١٨٦٨ فقد جمع ألوف اليتامى بعد المجاعة الكبرى التي كان سببها انتزاع الفرنسيين الأرض من أهلها، وإعطاءها المستعمرين، فمات من الجزائريين ٥٠٠٠٠٠ نسمة، ونصرهم بالقوة[2]. هذا إلى ما كانوا يقومون به من إحراق المحاصيل الزراعية، كالمحرقة التي كتب عنها القومندان ويستي عام ١٨٤١، وكانت في جنوبي الجزائر العاصمة: «إن عدد الدواوير (الضياع) التي أحرقت، والمحاصيل الزراعية التي أتلفت، لا يكاد يصدَّق. فلم يكن أحدنا يرى على الجانبين من الطابور سوى النيران»[3].

وفي عام ٢٠١٦ م بثت قناة «فرنسا ٢٤»، تقريراً كشفت فيه عن ثمانية عشر ألف جمجمة من جماجم الجزائريين، محفوظة بمتحف «الإنسان» في باريس، عرف منهم خمسمائة شخص، منهم ستة وثلاثون قائداً، قُتلوا، ثم قُطعت رؤوسهم إبان احتلال فرنسة للجزائر، في القرن التاسع عشر. ونبه الطيب الهواري، رئيس منظمة أبناء الشهداء على أن فرنسة التي نددت بالجرائم التي ارتكبتها النازية في حق الإنسانية ارتكبت في الجزائريين ما يفوقها بكثير. فمن جرائمها الكبيرة إبادتها قبيلة أولاد رياح على بكرة أبيها عام ١٨٤٥، في جبال الظهرة، بولاية مستغانم، على يد العقيد الفرنسي إيمابل بيليسيي، وقد حاصرها في مغارة، فرَّت إليها، فأشعل النار في مدخلها حتى لقي من فيها حتفهم اختناقا

---

(١) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٤٧٣ و٤٧٤، والجزائر في التاريخ، ٥٦١.
(٢) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٤١٥.
(٣) السابق، ١٠٨.

بالدخان. ومجزرة واحة الزعاطشة، في ٢٦ نوفمبر عام ١٨٤٩، فقد هجم الجنرال هيربيون على الواحة التي كانت معقل الشيخ بوزيان، قائد ثورة الزعاطشة، بفرقة من الجيش، قوامها ثمانية آلاف جندي، وبعد يومين من الحصار والقصف بالمدافع، دمروا الواحة كلها، وقطعوا عشرة آلاف نخلة، وأحصيت ثمانمائة جثة لشهداء جزائريين، وكان تحت الأنقاض عدد غير معروف، وقطعوا رؤوس القادة، كبوزيان، والشريف موسى الدرقاوي، وعرضوها في إحدى الثكنات، ثم الأسواق ببسكرة ثلاثة أيام، لتكون عبرة لمن يتجرأ على مقاومة الفرنسيين[١].
وكان الذين ينجون من هذه الإبادات يعيشون في حال من البؤس شديدة، وحُكم على بعضهم بالأعمال الشاقة، ونُفي بعض إلى تاجدمت، وكايين، وأوبوك، ونفي بعض إلى ماركيز، وكاليدونية الجديدة، وصودرت أرضهم الخصبة ومزارعهم، وسُلِّمت إلى المهاجرين الأوربيين، بقانون، أصدره الجنرال كلوزيل منذ بداية الاحتلال[٢]. وتُركوا كما قال الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان: رأيت في كل ناحية من الجزائر زرتها «خرائب من الطين، يسكنها أناس، يلبسون ثيابا بالية، معظمهم في حالة جوع دائم، وعلى حافة الهلاك»[٣]. ووصف المنصر لافيجري حالهم بأسوأ مما وصفه به هاينريش، فقال إنهم أصبحوا مثل الحيوانات، لا يجدون ما يقتاتون به، غير الأعشاب، وورق الشجر، ومع شدة فصل الخريف هزلت أبدانهم من الجوع، وبان عليهم الفقر في لباسهم، وصاروا يتسكعون في الطرق والمدن التي أخرجوا منها، فهم ينتظرون جمع النفايات ليتصارعوا عليها، وينبشون القبور ليأكلوا ما فيها[٤]. وكان ضباط الصف الفرنسيون -مع ذلك- يعاملونهم أسوأ معاملة، ويخاطبونهم بعبارات بذيئة. ومن البذاء والاحتقار وسوء المعاملة تغيير الأسماء بقانون الحالة المدنية الصادر في ٢٣ مارس ١٨٨٢، ويسمى «قانون الألقاب»، وبهذا القانون اختاروا للجزائريين كل مستهجن من الأسماء، وصار المرء ينسب إلى الحيوان والطيور، وأدوات الفلاحة والحِرَف، والنبات، كالبقول، والحبوب، والمهن، والعيوب، والعاهات

---

(١) جماجم الجزائريين في فرنسا.. نسخة «داعشية» من القرن الـ ١٩.
(٢) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٢٧٣.
(٣) الجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٩٣ وما بعدها، والجزائر: الأمة والمجتمع، ٢٤.
(٤) التنصير الفرنسي في الجزائر، ٩.

الجسدية، والأمراض، والفضلات، والروائح الكريهة، والنجاسات، وأعضاء الجسم الداخلية والخارجية، والمآكل والمشارب، والأفعال المشينة، وكل مستهجن من الأسماء، وكل مناف للأخلاق، كالتيس، والعتروس، وبو معزة، وبو بقرة، وبو بغلة، وكلاه النمر، والأدوات، كبو منجل، وبو جَرَّة، والمهن والحالة التي تكون عليها الأسرة، كالحداد، والنجار، إذا كان رب الأسرة حدادا أو نجارا، والعاهات البدنية، والأمراض العقلية، كالأعور، والأعرج، وبو جلخة، وبو تفليقة، وابن مجنون، إلخ. وهذا سبب ما في بعض الأسماء الجزائرية من غرابة. وكان غرض ذلك قطع الصلة بين الناس وأصولهم، وإنساءهم أنسابهم، وما يتبع نسيانها من فصلهم عن قبائلهم؛ ليسهل الاستيلاء على أملاكهم، فلا يجدون من يحميهم، وتشتيت شمل القبائل، وتقطيع ما بينها، وطمس هويتها، وما يذكرها بمجدها، وإذلالها، وتحقيرها إلى أنفسها، وما تزال أسر جزائرية تتردد على المحاكم لاستعادة أنسابها، وتغيير ما ألصق بها من تلك الألقاب[1]. وكان المعمرون -إمعانا في التحقير والأذى- يسمون العاملة الجزائرية التي تعمل عندهم فاتيمة، ويدعون العامل مهاميد، إظهارا للاستهانة باسمي محمد، وفاطمة[2].

وقد اشمأزَّ من فظائع الفرنسيين في الجزائر كل ذي ضمير، حتى بعض الجنود والضباط الفرنسيين، فقد كتب برتيزان، أحد ضباط فرنسة في الجزائر، إلى وزيره، سُولت يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٣٠: لقد حسبت أن واجبي أن أشرِّف الفرنسي بعملي، وأن أفرض على الناس احترام حكومة الملك ومحبتها، وأن العدل والحزم هما الوسيلتان الوحيدتان لبلوغ تلك الغاية، ومع أني لم أغفل عن هذه الغاية ساعة، أعترف لكم بصراحة أني أصبحت مقتنعا أن سكان هذه البلاد لم يُعرَّضوا في وقت من الأوقات طوال العهد التركي لمثل هذا الاعتداء والتجني اللذين ليس في وسعي أن أمنعهما؛ لأن كثيرا منهما يخرج عن إرادتي؛

---

(١) من أحمد بن بله وإلى عبد العزيز بو تفليقة الجزائر، ٢٩، والجزائر من أحمد بن بله وإلى عبد العزيز بو تفليقة، ٢٩، والجزائر في التاريخ، ٦٤٣، والأسماء والألقاب في الجزائر: دعوة إلى دراستها دراسة لغوية دلالية وحضارية، ١٨٣، والجزائر: الأمة والمجتمع، ٢٤، ومذكرات جزائري، ١/ ٢٠، وخمسة قوانين تكشف الوجه المرعب للاستعمار الفرنسي في الجزائر.

(٢) حوار مع الذات، ٦٨.

لأني لا أجد أحدا من المكلفين تنفيذ الأمر يريد الانتصار للعدل والحق؛ فلم يكن لي إلا أن أحمرَّ خجلا مرارا؛ أن أرى الأخلاق الفرنسية تسقط من عيون العالم المتحضر الذي يراقبنا بقناصله، حتى الأفارقة الذين نحتقرهم، فإنهم يفطنون لكل ما نفعل[1]. وكتب، بعد قيادته جيوش الحملة الحربية من ٢٠ يناير عام ١٨٣١ إلى ٦ ديسمبر عام ١٨٣١: ما أكثر التدمير والسرقات، لقد حطَّمت الجيوش كلَّ شيء في ضواحي الجزائر، وأحرقت الأشجار، ودمرت الديار، وواجه المسلمون مجموعات هي أسوأ الناس في البحر المتوسط، وأفقرهم، وأرذلهم أخلاقا[2]. وقال توكفيل، وهو الذي يؤيد ما كانت تفعل فرنسة، ويرى أن قانون الحرب يسوغه: إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب، لم يستطيعوا هزْم العرب بالقوة، فهزموهم بالتدمير والجوع[3]. وكذَّب أناتول فرانس مزاعم الاستعمار أنه يريد تحضير الشعوب البربرية المتوحشة، فقال: لم ير العرب والسود وغيرهم من حضارتنا إلى الآن إلا المجازر والقهر والاستيطان، إن الاستعمار أحقر أنواع البربرية، هل تعلمون أن هذا الاستعمار الوحشي سيجعل ملايين البشر في إفريقية والهند الصينية والعالم العربي يحقدون علينا؟ ألا تباً للاستعمار والمستعمرينَ! وكذلك فعل أندريه جيد، وذم الشركات الاستعمارية التي فتحت مكاتب في إفريقية من أجل التغلغل فيها واستعمارها، وسرقة ثرواتها. وقال إن ما يقع في تلك المستعمرات يجلب العار للحضارة الأوروبية ويسقطها من أعين الناس. وقال: لما سافرت إلى البلدان الإفريقية المستعمرة أول مرة لم أكن أعادي الاستعمار، فلما رأيتهم يعاملون السكان بكل عنصرية واحتقار، أصبحت من أعدى أعدائه. إنه نظام حقير ودنيء وظالم، إنه عار على الشعوب المتحضرة، أو تدعي الحضارة[4]. ومن صور الغطرسة والاحتقار التي خلدها الكتاب الفرنسيون الحادثة التي وقعت للمؤرخ شارل روبير أجيرون، وقد رأى مجازر مايو ١٩٤٥ في الجزائر، وعرض للحادثة التي كشفت له عن عنصرية المستوطنين، فقد أهانه رجال من منظمة الأقدام السوداء العنصرية

---

(١) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٥٣.

(٢) الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ٢٢.

(٣) الجزائر في التاريخ، ٥٦١، وكفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٤٧٣.

(٤) عمل على الفرنسة ومارس الإبادة الفعلية: الوجه القبيح للاستعمار في المغرب العربي.

الاستيطانية لما تنازل لامرأة جزائرية عن مقعده في حافلة، كان يركبها وهو في زيّه العسكري، فاتجه إلى التأريخ لحقيقة الاستعمار في الجزائر، واتسمت كتاباته بالإنصاف، ومعاداة الاستعمار، وقد ألف كتاب «الجزائريون المسلمون وفرنسا»، وهو مرجع في سياسة الجمهورية الثالثة ونزعة الإبادة الاستعمارية التي أرادت تقويض أركان المجتمع الجزائري المسلم وتنظيماته، بسياستها الجائرة في العقار، والضرائب، والغابات، وقانون الأهالي، فأقصت الجزائريين من المواطنة الفرنسية، وأنزلتهم إلى درجة العبيد»[1].

فعلت فرنسة ذلك وما هو أفظع منه بالجزائر، مع ما للجزائر عليها من أياد جسام، فقد كان معتمدها أيام الثورة الفرنسية على قمح الجزائر، وزيتها، وجلودها، وسهّلت لها التزود من موانئها، حين كانت موانئ أوربة محظورة عليها؛ لأنها كانت في حرب معها مخافة أن تنتقل إليها عدوى الثورة الفرنسية. فوجدت «في داي الجزائر صديقا كريما، وحليفا وفيا»، فأقرضها عام ١٧٩٧، ٢٥٠ ألف فرنك لشراء ما تحتاج إليه من القمح من عنابة وقسنطينة، وأقرضها عام ١٧٩٦ م مليون فرنك دون فوائد. ومن مؤرخي فرنسة من يقول إنه أقرضها خمسة ملايين فرنك من الذهب من غير فائدة، فلما تقاضى الداي نابليون، أبى قضاء ما عليه، فلما شعرت فرنسة بأن بريطانية تريد التقرب من الجزائر، عقدت اتفاقا سريا مع روسية عام ١٨٠٨، على أن الجزائر من نصيب فرنسة، تحتلها متى أرادت[2]. وكان كفران النعمة، والتنكر للصداقة التي أظهرت الأيام أنها كانت خدعة، جزاء باي تونس، كما كانت جزاء داي الجزائر، قبل ذلك، فقد عقد باي تونس عام ١٨٠٢ اتفاقا مع فرنسة، جعلها أكثر دولة امتيازا في تونس، وكان الباي حسين بن محمود من حبه فرنسة يقول: إذا شاهدت أسطولا حربيا فرنسيا أشعر بالانتعاش؛ لأنني أعلم أنه أسطول صديق جاء يزورنا[3]. ثم احتلت فرنسة تونس، وصنعت بها ما صنعت!

وعملت على تذليل الجزائريين للمستوطنين من الفرنسيين والأوروبيين،

---

(١) عمل على الفرنسة ومارس الإبادة الفعلية الوجه القبيح للاستعمار في المغرب العربي.

(٢) الجزائر في التاريخ، ٤٤١، وانظر: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠، ١٢٢ - ١٥٢.

(٣) حركة الترجمة في تونس، ٢٤.

وحَمْلهم على قبول أنهم سادة الأرض الجزائرية، وألزمتهم طاعتهم وخدمتهم، وتقديم ما يملكون إليهم متى سألوهم إياه. وأصدرت عام ١٩١٢ قانون التجنيد الإجباري لتجبر الجزائريين على القتال عنها في حروبها الاستعمارية، وجندت منهم ١٣٨ ألفا لتحرير أرضها من ألمانية، وقدَّمت عشرات الآلاف منهم إلى الصفوف الأمامية، فخاضوا الحرب الأوربية الثانية، بعد أن خاضوا الحرب الأولى، فمات منهم عشرات الآلاف، ثم كافأت الجزائريين بمجزرة في يوم واحد، زاد قتلاها على خمسة وأربعين ألفًا، كما وثَّقت ذلك الصحف الدولية يوم الثامن من مايو ١٩٤٥[1]! وكانت هي وتونس والمغرب خزانًا للمقاتلين، تستنجد به متى شاءت، وتأخذ منه من شاءت[2]. ومع هذا يقول المنصر الكردينال لافيجيري: كان حتما علينا منذ الأيام الأولى أن نصرخ في هذه الجبال والوديان والمروج صرخة الإنقاذ؛ لأننا جئنا لنشر نور الحضارة والرقي، وشرف الماضي النصراني بهذا البلد[3]، إذا كشفتم عن عظام جنودنا في ربوع هذا الوطن (الجزائر)، فادعوا لهم، وتبرَّكوا بهم، واعلموا يقينا أنهم اشتروا بأنفسهم العدل الإلهي، لقد ماتوا أبطالا، إنهم شهداء النصرانية[4]. وهو كلام لا ينقضي العجب منه! لا ينقضي العجب من أن تكون إبادة الشعوب في بلادها، وتجويعها، وإخراجها من أرضها، وتشريدها في الآفاق، وتدمير مؤسساتها العلمية والدينية حضارةً، ونشرا للنور والرقي، وإنقاذا! وأعجب من ذلك أن يكون الذي يقوله أدباءَ ومفكرين، ورجال دين، يزعمون أنهم يحملون رسالة المسيح -عليه السلام-، على حين سماه جان بول سارتر، الفيلسوف الوجودي الملحد «عارنا في الجزائر»، وهو عار الإنسانية كلها! وإذا كان القتل، والتمثيل، والإبادة، والتشريد، والتدمير، والتجهيل، والتجويع، والنهب، والسلب، وبيع البشر حضارة، وتنويرا، ورقيا، وإنقاذا، فما الهمجية، والتوحش، والإرهاب، وما شئت من كل خلق رذل، يمكن أن يسميه معجم من معجمات اللغة؟!

ولا يخفى قرب الشبه بين هذا وما كان يقول الأوربيون فيما فعلوا بالهنود

---

(١) جرائم فرنسا في الجزائر، ١٤، وجماجم الجزائريين في فرنسا.
(٢) الحركة الديغولية في الجزائر، ٥٨.
(٣) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٨٦ وما بعدها، والنشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ٢٣٩.
(٤) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٣٠١، والنشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ٢٤٧.

الحمر في أمريكة، كما لا يخفى ما بين فعل هؤلاء وأولئك. لقد قال نيقولاس أوستلر إن مغامرات الحروب الصليبية العسكرية الطائشة استمدت معظم عونها من فرنسة[1]. ولعل مردَّ جانب من وحشيتها في الجزائر، وما فعلت بالجزائريين إلى ذلك؛ فقد كانت تعتقد أن حربها على الجزائر تتمةً للحروب الصليبية، كما صرح بذلك وزير حربها، كلير مون تونير: إنها حرب صليبية، هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله ليثأر من أعداء الدين والإنسانية (المسلمين)، ولعله يكون من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم نصارى[2]. وقال الجنرال دوبورمون، وهو يخاطب جنوده بعد أن استولوا على مدينة الجزائر: «لقد جددتم عهد الصليبيين». وكتب بوجولا، وهو رحالة فرنسي، كان وثيق الصلة بالمارشال بيجو، في مذكراته، ينوه بمهمة فرنسة التنصيرية في الجزائر: «قال لي المارشال بيجو، يوم قابلته منذ سنتين في منزله بمدينة الجزائر: «ماذا جئنا نعمل في إفريقية؟»، فأجبته: «لكي نواصل العمل الذي بدأه غودفروا، ولويس السابع، وسان لويس». وقال: «إن الحرب التي نقوم بها في إفريقية إنما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية»[3]. وقال سكرتير الحاكم العام في الجزائر عام ١٨٣٢: إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسة، فلا يمكننا أن نشك في أنها ضاعت من الإسلام لأخرى الدهر[4]. ويصدِّق هذه الأقوال عقْد الفرنسيين المؤتمر الأفخارستي بتونس عام ١٩٣٠ -١٩٣١ احتفالا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، وكان مع الرهبان الذين حضروه شبان يلبسون ملابس قساوسة القرن الثالث عشر، وهي تشبه ملابس الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس السابع، رافعين أعلاما بيضا، مكتوبا عليها «الصليبية التاسعة»، وكان لويس قد توقف على هضاب قرطاج عام ١٢٧٠، فأصيب بالطاعون، فمات. أي إنهم دخلوا تونس التي لم يستطع لويس

---

(١) إمبراطورية الكلمة، ٥٥٨.

(٢) التنصير الفرنسي في الجزائر ١٨٣٠ - ١٨٧٦، ٤.

(٣) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٥١، وآثار التربية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ٦.

(٤) آثار التربية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ٦.

التاسع أن يقتحمها في عهد المستنصر بالله عام ١٢٧٠[(١)]. وما سلف من أقوال الفرنسيين تعليقا على ما ارتكبوا من فظائع في الجزائر يدل على أنهم حاقدون عليهم حقدا شديدا، لا تُعرف له أسباب ظاهرة إلا أن تكون الثقافة التي صاغت عقول الأوربيين ومشاعرهم، منذ الحروب الصليبية، وهي ثقافة تُبين عما تجن ضمائرهم من حقد على المسلمين، كقول توكفيل: «لا بد من هذه الأعمال لكل من يريد محاربة العرب»، وقول مونتانياك، بعد ما سرد من فظائع الفرنسيين: «هكذا يا صديقي العزيز ينبغي أن نحارب العرب». ويجد المرء فيما ينسب إلى الإيطاليين في ليبية ما يشبه ما كان يقول الفرنسيون في الجزائر، فقد كان الجندي الإيطالي المتجه إلى احتلال ليبية يقول: «أماه، أَتِمِّي صلاتك، لا تبكي، بل اضحكي وتأملي، أنا ذاهب إلى طرابلس فَرِحا مسرورا، سأبذل دمي في سبيل الأمة الملعونة، سأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن»[(٢)]. وهو حقد ما أمكن شفاء الصدور منه إلا حين ضعفت الدولة العثمانية، فشنوا على العالم الإسلامي ما شنوا من الحروب، واحتلوه، ونكلوا بأهله، وهو ما تدل عليه أفعال الفرنسيين فيما استعمروا من بلاد المسلمين، وقولة القائد البريطاني أللنبي، لما دخل القدس: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»، وقول الجنرال الفرنسي جورو على قبر صلاح الدين، بعد احتلال الإنجليز القدس بثلاثة أعوام: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»، وقول الجنرال الفرنسي، ليوتي، على قبر يوسف بن تاشفين، بطل معركة الزلاقة، وقد ركل قبره، بعد ما دخل مراكش منتصرا: «ها قد عدنا يابن تاشفين»[(٣)]. أي: قد رُدَّت لنا الكرة عليكم، فثأرنا لأسلافنا، واحتللنا ما عجزوا عن احتلاله من بلادكم، ورجعنا إلى ما أخرجونا منه؛ وذلك معنى انتهاء الحروب الصليبية. هذا إلى ما في جبلة الأوربيين من توحش، ما استطاع ما بلغوا من علم ومدنية أن يخلِّص أكثرهم منه، وهو ما يدل على جانب منه ما فعلوا بالهنود الحمر، وحروبهم الحديثة كلها، كالحرب الثانية، وما أبيد فيها من الملايين، وما قد رأينا من حروب أمريكة على العالم، ومنه العالم الإسلامي.

---

(١) بورقيبة بلسان بو رقيبة، ١٠٦ وما بعدها.

(٢) الحروب الصليبية، (نقلا عن: الاستشراق الفرنسي بالجزائر ما بين ١٩٣٠ - ١٨٣٠ م : قراءة في مقال لهنري ماسي، ١٦١).

(٣) معركة العروبة والإسلام.

والغربيون مخلوقون من طينة عجيبة، ومعجون في طبعهم من الكذب، وتقليب الأمور، وصلابة الوجوه، والحرص على أن يُعتقَد فيهم ما يعتقدون في أنفسهم، على ما قد يكون فيه من مجافاة الحقيقة، شيء عجيب! وانظر -إن شئت- قول ألفرد رامبو، وكان وزيرا للتعليم الفرنسي عام ١٨٩٧ : يجب أن نضمن السيطرة للغتنا، وأن يرى فينا المسلمون ما نرى في فرنسة ومكانتها في العالم[1]. وما زال ما قال ألفرد رامبو منذ مائة وعشرين عاما هو ما تريد فرنسة بالجزائر، وتريد أمريكة، وسائر المستعمرين الغربيين، في العالم. وهو أمر يعز على المرء أن يفهم العقل الذي يفكر فيه، نعم، يفهم المرء إعجاب المرء بنفسه، وأن يرى أنه خير من غيره، أما الذي يصعب فهمه، فأن يَحْمِل غيرَه على أن يعتقد فيه ما يعتقد في نفسه، ولو بالقوة، على طول ما بلاه، وعرف منه ما لم يكن يظنُّ أن في البشر من يتصف به من وحشي الأخلاق والأفعال. لقد كتبت لجنة، بعثتها باريس إلى الجزائر، لتقصِّي ما فعلت فرنسة بالجزائريين عام ١٨٣٣ : لقد ذبحنا كثيرا من السكان، تبين فيما بعد أنهم أبرياء، قتلنا رجالا يحملون ترخيصا بالمرور، وقَّعه مسؤولون فرنسيون، والجزائريون الذين كانوا يجرؤون على الاستفسار عن أقاربهم الموقوفين حوكموا، ومِنْ قضاتنا مَن حَكَم عليهم بالقتل، وكان من الرجال «المتحضرين» من نفَّذ فيهم الحكم. لقد تجاوزنا وحشية المتوحشين الذين جئنا لتمدينهم[2]. هل يمكن شعبا فُعِل به هذا وما هو أفظع منه، بشهادة الفرنسيين أن يعتقد في الفرنسيين ما يريد ألفرد رامبو أن يُعتقَد فيهم؟ وهل بقي مكان لتصديق ما تزعم فرنسة من أنها دخلت الجزائر لتمدين الجزائريين؟! على أن التمدين في عرف الفرنسيين هو التنصير، ليس إلا، كما يبدو مما سلف من أقوالهم، ولا يعني ما يتبادر إلى الأذهان من أنه جعل الناس متحضرين.

لقد كان اللورد الإنجليزي ماكولي أصدق من الفرنسيين، إذ قال إنه وجد الهند بلدا ثريا، ولأهله أخلاق فاضلة، ولهم في الرقي منزلة عظيمة، ولهم تراث روحي وثقافي عظيم، هم في غنى به عن الإنجليز وغيرهم من الغربيين

---

(١) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٥٩.

(٢) السابق، ٦١.

وحضارتهم، وهذا التراث هو مصدر قوتهم، ولن يتأتّى هزْمهم ما بقي، والإنجليز إنما جاؤوا ليستعمروهم، وإنما يعينهم على ذلك أن يحطموا تراثهم الروحي والثقافي، ويحقِّروه إليهم؛ ليحتقروا أنفسهم، ويعظموا الإنجليز وحضارتهم، وإذا كان ذلك، غدوا أمة تُمْكن الهيمنة عليها، وأن ينال منها الإنجليزُ ما أرادوا. ولو صدق الفرنسيون لقالوا مثل ما قال ماكولي، ولم يدَّعوا ما ليس فيهم، فقد كانت الحال التي وجد عليها الإنجليز الهند شبيهة بالحال التي وجد عليها الفرنسيون الجزائر، فقد دخلوها، وهي ملأى بالمدارس، والكتاتيب، والمكتبات، والمساجدُ عامرة بالعلماء في كل علم وفن، والزوايا عامرة بالعبَّاد والزهاد المتبتلين الذين عكفوا على التربية وتزكية النفس، وتعليم الأخلاق والفضائل، والدلالة على الخير، والمتعلمون من الجزائريين أكثر من المتعلمين من الفرنسيين في فرنسة، ولا يكاد يكون فيهم أمي، فجاؤوا بالذبح والإبادة، وانتهاك إنسانية الإنسانية، والأثرة، والجشع، وتوسلوا إلى بلوغ ما أرادوا من ذلك بما توسل به الإنجليز في الهند، ففرضوا لغتهم وثقافتهم، ثقافة المتع، والشهوات، والرذيلة، فملؤوا الأرض بالحانات، ودور البغاء، بعد أن كانت معمورة بالعلم، والعبادة، والفضيلة، كما قال ويلفرد سكاون بلانت (Wilfrid Scawen Blunt)، وقد زار شمالي إفريقية في إبان الاستعمار الفرنسي: إذا رأيت العرب في خيلهم وإبلهم، ورأيت حياتهم الريفية النبيلة الغنية بالعادات الرفيعة، المفعمة بذكريات البطولة، ورأيت مع ذلك قذارة المستعمرين الفرنسيين الشائنة، وحاناتهم، وخنازيرهم، فمن المستحيل أن يخفى عليك البون الكبير بين هؤلاء وأولئك، وألا يتملَّكك الغضب من المفارقة العجيبة التي جعلت من الفرنسيين سادة، ومن العرب خدمًا لهم[1]. وهي الحال التي وجد عليها الأوربيون الهنود الحمر في أمريكة، كما يبدو من قول المؤرخ جيمس أديار عام ١٧٧٥: إنهم أكثر تحضرا من الإنجليز، ويعيشون في ظل أنبل القوانين، وأبسطها، هذا دستورهم، أو «قانون السلام الأعظم»، ينبض بالحرية، وهاهم جميعا ينعمون بفرص متكافئة، وامتيازات متساوية، سعداء، ولا يمكن وصف الفرح والبهجة

(١) أساطير أوربا عن الشرق، ١٤٨

والدفء والشجاعة التي تعمر صدورهم[١]. وقال المؤرخ الفرنسي دو لا بوتري: حين نتحدث في فرنسة عن الأمم الهندية الخمس تتبادر إلى أذهان السامعين صورة البرابرة المتوحشين، ولكن الواقع مختلف كل الاختلاف، فهم في منزلة رفيعة من السياسة والتشريع، لم تعرفها فرنسة قط. إنك لا تلمس ذلك من براعتهم في إدارة شؤونهم مع الفرنسيين والإنجليز فحسب، بل تلمسه كذلك في الأساليب التي يعاملون بها غيرهم من الأمم[٢]. وكذلك وجد الفرنسيون الجزائريين، فقد كان عبد القادر الجزائري يعاملهم معاملة، لا عهد لهم بها: لقد قال له يوما جنوده: إذا أتيناك بأسير، فكم تعطينا؟ فقال ثمانية دورو، قالوا: فإن أتيناك برأس فرنسي؟ قال: خمسا وعشرين جَلدة على باطن القدمين[٣]. فهل مثل هذا وأولئك يعلِّمه الفرنسيون المدنية، وهم الذين يقول أحد ضباطهم في الجزائر (مونتانياك): «إن رأس عربي مقطوع له تأثير أكثر من خمسين شخصا، ولقد فهمتُ هذا منذ زمان، ولذلك كان من النادر أن يفلت أحد من يدي»[٤]؟. غير أن تلك الوحشيَّة تسمى حضارة، ويسمى ذلك الطهر، والنقاء، والصلاح، والإنسانية الرفيعة توحشا، وهمجية، وما شئت من الألفاظ التي يجد الغربيون منها في لغاتهم ما لا يجد غيرهم من الشعوب! وما تزال تلك نظرة الغربيين إلى أنفسهم ونظرتهم إلى الناس.

ثم خرجت فرنسة من الجزائر بعد ١٣٢ عاما من «التمدين، والتحضير، والتنوير، ونشر السلام، وبث دعوة المسيح» و ٨٥٪[٥]، أو ٨٩٪، أو ٩٠٪، من رجالها أميون، وأمي ما بين ٩٥ و ٩٧٪، من نسائها، ويقول الإحصاء الفرنسي الرسمي لعام ١٩٥٥ إن ٩٤٪ من الرجال، و٩٦٪ من النساء كانوا أميين[٦]، ويذهب بعض الإحصاءات إلى أن ٩٧٫٥٪ منهم كانوا أميين عام ١٩٦٢، و ٩٩٪ من الباقي (٢٫٥٪) ما كانوا يحملون الشهادة الابتدائية[٧]. ومن يدرسون في

---

(١) أمريكا والإبادات الجماعية، ١٧١.

(٢) السابق، ١٧٦.

(٣) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٦٢.

(٤) جهاد الجزائر، ١٢

(٥) خمسون سنة من التعدد اللغوي، ٥٩.

(٦) إنية وأصالة، ٧٩.

(٧) العربية بين الواقع والطموح، ٢٠٠.

أطوار التعليم والتكوين كلها نحو ستمائة ألف، وخمسمائة طالب جامعي، ولم يكن فيها بعد الاستقلال سوى مائة، بين طبيب وصيدلي، وعشرة مهندسين، وثلاثة آلاف معلم، والشعب يومئذ تسعة ملايين نسمة![1]، ثلاثة ملايين منهم (أي ثلثهم) لاجئون في البلدان المجاورة، وتسعة أعشارهم في مسغبة شديدة، وكثير منهم يسكن في الأكواخ، والمغارات، والجبال، والغابات، وأطراف الصحراء[2]. وقد هُدِمت مدارسهم، وزواياهم[3]، واستوليَ على معاهدهم العلمية، وصُيِّرت دكاكين وثكنات[4]. وإنما علَّمت قلةً قليلة، وفتحت لها ما فتحت من المدارس لتستعين بها على إدارة البلاد وفرنستها، وكان ما تعلِّمهم لا يتجاوز ما يهيئهم للمهن التي أرادتهم لها، ولم تُرِد يوما تعليمهم، فقد كان من سياستها التجهيل، تستعين به على التذليل، وكانت هذه القلة من أبناء الأعيان، والإقطاعيين المرتزقة الذين تولت صنعهم[5]. وهو ما يبين عنه قول مدير رابطة التعليم: مادام تعليم السكان مهمة سياسية، وليس بمهمة تعليمية، فمن الملائم، إذا أردنا أن يكون السكان الأصليون مطيعين دون تردد، إحداث تعليم خاص، لا يوكل إلى مدرسين حاصلين على أنواع الشهادات كلها، بل إلى ممرنين من الأهالي، تكون مدارسهم أكواخا، تتراوح قيمتها -في أحسن الأحوال- بين ١٥٠ و ٢٠٠ فرنك[6]. وكان المستوطنون الفرنسيون يعدون تعلم الجزائريين مضرًّا بهم من الناحية الاقتصادية، وخطرا على وجودهم، ولذلك طالب مؤتمر الزراع الفرنسيين في ٢١ مارس عام ١٩٠٨ بإلغاء ما أتيح لهم من التعليم الابتدائي[7]، وحاربوا مشروع نابليون الثالث لتعليمهم، فأغلقوا المدارس العربية الفرنسية؛ فتراجع التعليم تراجعا كبيرا عما كان عليه قبل عام ١٨٧٠، ولم يكن التلامذة الجزائريون في أطوار التعليم كلها عام ١٨٨٢ يزيدون على ٣١٧٢ تلميذًا مسلما، وفي عام ١٩٠٢ كان الذين تعلموا في المدارس من

---

(١) صراع اللغة والهوية بالجزائر: الأبعاد والتداعيات، ووزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا.

(٢) ملاحظات أولية حول العربية من محنة الكولونيالية إلى هيئتها الاستشارية، ١١٢.

(٣) حزب البعث الفرنسي، ٧٣.

(٤) السابق، ٨٢.

(٥) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٤١٣ وما بعدها.

(٦) حزب البعث الفرنسي، ٧٣.

(٧) سياسة التسلط الاستعماري، ٧٨ وما بعدها، والسياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ١٠١.

أبناء الجزائريين لا يزيدون على ٢٦ر٤٪. وحارب المستوطنون أيضا مشاريع المنصِّر لافيجري، وكانت تريد تعليم أبناء المسلمين تعليما كاثوليكيا؛ لأنهم كانوا علمانيين، ويرون أن يكون التعليم علمانيا[1]. وقلَّت المدارس من ست وثلاثين عام ١٨٧٠ إلى ست عشرة عام ١٨٨٠، وكان الذين يَدرسون فيها ٣٦٧٢ طفلا جزائريا. ولم يزد التلامذة إلى بداية الحرب الأوربية الأولى على ٤٧٠٠٠، ولم يزيدوا إلى عام ١٩٣٩ على ١١٤ ألف تلميذ، ثم نقصوا إلى ١١٠ آلاف عام ١٩٤٤. ولم تزد ميزانية تعليمهم على ٨٨ مليون فرنك قديم، وبلغت ٣٣٩ مليون للتلامذة الفرنسيين. وبلغوا عام ١٩٥٤، ثلاثمائة ألف وألفي طفل[2]. ولم يتجاوز التلامذة الجزائريون في المدارس الابتدائية الفرنسية عام ١٨٩٠، عشرة آلاف، وكانت نسبتهم ٧٣ر١٪ ممن بلغوا سن التعليم، وذلك بعد مرور ستين عاما على الاحتلال الفرنسي. وكانت نسبتهم بعد عام ١٨٩٠، ٣ر٤٪، وبلغوا عام ١٩٠٠، ٣٣٣٩٧ طالبا، وبلغوا عام ١٩١٨، ٧ر٥٪ وكان عددهم ٤٩٠٠٠ طالب، وكانوا عام ١٩٢٩، أي بعد نحو قرن من الاحتلال، ٦٪ وعددهم ٦٠٦٤٤، وبلغوا عام ١٩٤٠م ١١٧١٥٥. أما التعليم الثانوي والعالي، فكانوا قليلين فيهما جداً، فقد كانوا ٨٤ طالباً في الثانوية قبل عام ١٩٠٠، و٤٤٥ عام ١٩٢٠، ولم يتجاوز الحاصلون على الثانوية العامة ٣٤ طالباً، ولم يتجاوز الطلبة في الجامعة ٤٧، وحصل منهم على الليسانس ١٢ طالباً. وبلغت المدارس الابتدائية عام ١٩٥٠، ٢٠٦٨ مدرسة، يرتادها نحو ١٧٧٠٠٠ طالب جزائري، و١٣٠٠٠٠ طالب فرنسي. وبلغت المدارس الثانوية في هذا العام أيضا (١٩٥٠) أربعا وأربعين مدرسة، تضم ٢٦٣٤ طالباً جزائرياً، و٢٠٦٥٨ طالباً فرنسياً. أما التعليم العالي، فلم تكن في الجزائر سوى جامعة واحدة، هي جامعة الجزائر، وكان بها عام ١٩٥٠، ٣٠٦ طلاب جزائريين، و٤٢٨٠ طالباً فرنسياً وأوروبياً. وفي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥، وهو العام الذي اندلعت فيه الثورة الجزائرية، بلغ تلامذة المدارس الابتدائية ٣٢٢٧٠٠، وهم ٢٠٪ ممن هم في سن التعليم، ومع ذلك كانت الأمية تبلغ ٩٤٪، وبلغ طلاب الثانوية ٦٢٦٠،

---

(١) المشروع الفرنسي الصليبي الاحتلالي للجزائر وردود الفعل الوطنية، ١٥٩.

(٢) سياسة التسلط الاستعماري، ٨٣ وما بعدها.

وطلاب التعليم الثانوي المهني والتقني ٥٧٠٢ طالب، ولم يتجاوز الطلاب الجزائريون ٥٨٩ طالباً في التعليم العالي[(١)]. ويذهب بعض الدراسات إلى أنه كان في الجزائر في عام ١٩٥٠ سبع عشرة ثانوية ومعهدا عاليا، وسبع وعشرون كلية جامعية، تضم ٣٣ ألف طالب جزائري، وكانت نسبتهم إلى من بها من الأوربيين ١ : ١٥. وكانت تضع العراقيل أمام من يريدون دخول المعاهد الفنية والمهنية والزراعية، لتمنعهم الحصول على مهن، تتيح لهم ولأهلهم عيشا كريما[(٢)]. ويرى بعض الباحثين أن الذين دخلوا التعليم الفرنسي في الجزائر عام ١٩٥٥، ٧٥٠٠٠٠، و٢٣٠٠٠٠ من المغاربة، و٢١٦٠٠٠ من التونسيين إلى عام ١٩٥٤، وهي نسبة زهيدة في عدد السكان، وكانت نسبة الأطفال الفرنسيين تقترب من ١٠٠٪. وكان هذا مساوقا لسياسة فرنسة اللغوية التي لا تعتد إلا بمنافعها وحدها. وكان هذا موافقا لتعليمات لسياسة شايي (J. Chailley)، التي تقول: يحافظ على ٨٠٪ من السكان الأصليين في الأعمال المعتادة والتقليدية، ويشرك ١٠٪ منهم معكم، ليكونوا معاونين أدنى منكم، ويوظف من ٦ إلى ٧٪ في الإدارة في مستويات مختلفة، ومن ٣ إلى ٤٪ في العلوم الصرف، والإدارة العليا والسياسة، لن تكونوا بذلك قد تركتم بطالين، ولا ساقطي رتبة؛ لأنكم لم تعينوا أحدا على الخروج من طبقته، وستكونون مهمين للمستعمِرين منكم، الذين ستضمنون لكم ولهم عمالا كثيرا منضبطين، وستتركون لكم ذكرا حسنا، وأثرا مشرفا لمروركم، ويمكنكم أن تنسبوا إلى أنفسكم هذا العدل؛ لأنكم عملتم عملا مهما ومشرفا لمنافع العرق المحتل[(٣)].

وكانت سياستها في المغرب وتونس كسياستها في الجزائر، ففي عام ١٩٤٤ كانت المدارس الابتدائية في المغرب تضم واحدا من ستين من الأطفال الذين بلغوا سن الدراسة النظامية، ومنذ عام ١٩١٢ (عام الحماية) إلى العام ١٩٥٤ (عام الاستقلال) لم تخرِّج في أقاليم المغرب كلها إلا ٥٨٠ حاملا للثانوية[(٤)]، وكانت الأمية تبلغ ٩٠٪. وذكر المهدي بن بركة في محاضرة، ألقاها في ٣١

---

(١) بن غبريط تأتي على ما تبقى من التعليم.

(٢) سياسة التسلط الاستعماري، ٨٤ وما بعدها.

(٣) المشهد اللغوي وتعليم اللغات في المغرب الكبير من النشأة إلى أيامنا، ٧١ وما بعدها.

(٤) صديقنا الملك، ١٨ وما بعدها.

يوليو عام ١٩٥٨ أن مَن في المغرب من المهندسين لا يزيدون على ألفين، مائتان منهم، على أقصى تقدير، مغاربة[١]. وبين عامي ١٩٢٧ و ١٩٥٤ لم يزد التونسيون الذين حصلوا على الثانوية العامة على ١١٧٠ تونسيا، ودرس من التونسيين طوال مدة الاستعمار ١٥٧٠ طالبا في الكليات والمعاهد العليا بفرنسة[٢]. ولم تَبْنِ فرنسة في الجزائر -على طول ما مكثت فيها- جامعة واحدة لتعليم الجزائريين، ولا بنتها في المغرب العربي كله، وإنما بنت جامعة الجزائر وحدها[٣]؛ لتعليم أبناء المستعمرين، وقبلت بها من قبلت من الجزائريين على مضض، وكانت ترى قبولهم بها شرا، لا بد منه؛ ولذلك كانوا قلة فيها: ففي كلية الآداب -مثلا- ١٧٢ طالبا جزائريا من ١٣٧٤، و١٧٩ من ١٧١٣ في كلية الحقوق، و ١١٥ من ٨٢٤ في كلية الطب، و ٣٤ من ٤٢٧ في كلية الصيدلة، و ٦٢ من ٨٣٥ في كلية العلوم، ومن ليسوا جزائريين من الطلاب كانوا أوربيين[٤].

وتتضح سياسة فرنسة في تجهيل الجزائريين من بعض الإحصاءات التي توازن بين الفرنسيين الدارسين في الثانويات والمعاهد والكليات الجامعية والدارسين بها من الجزائريين، فقد بلغ من درسوا من الجزائريين بالتعليم العالي عام ١٩٥١، ٣٩٨ طالبا، وبلغ الفرنسيون ٤٠٠٦ طلاب، وبلغ الجزائريون في التعليم الثانوي عام ١٩٥١، ٣٦١٥ طالبا، و ٢٥٥٠٠ طالب فرنسي[٥]. وكانت تحرِّم على الطلاب الجزائريين دخول المدارس الكبرى، كمدرسة الهندسة البحرية، ومدرسة سان سير، ومدرسة المناجم، ثم سمحت لهم بدخولها سماحا نظريا عام ١٩٤١، بيد أنها لم تقبل جزائريا واحدا[٦]. وهو دليل لا خفاء به على ما كانت تريد، وأن إرادة «التنوير، ونشر الحضارة» أكذوبة من أكاذيب الاستعمار التي لا تنفد، ولا يَسْتنكف منها، على انكشافها. وربما كان أوضح من هذا كله وأدل على حرصها على تجهيل الجزائريين، وخوفها من تعلمهم أنها قبل رحيلها من

---

(١) في غمار السياسة، ٢/ ١٥٦.

(٢) البورقيبية والهوية، ٤٨.

(٣) أضواء على سياسة تعريب التعليم والادارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر ٢، ٦٩.

(٤) تعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، ١٧٧ وما بعدها. وانظر نِسَب الجزائريين إلى الفرنسيين في الجامعة من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٥٠، في «السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ١٧٥».

(٥) السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ١٤٩ وما بعدها.

(٦) السابق، ١٧٧.

الجزائر أحرقت المكتبة الجامعية[1]. ويبدو أن هذا كان دأب الاستعمار كله، فقد رأينا ما قال عباس حلمي وطه حسين في تعليم الإنجليز بمصر، وقال نغوغي وا ثيونغو إن المدارس الإنجليزية في كينية لم تكن تعلم تعليما حقيقيا، ولا كانت تعلم من الإنجليزية ما يكفي، ولذلك كان بعض الطلاب يخرجون منها[2].

ولما قامت الثورة الجزائرية أرادت فرنسة لتبيد الشعب الجزائري على بكرة أبيه، فكانت ترتكب فيه من الفظائع ما هزَّ العالم، حتى الجيش الفرنسي، فقد انضمت كتائب منه كثيرة إلى جيش التحرير، فكانت تقاتل معه[3]، وانضم قبل هؤلاء مئات من الجنود الفرنسيين إلى الشيخ عبد القادر الجزائري، وأسلموا، فكانوا يقاتلون معه، وأخلصوا له إخلاصا شديدا، حى كانوا هم الذين يحمونه في أوقات الشدة، حين ينفضُّ مَن حوله من الجزائريين، كما فعلوا في موقعة، تسمى موقعة الجعافرة، قُتل فيها فرسه، فحماه مائة من الجنود الفرنسيين كانوا قد هربوا إليه مع ضباطهم، وأسلموا وحسن إسلامهم، فدافعوا عنه دفاع الأبطال المؤمنين[4]. وكان له منذ عام ١٨٣٨ عين يتجسس له، وهو جنرال فرنسي متقاعد، يقيم في باريس، وكان له نفوذ كبير، فكان يخبره بكل ما يهمه من سياسة فرنسة[5]. أما الذي لم يَرِقَّ قلبه لمجازر فرنسة في الجزائر، بل كان يؤيدها، ويعينها بالمال، والسلاح، ويناصرها في المنظمات الدولية، فحلفاء فرنسة من الأوربيين والأمريكيين، ولا سيما أمريكة وبريطانية وحلف الأطلسي[6]. وقد بدأت حرب الإبادة هذه بعد استعمار دام قرنا وربع قرن، فتوجه جيش فرنسة، خامس جيش في العالم بقواته البرية والبحرية والجوية لقتال جيش التحرير الجزائري، وتولت وحدات التعذيب -وقد أُلْحقت بكل كتيبة من كتائب الجيش، فضلا عن وحدات الشرطة في المدن والقرى- إرهاب الناس[7]، حتى قال أنور عبد الملك: إن الاستعمار الفرنسي يريد الموت للجزائر، وليس

(١) أضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر ٣، ٥٠.
(٢) إحياء الأصل، ١٢٦.
(٣) الجزائر والقيم الإنسانية، ٨٦.
(٤) الجزائر في التاريخ، ٥٣٨.
(٥) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٣٩٠.
(٦) قضية الجزائر، ١٨ وما بعدها.
(٧) الجزائر والقيم الإنسانية، ٨٣ وما بعدها.

وحده، إن الجبهة الاستعمارية العالمية، وعلى رأسها أمريكة، تساند الإبادة بكل وسيلة، تارة بالسماح لطائرات حلف الأطلسي ومعداته بضرْب الوطنيين في الجزائر وتونس، وتارة بتقديم مشروع اتحاد غرب المتوسط لتذويب حرب الاستقلال في نوع من الكومنولث بين الدول الاستعمارية والشعوب المناضلة من أجل سيادتها وحقها في الحرية والتقدم، وطورا بِخَنْق كل إجراء دولي في الأمم المتحدة، وتأجيل القرارات وتعطيل التنفيذ، وبقرض حكومة فرنسة الاستعمارية مئات ملايين الدولارات لمواصلة حرب الإبادة. وأعانتها البحرية الأمريكة بالطائرات المائية، ووضعت تحت تصرفها حاملات الطائرات من نوع Lafayette[1]. وكذلك فعلت أمريكة في المغرب، لما هزَم المغربُ فرنسة، وفعلت هي وفرنسة مثل ذلك مع إسبانية في حربها مع أهل الريف بقيادة الشيخ عبد الكريم الخطابي، فقد استعانت إسبانية بفرنسة، فحشدوا لحرب الريفيين ثلاثمائة ألف مقاتل، وحصروا الريف من البر والبحر، وكانت طائراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تُحْصَى بالمئات، ثم جاء سرب طائرات أميركي من نيويورك؛ نجدةً لفرنسة وإسبانية[2]. وكذلك أعانت أوربة فرنسة على احتلالها الجزائر منذ السنين الأولى، فقد كانت في الجزائر عام ١٨٣٣ ثلاثة فيالق ألمانية وسويسرية، وفيلق إيطالي، وفيلق إسباني، وفيلق بلجيكي، وكان جنود هذه الفيالق بقايا جيوش أوربة، وأغلبهم قتلة ولصوص فارون من الجيوش[3]. وقتل موريس بابون ٣٠٠ جزائري من المهاجرين، في مراكز الشرطة، ورمى بأكثرهم من الطائرات في نهر السين يوم ١٧ أكتوبر عام ١٩٦١؛ أن خرجوا في تظاهرة سلمية، تدين جرائم فرنسة في الجزائر، وكان ذلك في عهد شارل ديغول[4]. وكانت إلى كل ما اقترفت وتقترف من الجرائم في حق الإنسانية، لا تقيم وزنا للعهود والمواثيق، ومتى بدا لها أن تنكثها نكثتها، ولذلك كان كل اتفاق تبرمه، إنما هو حيلة تخرج بها من مأزق، فإذا خرجت منه

---

(١) الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ٣٤٦.

(٢) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، ٢١.

(٣) كفاح الشعب الجزائري ضد فرنسة، ٤٧٧.

(٤) جرائم فرنسا في الجزائر، ١٥، وأربع وستون سنة على ثورة الجزائر.

خرجت من الاتفاق[1]. روى حمدان خوجة أنه لما أنكر على الجنرال كلوزيل خرْق الجيش الفرنسي شروط معاهدة الاستسلام، قال له: «فرنسة غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق؛ لأنه لم يكن -في نظرها- سوى لعبة حرب»[2].

ومن «حضارة» فرنسة وتنويرها اللذين جلبت للجزائر تفجيراتها الذرية في عهد شارل ديغول في صحراء الجزائر، واستمرت تسعة أعوام، من ١٩٥٧ إلى عام ١٩٦٦، وقتلت عشرات الآلاف من الناس، وشوَّهت الآلاف، ولوَّثت البيئة مياها ونباتا وتربة[3]، وكانت التجارب لأسلحة دمار شامل: نووية، وكيميائية، وصواريخ باليستية. وبلغت ٥٧ تجربة، أو ٢١٠ تجارب، كما ذكرت دراسات فرنسية أخرى، وفاق قتلاها اثنين وأربعين ألف جزائري، استعملت مائة وخمسين منهم كما يستعمل الفئران في التجارب، فقد ثبتتهم في أوتاد، لتحليل تأثير الإشعاع النووي فيهم، وكانت تربطهم قبل التفجير ساعات. ومن تجاربها الضخمة تجربة اليربوع الأزرق، واستعملت فيها أربعة أضعاف قنبلة هيروشيما، وقال بعضهم إن طاقة تفجيرها كانت ستين كيلوطن، أي ما يعادل قنبلة هيروشيما اليابانية سبعين مرة، بحسب صحيفة الشعب الجزائرية، ونتجت منها سحابة مشحونة بعناصر مشعة، وصلت إلى نيامي، وسقطت بسببها أمطار سوداء بجنوبي البرتغال، وفي اليوم الذي يلي ذلك سقطت في اليابان[4]. وترك الجيش الفرنسي وراءه آلاف الأطنان والمعدات المشعة تحت الرمال لتقضي على الإنسان والحيوان والبيئة وآثارها قرونا أخرى، وأبت فرنسة أن تعطي الجزائر أسماء الأمكنة التي دفنت فيها النفايات النووية لمعالجة المواد الإشعاعية، ونظفت وأصلحت ما أفسدت تجاربها النووية في بولينيزيا في المحيط الهادئ. ولم يدن مندوبو الدول الغربية بهيئة الأمم المتحدة فرنسة وتجاربها، بل أيدها أعضاء الحلف الأطلسي. وكانت تجارب رقان النووية بالجزائر مشتركة بين فرنسة وإسرائيل باتفاق سري وقعتاه عام ١٩٥٣، وكانت إسرائيل تبحث عن أرض لتجاربها النووية، وفرنسة تبحث عن امتلاك القنبلة

---

(١) انظر مثلا: الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ١٩ وما بعدها.

(٢) السياسة الاستعمارية وإجراءاتها ضد التعليم العربي الاسلامي في الجزائر، ١٨٥

(٣) اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، ١٧١.

(٤) التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

النووية بعد أن تخلت عنها أمريكة وبريطانية، ورفضتا أن تعيناها على امتلاكها، فوجدت المال عند أثرياء اليهود، فدفعوا عنها تكاليف أول قنبلة ذرية فرنسية، وبلغت مليارا و ٢٦٠ مليون فرنك فرنسي. وتلت اليربوع الأزرق اليربوع الأبيض، ثم اليربوع الأحمر، وختمت بتجربة القنبلة الرابعة، وسميت اليربوع الأخضر. وقد أتت تلك التجارب على الأخضر واليابس، والحيوانات، والحشرات، والطيور، والبذور، وزالت مظاهر فصل الربيع في الأمكنة التي أجريت فيها التجارب، وتراجعت أعمار الإبل إلى أقل من ٢٠ سنة، وعقمت الأشجار، كالفستق البري، والزيتون الصحراوي، وتلوثت الجيوب المائية. وترتبت عليها تشوهات خلقية مستفحلة في المواليد، كصغر الجماجم، أو ضخمها، وأمراض العيون، وقلَّت الولادات، وبقيت آلاف الأسر تعيش في مناخ ملوث بالإشعاع. وسيبقى تأثيرها زمانا طويلا، ويمكنها أن تنتقل إلى أجيال قادمة. وهي جرائم ضد الإنسانية، ارتكبتها فرنسة في الجزائر[1]. ثم أبت أن تعوض المتضررين من فعلتها، وبعد ضغوط كبيرة من جمعيات الضحايا والحقوقيين والسياسيين الذين دافعوا سنين عددا عن هذه القضية سُنَّ أول قانون لتعويضهم، لكن لجنة دراسة ملفاتهم لم توافق إلا على تعويض واحد من أربعة عشر ملفا، بتت في أمرها، وقالت لجنة التعويض إنها قبلت سبعة وأربعين ملفا، وكانت الأرقام التي ذكرت السفارة الفرنسية في الجزائر مفاجئة، فإن أقل تقديرات الخبراء المستقلين تذكر أن أربعين ألف جزائري تضرروا من إشعاع التفجير، دون كثير من أبنائهم وحفدتهم، أصيبوا بأضرار عند الولادة. ومع ذلك لم تفصل لجنة التعويضات فيما قبلت من الملفات إلى الآن. ولم يزد ما أرصدت الحكومة الفرنسية للتعويض على عشرة ملايين يورو، للمصابين كلهم. ويفرض القانون على مقدم طلب التعويض أن يقدم دليلا على أنه كان يقيم أو يعمل في المكان الذي وقع فيه التفجير حين وقع، وقصره على أمراض سرطانية بعينها، مع ما يرى الخبراء من أن الإشعاع النووي لا يسبب السرطان وحده، بل يسبب

(١) التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، والماضي النووي» بصحراء الجزائر.. دعوات فرنسية لكشف المستور، وواحد وستون عاما على التفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر.. مآسيها متواصلة وباريس ترفض التعاون.

أمراضا قلبية وعصبية أخرى. ويكاد يستحيل على عشرات الآلاف الذين كانوا يقيمون في تلك الأقاليم، من الجزائريين، وممن استُقدموا للعمل من فرنسة ودول إفريقية، كالنيجر، ومالي أن يثبتوا أنهم كانوا يقيمون بها[1]. ولما بثت التلفزة الجزائرية شريطا تسجيليا في بداية العقد التاسع من القرن العشرين عن التفجير، أقامت فرنسة الدنيا ولم تقعدها؛ لأنها كشفت سوأة «الاستعمار الفرنسي المتمدن في الجزائر»[2]. ومن حضارتها أيضا إرسال شارل ديغول برقية إلى وكيل فرنسة في سورية ولبنان، يأمره أن يدمر ثلثي سورية من أجل توطيد حكم فرنسة فيها. وكان ذلك بسبب سوء العلاقات بين فرنسة وحكومة سورية[3]. ومنها ما قال والي الجزائر العام في المجلس الاستشاري الفرنسي في إجابة عن سؤال سُئِله: إن إحدى وأربعين قرية دُكَّت بالطائرات والوحدات البحرية، ما نجا منها إنسان ولا حيوان[4]. ومن حضارة فرنسة أيضا بيع آذان الأموات، واستخراج عظامهم من القبور لاستعمالها في ردم حفر الطريق، وصناعة فحم العظام، وتصفية السكر![5]. وكان المؤرخون الفرنسيون يكذِّبون ذلك من فظاعته، غير أن ش. أ. جوليان قال إن طبيبا فرنسيا بمرسيلية قال إنه رأى في حمولة الباخرة لابون جوسيفين -ووصلت من الجزائر في مارس عام ١٨٣٣- شحنة، فيها عظام بشر: جماجم، وفكاك، وأفخاذ، وسواعد، وغيرها. وقال الدكتور سيجو إنه رأى عظاما بلحمها، كأنما أخرجت آنفا من التراب[6].

وفرنسة هي التي بنت مفاعلات إسرائيل النووية، وهي تولت طوال العقد السادس من القرن الماضي تطوير الصواريخ المتوسطة المدى لإسرائيل وجربتها في إقليم بشار بالجزائر، على مجاهدي الثورة الجزائرية،[7]، وهي التي أعانت مخابرات إسرائيل على تدمير مفاعل تموز العراقي، فقد وضع فيه مهندسوها الذين كانوا يعملون فيه جهازا دلَّ عليه الطائرات الإسرائيلية التي

---

(١) بقاء الجيش الفرنسي في الجزائر إلى سنة ١٩٧٨.

(٢) تأملات في السياسة: السيادة الناقصة، ٨٦.

(٣) المذكرات، ٣/ ٧٣٧.

(٤) السابق، ٣/ ٧٣٦.

(٥) الجزائر في التاريخ، ٤٧٠، وجهاد الجزائر، ١٢.

(٦) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٥٣ وما بعدها.

(٧) التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

كانت تريد قصفه، ثم فجروه بقنابل من الداخل، حين قصفته إسرائيل؛ ليوهموا أن القصف هو الذي دمره[1]. ولما وقعت الحرب البوسنية ناصرت الصرب على المسلمين، وأيدت مذابحهم وما فعلوا بالمسلمين، مناصرة سافرة، ولم يرفَّ لها هي ولا بريطانية جفن على ما لقي المسلمون من الصرب، وكان فرانسوا ميتران يقول: لن يخلص إلى الصرب سوءٌ، ما دمت في الإليزي. وألغت انتخاب الجزائر عام ١٩٩٢؛ أن فاز به من يريدون تحريرها منها، وشنَّت عليهم الحرب بأيدي ضباطها في الجزائر، نحو عقد من الزمن، ومدتهم بأسلحة ومعدات بـ ١٠٠ مليون دولار، وأعانتهم أمريكة بالسلاح، فقتلوا به من الجزائريين في السنين الثماني الأولى من القمع ١٢٠ ألف نسمة[2]، ودُمِّر البلد على بكرة أبيه. غير أن أمريكة تتناسى هذه الحقائق، أو تتجاهلها، وتجعل صعوبة التقاء العربية والإنجليزية وحدها سببَ كُرْه العرب لأمريكة وإسرائيل، وسببَ الشعور بالبغض والانتقام من الذين يتكلمون بالإنجليزية والفرنسية، ولا شيء وراء ذلك! كأن من السهل أن تتلاقى العربية واليابانية والصينية والروسية! والنفوس مجبولة على بغض من أساء إليها، كما أنها مجبولة على حب من أحسن إليها، وقد ذاق المسلمون -وما زالوا يذوقون- من الغرب ما لم يذوقوا من أمة من الأمم، وحسْب المسلمين من أسباب بغْض الأمريكيين والغربيين أن يكون «مشروع الشرق الأوسط الكبير» من خططهم، وأن يكون ما اشتمل عليه من المكر مما يبيتون لهم. إن المسلمين لا يكرهون اليابانيين، ولا الكوريين، ولا الفييتناميين، وإنما يكرهون الغربيين؛ لأنهم فعلوا بهم ما يستوجب الكره، ويبغِّضهم إلى المسلمين وإلى كل من ظَلموا من شعوب الأرض، وكل من يكره الظلم، من كل جنس وملة. وليس العجب أن يكره المسلمون الغرب، وإنما العجب ألا يكون كرههم إياه أشد مما هو، وألا يكون كرهَ صِدام، بسبب ما ارتكبوا في حقهم منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم[3]، ولو قد فعلوا ما كان ذلك منهم إلا ردَّ فعل مشروع لاستعمارٍ، استنزف ثروتهم الفكرية والمادية، كما

---

(١) الحرب الصليبية الثامنة، ١٩ وما بعدها.

(٢) الإمبريالية الجديدة، ٢١.

(٣) تعايش الثقافات، ١٩٤.

قالت «الإيكونوميست»، ذات مرة[١].

وليس ما قد رأينا شيئا تأتيه الحكومات بمعزل عن شعوبها، بل هو هوى أكثرها، فإن بيل كلنتون -مثلا- لما شعر بتدهور شعبيته في يوليو عام ١٩٩٣ وأراد رفْعها ضرَب بغداد بالصواريخ، وما أن أُعلِن النبأ على الأمريكيين مقرونا بصور المباني المهدمة، والجرحى، إلخ، حتى جاءت استطلاعات الرأي بما أراد[٢]، وفاز جورج بوش على منافسه آل غور بأصوات، لا تزيد على خمسمائة، قال بعض المراقبين يومئذ إنها مزورة، وكذلك كان يرى أكثر من نصف الأمريكيين، وكانوا من أجل ذلك يستصغرونه، ويستخفون به، ويقابلون أصغر نكتة تقال فيه بعاصفة من الضحك، ويعللون ذلك بأنهم يظنون أنه ما فاز في الانتخاب[٣]، وقبيل حوادث الحادي عشر من سبتمبر كان المؤيدون له ٥٠٪، وبعد وقوعها قفزوا إلى ٨٢٪، وبحلول ١٣/ ١٤ مارس عادت إلى ٥٣٪، فلما أعلن الحرب على العراق، قفزت إلى ٦٨٪. وفي ترشحه للولاية الثانية عام ٢٠٠٤ فاز بأغلبية مريحة، لأنه فعل بأفغانستان عام ٢٠٠١، وبالعراق عام ٢٠٠٣ ما فعل[٤]. وقال أحد الباحثين الغربيين: إن من شأن حرب اجتماعية باردة مع الإسلام أن تقوِّي الهوية الأوربية في هذا الوقت الحاسم، وربما كان في الغرب رأي واسع الانتشار، لا يؤيد حربا اجتماعية باردة على الإسلام فحسب، وإنما يؤيد الأخذ بسياسات تحض على ذلك أيضا[٥]. ومما يبين عن مبلغ هذه الكراهية أن يُحِلَّ الغرب العالم الإسلامي محلَّ الاتحاد السوفيتي في العداوة، مذ سقط، دون العالم، ويرى أن الإسلام أنسب الأديان لأن يكون الشريرَ الذي تجتمع على عداوته الشعوب الغربية، بعد انتهاء الحرب الباردة؛ «لأنه ضخم، ومخيف، وضد الغرب، ويتغذى على الفقر والسخط، وينتشر في بقاع كثيرة من العالم»[٦]. وليس من المؤمل أن تزول هذه العداوة كما قال

(١) أهمية اللغة في الحفاظ على الأمن الفكري في عصر العولمة، ٦٣.
(٢) مسألة الهوية، ١٩٢
(٣) العولمة والإرهاب، ٢٤٢.
(٤) حرب بلا نهاية، ١٢٥.
(٥) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢٠٧ وما بعدها.
(٦) واشنطن بوست، ٨ مارس ١٩٩٢، (نقلا عن: مسألة الهوية، ٢٠٧).

إدوارد سعيد: الشرق العربي الإسلامي وحده هو الذي كان يتحدى أوربة مدة من الزمن، وقد نجح نجاحا عسكريا وسياسيا، لا يبارَى، يحق له أن يفخر به، والأماكن المذكورة في الكتاب المقدس تقع في أرض إسلامية، وقلب الدولة الإسلامية كان يقع دائما في أقرب المواقع من أوربة، ومحالٌ أن يغيب عن ذهنِ أوربيٍّ، في الماضي أو الحاضر، أن الإسلام غلب رومة، وبذَّها في الحضارة، وكان وما زال، تهديدا خاصا للغرب وحضارته، ومحالٌ أن يقال في دين آخر، أو تجمُّعٍ ثقافي ما يقال الآن في الإسلام[1]. وقال: الإسلام عند العامة في أمريكة وأوربة اليوم، نوع من الأخبار غير السارة، ذلك أن وسائل الإعلام والحكومة ومخططي الجغرافية السياسية والخبراء الأكاديميين في الإسلام جميعا يعزفون لحنا واحدا: الإسلام خطر على الحضارة الغربية، ولا يعني هذا أن الرسوم العنصرية الساخرة التي تحط من الإسلام هي وحدها الموجودة في الغرب، إن صور الإسلام السلبية المنتشرة بكثرة شديدة تفوق انتشار كل صورة أخرى. وهي ليست صورة لحقيقة الإسلام، ولكنها لما تظن فئات كبيرة من مجتمع بعينه أنه الإسلام، وهذه الفئات تريد لترُوج تلك الصورة السلبية، وتكون أكثر انتشارا وحضورا من كل صورة أخرى، وهي قادرة على ترويجها[2].

وقد بنى محمد عابد الجابري على هذا أن العرب يخطئون، إذ يظنون أن الغرب تحرَّر من ذاكرته الدينية والثقافية التي كانت توجه فلاسفة التاريخ والمستشرقين، فغدا علمانيا خالصا، وعقلانيا نفعيا، متجردا من تلك الذاكرة، فإن تلك الذاكرة تفعل بالعلمانيين والليبراليين في أوربة وأمريكة ما تفعل بالكنسيين وغلاة العنصريين من فعْل غير واعٍ، وهي تميط اللثام عن نفسها بين الحين والحين، في ردود فعل معينة، غير مرئيةٍ[3]. وقال إن الغرب وربيبته الصهيونية، إذ يستحضران العربَ في مشاريعهما يلغيانهم من حيث هم ذات لها حق منافستهما[4]. ولا بد من استحضار نظام العلاقات المعقَّد بين العرب

---

(١) انظر: الاستشراق، ١٤٣، وتغطية الإسلام، ٣٢.

(٢) التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة؟ ٢٩١ وما بعدها. وانظر بعض العنوانات التي ذكر جون أسبوزيتو أنها تنشر في الغرب في ص ٢٩٢ من هذا الكتاب.

(٣) مسألة الهوية، ١٣٦ وما بعدها.

(٤) السابق، ١٤٠.

والغرب والصهيونية، وهو نظام يتداخل فيه الماضي، والحاضر، والمستقبل، والثقافي، والسياسي، والديني. وهو نظام لاشعوري، يَبْني ما يسمَّى النظام العالمي الجديد. وسيخطئ العرب خطأ جسيما إذا هم غضُّوا الطرف في علاقتهم بالغرب عن النظام الذي يبنيه ويوجهه، ويفرض وجوده عليه، وقد عبَّر عن نفسه وميوله ورغباته الدفينة في الظاهرة الشاملة التي تَسِمُ عصرنا، من حيث هي سلاح القوى الكبرى للهيمنة على مستقبل البشر: ظاهرة الاختراق الثقافي العالمي[1]. إن العرب -حكاما وكتَّابا وتجارا- تذهب بهم الغفلة، والسذاجة، وحسن النية، إلى اعتقاد أن الغرب سينحاز إليهم ويصادقهم، ويكون عونا لهم، إذا أثبتوا له أنهم راغبون في صداقته، ومستعدون لأن يؤدوا له ما تؤدي إسرائيل[2]؛ لأنهم يغفلون عن النظام اللاشعوري الذي يتملَّك الغرب، ويصوغ سياسته تجاههم، وهو نظام، لا يد للغربيين فيه كبيرة؛ لأنه جزء من الثقافة التي يُلقَّنونها كما يلقَّن كل امرئ لغته وثقافته، وليس في وسعهم أن يتحرروا منه. ومما يصدق ذلك توافق أقوال كبار الساسة الغربيين وأفعالهم وأقوال مثقفيهم وعوامهم وأفعالهم، على ما قد يكون بينهم من تباعد الزمان والمكان، فضلا عن تباعد المكانة، كريتشارد نيكسون، وقد رأينا ما يدل على مبلغ كراهيته هو والأمريكيين للمسلمين، وبرينتون تاران، منفذ الهجوم على مسجدي كرايست تشيرش في نيوزيلندة، يوم الجمعة ١٥/ ٣/ ٢٠١٩ م، فقد تأثر كل منهما بتربيته، وثقافته، فقد ربت ريتشاردَ نيكسون أمُّه حنا ملهوس تربية دينية، وكانت هي وزوجها فرانك نيكسون ينتميان إلى فرقة، تدعى المرتعدين (من خشية الله)، وكانا -ولا سيما حنا- شديدي التدين[3]. وكانت حنا كثيرة العبادة، وكان الدين «هو حياتها»، وكان ريتشارد نيكسون يعتقد أنها قديسة، ويفخر بذلك، وكانت تخلو بنفسها كل ليلة في إحدى حجرات المنزل لتصلي عملا بقول المسيح: إذا صليت، فادخل في مخدعك. وسَمَّت ولدها ريتشارد نيكسون على ريتشارد قلب الأسد، قائد الحروب الصليبية، وربته كما ربت

---

(١) مسألة الهوية، ١٤٠.

(٢) السابق، ١٤٤.

(٣) غطرسة القوة، ٢٨ وما بعدها و ٤١.

سائر بنيها تربية دينية، فتأثر بها ريتشارد تأثرا شديدا في حياته كلها، حتى إدارته السياسية، وعلاقته بزوجه، وهي علاقة كانت محل سخرية كثير من الأمريكيين، وكان يعلن أبدا أنه نصراني، وأنه من المرتعدين، ولما تولى الرياسة كان يقيم صلوات في البيت الأبيض كل أحد، وزعم أنه منذ صار رئيسا كان يركع على ركبتيه بجانب سريره كل ليلة قبل أن ينام، يسأل الله أن يهديه، مع أنه، من ناحية السلوك، كان منغمسا في المعصية، كما اعترف للقس بيلي غراهام[1]. ويبدو أن برينتون تاران -وهو أسترالي عمره ٢٨ عاما- رُبِّيَ تربية كتربية ريتشارد، كما يبدو من عبارات كان يكتبها على سلاحه الذي نفذ به الهجوم، فقتل خمسين مسلما، مثل: «Turcofagos» أي «آكلو لحوم الأتراك»، و «١٦٨٣ فيينة» إشارة إلى تاريخ حصار الترك لفيينة، وقد فكه السلطان سليمان القانوني بعد أن مُنِيَ الجيش العثماني بخسائر كبيرة بسبب البرد وعواصف الثلج، و ١٥٧١ م، وهو تاريخ معركة ليبانتو البحرية، وهزمت فيها الدولة العثمانية أيضا[2]. على أن التوافق ليس بين برينتون وريتشارد فقط، بل بينهما وبين سائر من قد رأينا أقوالهم من الأوربيين. ولا يخفى أن الثقافة التي صنعت برينتون، وحملته على ما فعل هي الثقافة التي صنعت شكسبير، وحملته على أن يقول: أريد أن أذهب إلى إسطنبول لأعلق تركياً بلحيته[3].

وإذا صح هذا، تبين عدم صحة قول جراهام فوللر وإيان لسر: إن أسباب التوتر بين الإسلام والغرب ليست دينية، وإنما تتعلق بالقضايا السياسية، والاقتصادية، والنفسية، والإسراتيجية، والثقافية، وإن الغالبية العظمى من أبناء الغرب المعاصرين -مهما يكن تدين أحدهم- لا تعدُّ نفسها نصرانية في المقام الأول، وإنما النصرانية عندها من ذكريات العصور الوسطى؛ ولذلك صارت دلالتها -عندها- مهجورة بالية[4]. نعم، إن أكثرية نصارى الغرب -ومنها جل السياسيين- غير متدينة، ولا تعتقد النصرانية كما يعتقدها البابوات والقساوسة، وأتباعهم، لكن العقيدة النصرانية -من حيث هي ثقافة- ذات أثر كبير فيهم

---

(١) انظر مثلا: غطرسة القوة، ٣٠ و ٣٦ و ٣٩ و ٤٠ - ٤٤ و ٧٩ و ١٠١.
(٢) نيوزيلاندا: سفاح المسجدين يوجه رسائل عنصرية ضد المسلمين والأتراك والدولة العثمانية.
(٣) أجداد ترانت العنصريون.
(٤) الإسلام والغرب، ٣٦.

جميعا، حتى الملحدين. هذا إلى أنهم يتوسلون بها إلى تبلُّغ ما يريدون من مكاسب سياسية، متى رأوا أنها تبلغهم، كما يتوسلون بالتنصير إلى تغيير هويات الشعوب تيسيرا لاستتباعها واستعمارها، حتى الذين يكفرون بالنصرانية منهم أشد الكفر[1]، ويطردون اليسوعيين من بلادهم، فقد كانوا يرسلونهم إلى إفريقية، ويمولونهم، ويعينونهم على التنصير. وجراهام فوللر وإيان لسر رجلان من رجال المخابرات الأمريكية؛ فليسا مبرأين من تعمد الإضلال عن تأثر السياسة الأمريكية بعقيدتها النصرانية تجاه المسلمين، وإشاعة ما يعين على اختراق المسلمين ختراقا ثقافيا، وهما من مهمات المخابرات، وقد أضلَّ الغرب بهذا ونحوه بعض المسلمين عن بعض حقائق السياسة الغربية، ووجههم الوجهة التي أشار إليها محمد عابد الجابري.

---

(١) انظر مثلا: البورقيبية والهوية، ٣٤ وما بعدها.

## وسائل استبدال اللغات الأجنبية بالعربية

توسلت أمريكة بعد الحادي عشر من سبتمبر إلى نشر الإنجليزية، وإحلالها محل العربية، بالمدارس، والجامعات، وإدخال الإنجليزية في مناهج التعليم الرسمي، بما يجعلها هي اللغة الثانية في التعليم الرسمي، واللغة الأولى في التعليم الأجنبي والتعليم الخاص[1]، ولغةَ أهم التخصصات العلمية، كعلوم الطب، والهندسة، والعلوم الطبيعية، والرياضيات، وبفتْح باب الابتعاث إلى الدول الناطقة بالإنجليزية على مصراعيه، واصطناع الإنجليزية لغة رسمية في سوق المال والأعمال، والحياة العامة، لإحداث ألفة نفسية بينها وبين العرب، وتعليقهم بها من حيث لا يشعرون، لتغدو دارجة على الألسنة، كما هي دارجة على العيون، في كل شيء: في أسماء المتاجر، والشوارع، والمطارات، والمطاعم، والسلع، وألواح الدعاية والإعلان، والفضائيات، والشابكة، والحاسوب، والجوال، والملابس، والمعاملات. وسنقف عند هذه الوسائل بالتفصيل، لنتبين ما فعلت بالعربية.

**أ- المدارس والجامعات:**

اختلفت السياسة اللغوية في المشرق العربي منذ عام ٢٠٠١ م اختلافا شديدا عنها قبل ذلك، فمنذ احتلال أمريكة لأفغانستان والعراق، تبوأت الإنجليزية مكانة عظيمة في المشرق العربي، ولا سيما مصر ودول الخليج، فتوسع بعض الأقطار المشرقية في تعليمها، حتى غدت تدرَّس في السنين الأولى من التعليم الابتدائي، بعد أن كانت تدرس في السنين الأخيرة منه، أو بعد الطور الابتدائي، وفُتحت لتعليمها مراكز في كثير من الجامعات، وجُعل اجتياز امتحان إجادة الإنجليزية شرطا للقبول في الدراسات العليا في بعض الجامعات، ولم يُستثن من ذلك المتخصصون في العربية، ولا المتخصصون في الشريعة الإسلامية.

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٤٨.

واستُحدث ما يسمى الاتصال العلمي، وهو إيفاد الراغبين في تعلم الإنجليزية من أساتيذ الجامعات وموظفيها إلى الدول الناطقة بالإنجليزية. وفتح الباب على مصراعيه لابتعاث الطلاب إلى أمريكة وبريطانية وإيرلندة، وكندة، وأوسترالية، ونيوزيلاندة، وبعض الجامعات التي تعلم بالإنجليزية، في بلدان ليست الإنجليزية لغتها الرسمية، كبعض جامعات هولندة. وكان ذلك بطلب من أمريكة، وعون من الموالين لها من أصحاب القرار في دول المشرق العربي. ولم يكن التعليم وحده غايةَ هذا الابتعاث، وإنما كانت غايته الأولى تغيير ثقافة الشباب، وصنعهم في الدول الناطقة بالإنجليزية صنعا هو أرضى للسياسة الأمريكية؛ بما يصرف عن «الإرهاب»، و«التطرف»، وما ينال من منافع أمريكة، ويعارض سياستها في العالم الإسلامي. فكان المبتعثون يعودون معجبين بالإنجليزية، وهي ألذُّ شيء على قلوبهم، يرددونها بمناسبة وغير مناسبة، ونالت مكانة مميزة في حياتهم الخاصة والعامة، وكان زهدهم في العربية الفصحى، وازورارهم عنها، بل احتقارهم إياها، بقدر تعلقهم الإنجليزية وحرصهم على تعلمها، والتكلم بها، وزاد ذلك أن معرفة المبتعثين جميعا بالعربية مزجاة، وبعضهم خريجو أقسام، ليست للعربية فيها مكانة، وكان بعضهم من خريجي الثانوية، وفيهم من لم يكونوا ناضجين، وانتماؤهم إلى الإسلام والعروبة ضعيف وساذج، وهم قابلون لأن يتجهوا حيث يوجَّهون، فكان من اليسير أن يتبدلوا بهويتهم، ويكون هواهم إنجليزيا أو أمريكيا، حتى الفضلاء والمتدينون منهم، فقد كان من غير الكثير أن يكون فيهم ذو وعي وثقافة، يحصنانه مما يراد به.

وكان غرض تعليم اللغات الأجنبية بعد الحادي عشر من سبتمبر واضحا في السياسة الغربية، فقد أصدر مركز راند الأمريكي للدراسات الإستراتيجية تقارير، تطالب بالضغط على الدول العربية والإسلامية، ولا سيما دول الخليج العربي، لترخِّص للجامعات الأمريكية والأوروبية بالعمل فيها، من أجل أن تغير الوجه الحضاري للبلاد التي تغذِّي «العنف والإرهاب والتطرف»، ومن أجل عولمة التعليم، في أطواره كلها، ليسهل على الأمريكيين والأوربيين فرض «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، وتغيير الثقافة والقيم الإسلامية وإبعاد العرب

عنها؛ لأنها تحول دون بلوغهم ما يريدون من اختراقهم، وتجعل البلاد موطنا لصناعة «الإرهاب»، بسبب المناهج «الجامدة والعنيفة»[1]. ومن أغراض هذا التغيير أيضا إعادة رسم خريطة الوطن العربي، وتفكيك الروابط التاريخية والثقافية بين العرب، وقطْع ما بقي من أسباب التواصل بينهم، وقطع ما بين العربية والتعليم، واستبدال اللغة الأجنبية بها، وربط الأسباب بالغرب[2].

وبإمضاء هذه السياسة انتشرت في الوطن العربي المدارس والجامعات الأجنبية التي تدرِّس الإنجليزية وتدرِّس بها، من الروضة إلى الجامعة، انتشارا لا نظير له في تاريخ العرب الحديث إلا انتشار المدارس الأجنبية في مصر، على الوجه الذي قد رأينا، فقد صار فيما يسمى الشرق الأوسط خمسة وخمسون فرعا جامعيا أجنبيا، تساوي ٣٤٪ من فروع الجامعات الأجنبية في العالم، ويجتمع أكثرها في قطر والإمارات[3]. وهي تدرِّس مناهج أجنبية، إمعانا في النُّقلة التي تريد إحداثها في الوطن العربي: صنع أجيال تنتمي إلى الثقافة الأمريكية، أو لا تضمر لها من الكراهية ما تقتضي سياستها في العالم، عامة، والعالم الإسلامي، خاصة. وتَتْبَع هذه الفروعُ أصولَها في بلادها، في كل شيء، وليست لها علاقة بالبلاد التي تقام عليها إلا أنها تمولها، من غير أن يكون لها عليها سلطان سياسي أو تربوي، لا في المناهج، ولا في القبول والتسجيل، ولا في تسمية الأساتيذ، ولا في جنسيات الطلاب الذين تقبلهم، أو تستضيفهم، بل هي التي تُلزم البلدَ شروطها، كما ألزمت جامعة جورج تاون -وهي جامعة أمريكية يسوعية- قطرَ شروطها، ومنها بناء كنيسة صغيرة في حرمها، وتدريس مقررات في الدين والفلسفة، والاحتفاظ بشارة الجامعة، وهي نسر أمريكي، يضع الصليب بين مخالبه، مع ما يدل عليه ذلك من معان، تصادم عقائد الشعب وقيمه الدينية[4].

وكان يقابل افتتاح فروع للجامعات الأجنبية عدول بعض الجامعات الحكومية عن التعليم بالعربية إلى التعليم باللغة الأجنبية، بعد ما أَنجزت من تعريب التعليم العالي، ولا سيما العلوم الإنسانية، وبعد ما رأت من اشتداد المطالبة

---

(١) اللغة العربية وهوية الأمة.

(٢) المدارس الأجنبية في بلادنا: غزو آن له أن ينتهي.

(٣) التجارة بالتعليم في الوطن العربي، ١٩٧

(٤) التجارة بالتعليم، ٢٤٦.

بتعريب العلوم كلها، وما أثبتت الدراسات من إخفاق التعليم باللغات الأجنبية، وما جرَّ من كوارث، كما فعلت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، فقد قررت أن يكون تعليمها بالإنجليزية(١)، كما أن زيادة مقررات اللغة الأجنبية كان يقابله تقليل مقررات العربية. وازدادت المعاهد الخاصة التي تقدم دورات مكثفة في الإنجليزية في الدول العربية كلها، فضلا عن تلك التي يفتتحها المركز الثقافي البريطاني. وازدادت المدارس الخاصة التي تدرس الإنجليزية تدريسا مكثفا في أقسامها العربية، من الروضة، وتلك التي افتتحت أقساما دولية تدرس المقررات كلها من تاريخ وجغرافية وعلوم ورياضيات بالإنجليزية، من الصف الأول الابتدائي، مع مادة واحدة بالعربية (بخمس ساعات في الأسبوع)، وساعة واحدة أو ساعتين للدين الإسلامي في الأسبوع(٢). وغدت الإنجليزية والفرنسية لغة ثانية مستقرة في مناهج الدراسة، من رياض الأطفال، وفي بعض البلدان العربية من الصف الاول الابتدائي(٣). وكان المتابع لسياسة تعليم الإنجليزية، والعدول عن تعليم العربية يشعر بأن البلدان العربية يراد لها أن تنتقل عن هويتها، وأن بعض الحكومات الغربية تُلزمها ذلك إلزاما، لا خيار فيه، كما يُلزِم المنتصر المهزومَ شروطه، لكن الدول التي تُلْزَم ذلك تسوِّغ إمضاءَه بما يوهم أنه خيارها بحتا، وإنما تفعل ما تفعل من أجل الرقيِّ بشعوبها، وهي، إذ تقرر ما تقرر من تعليم الإنجليزية والتعليم بها، واستضافة فروع الجامعات الأمريكية والأوربية، إنما تُمضي خططا ومشاريع، هي قررتها. وأبدى الناس حرصا شديدا على تعليم أبنائهم اللغات الأجنبية، من الروضة، وصدودا بقدر ذلك عن تعليمهم العربية، بل اعتراضا على تعليمها مع الإنجليزية(٤)، ورغب كثير من الآباء في تعليم أبنائهم الإنجليزية في الصغر، وأصبح شغل بعضهم الشاغل متى يشرعون في تعلمها، أفي الرابعة أم في الخامسة، وصاروا يشعرون بالفخر والاعتزاز أن يتعلموها، ويستعملوها أكثر مما يستعملون العربية، ويقلقون إذا عجزوا عن قراءتها أو أخطؤوا في هجائها، ولا يبالون أن يكونوا ضعافا في العربية، ولا

---

(١) صحيفة المجاهد الجزائرية، ٢٤/ ١٩/ ١٩٩٦ (نقلا عن: واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام، ٦٩).

(٢) اتجاهات الشباب.

(٣) في الإرهاب اللغوي.

(٤) انظر: انقراض اللغة العربية.

يستطيعون القراءة بها[١]، بل يغتبط بعضهم بأن أبناءه ما يعرفونها، وما يحبون أن يتكلموا بها، وأنهم ما يكلمون أمهاتهم إلا باللغة الأجنبية، ويرون أنْ لا داعي إلى أن يتعلموا العربية؛ لأنها لا تفيدهم في العمل ولا في الدراسة، وينفقون على تعليمهم بالإنجليزية أموالا طائلة[٢]. وأظهرت البحوث أن جل طلاب الجامعات العربية الذين استُطْلِعت آراؤهم ينظرون إلى الإنجليزية بعين الإجلال، ويبدون الرغبة في تعليمها أبناءهم في المدارس الدولية ليتعلموها ويتعلموا بها، وينظرون إلى العربية بعكس ذلك، ويعتقدون عجزها، وأنها لا تصلح إلا للعلوم الدينية، والتخصصات الأدبية، كالتاريخ، والأدب العربي، والتربية، وأنها لغة شعر وعواطف، وأن الإنجليزية هي التي تصلح للطب، والهندسة، والحاسوب[٣]. والغرب إذا اتخذ عدوا أعاد صنعه ليلصق به ما شاء من صفات، تصنع هويته كما أرادها، ولهذا جعل الإسلام وعاء لكل ما يكره ويخاف[٤]، وأعاد بناء العربية؛ ليلصق بها ما شاء من المساوئ، ويحشوها بما يُكرَه، وما ألصق بها، وحشاها به هو ما يردده أبناؤها، على غير بصيرة، وما يفعلون بها هو ما أراد أن يُفْعَل بها، ومنه إخراجها من الحياة، وإحلال الإنجليزية والفرنسية محلها.

وكانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بداية توطيد العلاقة بين قطر والإمارات العربية المتحدة والمؤسسات والجامعات الأجنبية، وجذب فروعها[٥]. وكانت قطر من أسرع الدول العربية استجابة للسياسة الأمريكية تجاه العربية والإنجليزية، ففي مطلع عام ٢٠٠٢ اصطنعت الإنجليزيةَ في تدريس المقررات الرئيسة في أطوار التعليم العام كلها، وجعلت ذلك مدخلا «لإصلاح التعليم»[٦]، وكان ذلك بإشارة من مؤسسة راند، فقد وَكلت إليها عام ٢٠٠١ مراجعة تعليمها الأساسي، وعهدت إليها مؤسسة قطر تغيير سياسات التعليم وإصلاح نظامه من الحضانة إلى التعليم العالي، فجعلت تعليم

---

(١) انقراض اللغة العربية.

(٢) اللغة العربية المعاصرة في دول الخليج، ١٤٠ وما بعدها.

(٣) اتجاهات الشباب نحو استعمال اللغتين.

(٤) مسألة الهوية، ١٨٧.

(٥) التجارة بالتعليم، ١٩٩.

(٦) إشكاليات التعليم باللغة الأنجليزية في دول مجلس التعاون.

الإنجليزية من الصف الأول الابتدائي، وجعلت تدريس العلوم والرياضيات والحاسوب بالإنجليزية، متعللة بأنها لغة العلم، والتقنية، والاقتصاد، وقللت ساعات الدراسات الإسلامية واللغة العربية حتى صارت أشبه باللغة الثانية. وكانت المدارس الحكومية في قطر، قبل الحادي عشر من سبتمبر، تدرِّس المواد العلمية والأدبية كلها بالعربية، وتدرس الإنجليزية من الصف الخامس الابتدائي، ثم صار نظام التعليم فيها موافقا نظام التعليم الأمريكي موافقة تامة، وتضمَّن ذلك استقلال المدارس، وتنوُّع المناهج، وإجراءات المتابعة، ونشأ عنه ما يسمى المدارس المستقلة، وهي مدارس مستقلة عن وزارة التعليم، مع أن تمويلها حكومي، فأُنشئت منها عام ٢٠٠٤ اثنتا عشرة مدرسة، ثم بلغت ستا وأربعين، وألزمتها لجنة التعليم أن تسمي كلٌّ واحدة منها أربعة مدرسين، يتكلمون الإنجليزية بالسليقة، تكل إليهم تدريسها وتدريس العلوم والرياضيات والحاسوب بها، وأزيح كثير من المدرسين القَطَريين والعرب، واستبدل بهم مدرسون بريطانيون، وأمريكيون، وآخرون من الدول الناطقة بالإنجليزية. وتحمَّلت الحكومة القطرية في ذلك ما لقيت من سخط الشعب والصحافة القطرية والصحافة الخليجية، وما أُخذ عليها من الاستعانة بمستشارين غربيين، ووصفٍ له ولما فعلت بالتعليم بأنه هجوم على الهوية القطرية، وأن ما صارت إليه برنامج، تديره مؤسسة يهودية (مؤسسة راند)[1].

وكانت جامعة قطر، حين أنشئت، تدرِّس المواد كلها بالعربية، وكانت عام ١٤٠٨ هـ قد أتمت تعريب أقسام الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والنبات، والحيوان، وعلوم البحار، ثم عدلت عن العربية إلى الإنجليزية، من عام ٢٠٠٤ إلى عام ٢٠١١، فصارت تدرِّس بها أكثر العلوم، حتى العلوم الإنسانية، وكانت تشترط اجتياز امتحانِ إجادةِ الإنجليزية (التوفل أو الآيلتس) للتخصصات كلها غير العربية والتاريخ، ولم تستثن منه كلية الشريعة[2]. ولعل ذلك كان بإيعاز

(١) تحرير الممالك، ٢١ وما بعدها، والتجارة بالتعليم، ٢٠٠ وما بعدها، وعلاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٤، وواقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٣٠، وقطر تتبنى قانونا لتعريب مناهجها التربوية والتعليمية ومراسلات إداراتها، وإشكاليات التعليم باللغة الإنجليزية في دول مجلس التعاون، والتجارة بالتعليم، ٢٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر: علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٥، وواقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٣٠، وتجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، ١٩٧ (هامش).

من معهد راند - قطر للسياسات، فقد كان هو الذي يدير جامعة قطر، ويعيد هيكلتها، ويغير مهمتها، ويقيم علاقات أكاديمية جديدة بينها وبين جامعات أمريكية، فضلا عما وُكل إليه من تغيير سياسات التعليم كله[1]. ودعت مؤسسة قطر جامعات أمريكية إلى فتح فروع لها في الدوحة، تدرِّس فيها برامجها في الدراسات الجامعية والدراسات العليا[2]. وأنشأت لذلك ما سمته المدينة التعليمية، وهي مدينة، تضم فروع هذه الجامعات، ولكل فرع منها استقلاله التام عن إدارة المدينة التعليمية، وعن سياسات التعليم ورقابة الأجهزة التعليمية الحكومية؛ لأنه مؤسسة مستقلة، لها إدارتها وسياستها التي لا تتقيد إلا بجامعتها في أمريكة، وإن كان بين الفروع ومؤسسة قطر مجلس استشاري مشترك، فيه نائب عن كل جامعة، مهمته تقديم النصح لإدارة الفرع في قطر، ومراجعته وتقويمه. وللفرع الحرية في مواد التدريس، والتوظيف الأكاديمي وغيره، وقبول الطلاب، وتنظيم المحاضرات والمؤتمرات، واستضافة مَن يرى من الطلاب من الدول الأجنبية، حتى الدول التي ليس بينها وبين قطر علاقات ديبلوماسية، كإسرائيل. وافتُتحت هذه الفروع كلها بعد الحادي عشر من سبتمبر، ما عدا فرع فرجينيا كومنولث، فقد افتتح ١٩٩٨، ويعطي البكالوريوس في الرسم، وتخطيط الملابس، والتخطيط المعماري الداخلي، وفن الاتصالات البصرية (الجرافيك)، ومعظم الدارسين فيه إناث. وفرع كلية طب كورنل، وأقيم عام ٢٠٠١، ويقدم برنامجا دراسيا تمهيديا مدته عامان، ثم يدرِّس الطب أربعة أعوام، وكلية شمال الأطلنطي، وافتتحت عام ٢٠٠١، وفرع جامعة تكساس، وأنشئ عام ٢٠٠٣، ويدرِّس في الطور الجامعي الأول الهندسة الكيميائية، والكهربية، والميكانيكية، والنفطية، وفرع جامعة كارنيجي ميلون، وأنشئ عام ٢٠٠٤، ويدرس علوم الحاسوب، وإدارة الأعمال،.وفرع كلية العلاقات الدولية في جامعة جورج تاون، وأنشئ عام ٢٠٠٥، ويدرس الباكالوريوس في العلاقات الدولية، وفرع جامعة نورث ويسترن شيكاغو، وبدأ عام ٢٠٠٨، ويدرس الصحافة، وجامعة كالغاري، وتعطي الباكالوريوس في التمريض، ومعهد راند للسياسات، وهو فرع

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٧ وما بعدها.

(٢) التعليم العالي في السعودية، ١٧٦ وما بعدها.

لمؤسسة راند، وكلية الدراسات الإسلامية، وتقدم الدراسات العليا للطلاب غير المتفرغين بالعربية والإنجليزية[1]. وتحمل هذه الفروع كلها اسم قطر، ويُثْبَت في الشهادة تمييزا للحاصلين عليها من هذه الفروع من الحاصلين عليها من جامعاتها في أمريكية. وهي لا تعدو برامج دراسية، أو كليات في تخصصات بعينها، ونادرا ما يكون فيها التنوع الذي يكون في برامج جامعاتها في أمريكة[2].

ولكل منها مبنى خاص به، تعطيه إياه المدينة التعليمية، وميزانية من مؤسسة قطر. والإنجليزية وحدها هي لغة التعليم والبحث والمحاضرات، وهي اللغة الرسمية في المدينة التعليمية[3]. ولعل انغماس قطر في الإنجليزية كان بفرض من أمريكة بعد الحادي عشر من سبتمبر، ولم يكن لها خيار فيه، وربما كان بمبادرة منها، لاعتقادها أنه رضا لأمريكة، أو يقرِّب إليها، أو ينجي من غضبها.

غير أن التعليم باللغة الأجنبية في قطر أخفق كما أخفق التعليم الأجنبي كله في العالم الإسلامي، ولم تنشأ منه نهضة ولا تقدم ولا استيعاب للعلم، وأثبت نحو من عقد من التعليم بالإنجليزية أنه لم يكن كما زعم لها الزاعمون، كما يبدو من عدم استطاعة أكثر الطلاب إتمام دراستهم الجامعية، لقلة معرفتهم بالإنجليزية، فضلا عما غدا ماثلا للعيان، من تبدل الهوية، واستيلاء اللغات الأجنبية على المجتمع الخليجي، على وجه جعل بعض الدول مهددا بأن يتحول من العروبة إلى انتماء آخر، تفرضه الدول المتسلطة، متذرعة بحقوق الأقليات الثقافية، لقلة سكانها، وكثرة الوافدين عليها من غير العرب، إذ يبلغون أكثر من ٩٠٪ من السكان، حتى صار من اليسير على كل دولة من الدول الكبرى الناطقة بالإنجليزية تحويل بعض هذه البلدان بلدانا ناطقة بالإنجليزية، لا علاقة لها بالعروبة، كما فعلت بريطانية بسنغافورة بعد أن أكثرت من استقدام العمال الصينيين والهنود والتايلنديين والفيليبينيين، حتى بلغوا أكثر من ٩٠٪ من السكان، ثم أجرت استفتاءً، اختارت فيه الأكثريةُ الاستقلال عن ماليزية، واصطناع الإنجليزية لغة رسمية، وأصبح أهل البلاد الأصليون من الماليزيين

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٠ وما بعدها، والجامعات الأجنبية في الخليج، ٨، والمدن التعليمية في قطر، ٣ وما بعدها.

(٢) التجارة بالتعليم، ٢٠٢.

(٣) المدن التعليمية في قطر، ٤.

المسلمين أقلية، لا شأن لها في إدارة البلاد[1].

ثم جنحت قطر إلى التعريب واستعادة الهوية منذ عام ٢٠١٢، فزادت ساعات العربية، وزاد اهتمامها بها عن ذي قبل، ووحّدت مناهج المدارس[2]، وعُرِّب التعليم في جامعة قطر في هذا العام أيضا (٢٠١٢) ما عدا بعض التخصصات العلمية والهندسية، بعد أن أُرهِقَ الطلاب، وحُبِس آلاف منهم في المنازل، لقلة معرفتهم بالإنجليزية. وتجاوز تعليم العربية التعليمَ الرسمي إلى تعليم العمال الوافدين تجنبا لتأثيرهم في العربية كما تفعل الدول الأوربية، إذ توجب على المهاجرين الذين يعملون فيها تعلُّم لغاتها الرسمية[3]. ومن آثار هذه الإفاقة أيضا «معجم الدوحة التاريخي»، والمنظمة العالمية للنهوض بالعربية[4]، وقانون الحفاظ على العربية، وهو قانون يُلْزِم الوزارات، والمؤسسات الرسمية، كالبلديات، والمؤسسات التعليمية في أطوار التعليم كلها، استعمالَ العربية في كل ما يصدر عنها من نظم، وتعليمات، ووثائق، وعقود، ومعاملات، ومراسلات، وتسميات، وبرامج، ومنشورات، وإعلانات، كما يُلْزِم الجامعات القطرية العامة، ومؤسسات التعليم العالي التي تشرف عليها الحكومة أن تدرِّس العلوم والمعارف كلها بالعربية[5]، بغض النظر عن تنفيذ ذلك وعدمه.

وكانت الإمارات العربية المتحدة أسرع دول الخليج -بعد قطر- إلى التعليم باللغة الأجنبية بعد الحادي عشر من سبتمبر، ومن أشدها إمعانا فيه، في أطوار التعليم كلها، كما يبدو من تعليم العلوم والرياضيات بالإنجليزية، منذ الصف الأول الابتدائي، بحجة إعداد التلامذة للجامعة، وسوق العمل[6]، وأطلقت إمارة أبو ظبي عام ٢٠١٠ مبادرة، سمتها «أنموذج المدرسة الجديدة»، تقوم على الازدواج اللغوي بين العربية والإنجليزية، وتُعلَّم فيها العلوم والرياضيات بالإنجليزية[7]. وتضم الإمارات فروعا دولية لجامعات من بلدان كثيرة من بلدان

(١) مستقبل العربية في سوق اللغات.

(٢) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٥.

(٣) إشكاليات التعليم باللغة الإنجليزية في دول مجلس التعاون.

(٤) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٥.

(٥) قطر تتبنى قانونا لتعريب مناهجها التربوية والتعليمية.

(٦) واقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٣٠، وعلاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٤.

(٧) تحرير الممالك، ٢٥.

العالـم، كأمريكـة، وأوسـترالية، والهنـد، وباكسـتان، وإيـران، وروسـية، وبلجيكـة، وبريطانيـة، وفرنسـة، وغيرهـا. واسـتقدمت أكاديمييـن غربييـن، وولـت بعـض الغربييـن إدارة بعـض جامعاتهـا، كجامعـة زايـد، وقـد رسـمت عـن طريـق إدارتهـا الأمريكيـة مناهـجَ تُطابق الأنموذج الشـائع فـي أمريكة؛ ليمكِّنها ذلـك من الحصول علـى الاعتمـاد الأكاديمـي من لجنة التعليـم العالي للولايات الوسـطى الأمريكيـة، وجعـل مديـر جامعـة الإمـارات -وهـي أكبـر الجامعـات الحكوميـة- أمريكيـا، وجعـل أكثـر عمـداء كلياتهـا، وأسـاتيذها غربييـن، ويتولـى كثيـر مـن الأكاديمييـن والإدارييـن الغربييـن مناصـب رفيعـة فـي المؤسسـات الحكوميـة عامـة، ووزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي خاصـة، ويشـرفون علـى الجامعـات، ويحـددون أولوياتهـا، ويديـرون ميزانياتهـا، وهـم فـي تزايـد[1]. وتقـدم هـذه المؤسسـات برامج تتـراوح بيـن سـنة وأربـع سـنين، وتشـمل الهندسـة، وعلـوم الحاسـوب، وتصميـم الأزيـاء، والإعـلان، ودراسـات البيئـة، وإدارة الأعمـال. ويجتمـع كثيـر مـن فـروع الجامعـات الأجنبيـة فـي «قريـة المعرفـة» بدبـي، وينتشـر سـائرها فـي الإمـارات الأخـرى، كالجامعـة الأمريكيـة فـي الشـارقة، وأنشـئت عـام ١٩٩٧، وليسـت فرعـا لجامعـة أمريكيـة بعينهـا، ولكنهـا نـوع من أنـواع التعاقد، فقـد عاقدت هـذه الجامعة الجامعـة الأمريكيـة فـي واشـنطن علـى أن تجعـل غالبيـة الإدارييـن مـن موظفيهـا. وفـرع جامعـة السـوربون، فـي أبـو ظبـي، وأنشـئ عـام ٢٠٠٦. وفـي عـام ٢٠١٠ بدأ فـرع جامعـة نيويـورك أبـو ظبـي، وهـو أول فـرع شـامل لجامعـة بحـث أمريكيـة كبيرة فـي الإقليـم. وفيـه عـدة محـاور أكاديميـة، كالآداب، والعلـوم، ويهتـم بمشـروعات البحـث العلمـي المتميـزة، وفيـه مركـز للحـوار. وفـي رأس الخيمـة فـرع لجامعـة بولتـن البريطانيـة، يـدرِّس الطـور الجامعـي، والدراسـات العليا في الهندسـة وإدارة الأعمـال، والحاسـوب، والفـن والتخطيـط[2]. غير أن فـروع الجامعـات العاملة في الإمـارات -علـى كثرتهـا- لـم يحصـل منهـا علـى الاعتمـاد الأكاديمـي مـن وزارة التعليـم العالـي الإماراتيـة إلا قليـل، وكان حصولهـا عليـه عـام ٢٠٠٧[3].

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٧ وما بعدها.
(٢) السابق، ٢٠٤ وما بعدها
(٣) السابق، ٢٠٦.

وتشبه الإمارات قطر في أن أقل طلابها يدرسون في هذه الجامعات، فثلث طلاب الإمارات فقط هم الذين يذهبون إلى فروع الجامعات الأجنبية، وسائرهم يذهب إلى الجامعات الحكومية[1]، وتشبهها في أن لغة الجامعات الحكومية فيها هي الإنجليزية، أما العربية، فقد تراجعت من حيث هي لغة تدريس أساسية[2]. ويقول بعض تقارير اليونسكو إن في الإمارات ٦٠٪ من فروع الجامعات الأجنبية، وبها اثنتان وثلاثون مؤسسة تعليمية من ثلاث عشرة دولة[3]، كالجامعة الأمريكية في دبي (أسست عام ١٩٩٥)[4]، ومعهد نيويورك للتقنية بأبو ظبي (أسس عام ٢٠٠٥)[5]، وجامعة نيويورك بدبي، وجامعة ولونغونغ، بدبي[6]، والجامعة البريطانية في دبي (أسست ٢٠٠٤)[7]، والجامعة الكندية بدبي (أسست عام ٢٠٠٦)[8]، وفي دبي فرع لجامعة ميتشغن، وكلية هارفرد للطب، وفرع لمدرسة لندن للإدارة[9]، والجامعة الأمريكية في الإمارات، بدبي (أسست عام ٢٠٠٦)، وكلية ستراثكلايد للأعمال، بأبو ظبي ودبي[10]، وكلية هولت، وجامعة ولاية سانت بطرسبرغ، للهندسة والاقتصاد، وجامعة مانيبال (هندية)، بدبي، وجامعة مردوخ، بدبي[11]. وفي رأس الخيمة جامعة جورج ماسون[12]. وتضم دبي وحدها خمسا وعشرين جامعة أجنبية، ويذكر بعض الإحصاءات أنها تضم عشرات من فروع الجامعات الأجنبية، تدرِّس الباكالوريوس والماجستير، وتدرس باللغة الأجنبية، كسائر الجامعات الأجنبية في الإمارات، وأكثر جامعات دبي يتغيا الربح[13]. وتنوُّع جنسيات المؤسسات

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٦.

(٢) السابق، ٢٠٨.

(٣) الجامعات الأجنبية في الدول العربية، الاتجاه المعاكس، قناة الجزيرة.

(٤) الجامعات الأجنبية في الدول العربية.

(٥) موقع المعهد: https://www.nyit.edu/abu_dhabi/about.

(٦) موقع الجامعة: https://www.uowdubai.ac.ae/about-uowd-in-arabic.

(٧) موقع الجامعة: http://buid.ac.ae/Apply-April-2018.

(٨) موقع الجامعة، https://www.cud.ac.ae/faculties-and-departments.

(٩) المدن التعليمية في قطر، ٤.

(١٠) موقع الجامعة: https://www.strath.ac.uk/business/internationalcentres/abudhabianddubai/.

(١١) موقع الجامعة: http://www.murdochdubai.ac.ae/Courses/.

(١٢) انظر موقع الجامعة على هذا الرابط: https://nyuad.nyu.edu/ar/.

(١٣) تحرير الممالك، ٢٤، والتعليم العالي في السعودية، ١٧٦، والجامعات الأجنبية في الخليج، ٨.

الأجنبية في الإمارات مساوق لكثرة المغتربين الذين يعملون فيها واحتياجاتهم. ولا تحتاج مؤسسات التعليم العالي الخاصة التي تعمل في المناطق الحرة بدبي إلى ترخيص من وزارة التعليم العالي الإماراتية، وتدخُّل الحكومة فيها محدود، ولكن الحكومة لا تعترف بشهادات شيء منها إلا ما رخَّصت له الوزارات الاتحادية في الإمارات؛ فهي مؤسسات تخدم غير الإماراتيين، في المقام الأول.

ولا تختلف هذه الجامعات في الإمارات عما قد رأينا من فروع الجامعات الأجنبية في قطر، إلا في أن التجاري منها لا تموله الحكومة. وهي -كالجامعات التي في قطر- جامعات مفتوحة، للطلاب من كل جنسية، وأكثر من يدرس فيها طلاب أجانب، أما الإماراتيون، فمن يدرسون منهم فيها كلها أقل من ألف طالب[1]. وما اطلعتُ عليه من تواريخ تأسيس هذه الجامعات في الإمارات يدل على أنه أسس بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، ما عدا الجامعة الأمريكية في دبي، والجامعة الأمريكية في الشارقة. وهي في هذا شبيهة بفروع الجامعات الأمريكية في قطر، كما أنها تشبهها في الغايات، وأن لغتها كلها هي الإنجليزية، ما عدا فرع جامعة السربون. غير أن هذه الجامعات سبقتها بزمن كليات كثيرة لإدارة الأعمال، في دول الخليج، أكثرها حكومي، كانت تدرس بالإنجليزية، وكان بعضها يجعل عمداءه غير عرب، وكليات استعملت الإنجليزية منذ البداية، ككليات في جامعات أبو ظبي ودبي والشارقة، وكليات صارت من العربية إلى الإنجليزية بعد مضي أعوام على تأسيسها، وهذا يدل على وجود سياسة عامة قديمة ترى التعليم بالإنجليزية، مع أن أنظمة التعليم في الخليج توجب أن يكون التعليم بالعربية[2]. غير أن هذا كله كان بتأثير من الحكومات والشركات الإنجليزية والأمريكية التي تتخذ الإنجليزية وسيلة للاستعمار الاقتصادي[3]. ومنذ عام ٢٠٠١م قلَّت ساعات مقررات العربية العامة التي يدرسها طلاب جامعة الإمارات العربية المتحدة إلى مقررين دراسيين، بساعتين معتمدتين لكل منهما، وزادت مقررات الإنجليزية إلى أربعة، للمقرر الأول ٣٠٠ ساعة تدريسية، و ٢٠٤ ساعات لكل من المقرر الثاني

(١) تحرير الممالك، ٢٤.
(٢) شيء من المآزق الهوياتي، ٥٤ و ٦٤
(٣) هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟، ٨٩.

والثالث والرابع. هذا إلى اثني عشر مقررا في الإنجليزية للأغراض الخاصة لعامة طلاب الجامعة، كل بحسب تخصصه، لكل مقرر ثلاث ساعات معتمدة في الأسبوع[١]. وتهيمن الإنجليزية على التخصصات كلها في الجامعات الإماراتية، ومنها كثير من مقررات العربية، فإنها تدرس بالإنجليزية[٢].

وزادت المدارس الخاصة التي تدرِّس الإنجليزية في السعودية زيادة كبيرة، وافتتحت فيها أقسام دولية، تدرس المقررات كلها -ومنها التاريخ، والجغرافية- بالإنجليزية، من الصف الأول الابتدائي، مع مادة واحدة للعربية بخمس ساعات في الأسبوع[٣]. وصدر قرار مجلس الوزراء بالموافقة على تدريس الإنجليزية في الصف السادس الابتدائي، مادة أساسية، من العام الدراسي (١٤٢٥/ ١٤٢٦هـ)، على أن يكون المدرسون من المؤهلين لتدريس الإنجليزية كما لو كانت لغتهم الأم، والتثبت من ذلك بلجنة من المختصين من وزارة التربية والتعليم، متمكنة من الإنجليزية. ونصَّ القرار على وجوب تحسين تدريس الإنجليزية في المتوسطة والثانوية، بتجديد المناهج، ورفع كفاية معلمي الإنجليزية، واستعمال الوسائل الحديثة في طرق تدريسها[٤]. غير أن القرار عُدِل عنه فيما بعد، وظلت الإنجليزية -كما كانت- تدرس من الصف الأول المتوسط، ثم صارت تدرس من الصف الرابع الابتدائي. وبدأت المدارس العالمية في السعودية عام ١٤١٩ هـ، وكانت المادة الخامسة من نظام المدارس الأجنبية الصادر عام ١٤١٨ هـ تمنع قبول الطلاب السعوديين في المدارس الأجنبية، إلا مَن تقتضي الضرورة قبولهم فيها من الطلاب القادمين من الخارج، وتَحُول أحوالهم الدراسية دون التحاقهم بالمدارس السعودية، فلوزير التربية والتعليم النظر في قبولهم مدةً، تحددها حالة كل طالب كل عام، على ألا يتجاوز ذلك ثلاثة أعوام[٥]. ثم أذنت الوزارة عام ١٤٣١ هـ لكل من أراد أن يعلِّم أبناءه في مدارس أجنبية أن يفعل[٦].

---

(١) اتجاهات الشباب.
(٢) واقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٣٠.
(٣) اتجاهات الشباب.
(٤) الموضع السابق.
(٥) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ٤٥.
(٦) المدارس العالمية تلقى إقبالا متزايدا من طلاب السعودية.

وذكر وزير التربية والتعليم السابق، المرحوم الدكتور محمد أحمد الرشيد أن في السعودية أكثر من ستين مدرسة أجنبية[1]. وقد أجاز نظام المدارس الخاصة أن تدرس المقررات كلها بلغة أجنبية ما عدا العربية والعلوم الشرعية[2]. وسمحت الوزارة في ١٧ من ربيع الأول عام ١٤٢٨ هـ للمدارس الخاصة باختيار مناهجها ولغة التعليم التي تعلِّم بها، وفي ١٤ من ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ أعلنَ وزير التربية والتعليم نية الوزارة تدريس مقررات العلوم الطبيعية في المدارس الحكومية بالإنجليزية أو الفرنسية؛ لكون اللغتين أقرب إلى المادتين من العربية، غير أن الوزارة تراجعت عن ذلك، وبقيت العربية هي لغة تدريس المقررات كلها، وإنما تدرس الإنجليزية لغةً أجنبية، ولا يدرَّس بها. وفي عام ٢٠٠٥ أصدرت الحكومة لستين مستثمرا رُخَص إنشاء كليات خاصة، وما افتتح من هذه الكليات يدرِّس كله بالإنجليزية. وفي عام ٢٠٠٦ سمحت وزارة التعليم العالي للجامعات الأجنبية بفتح فروع لها في البلد، ولكن يبدو أنه إلى الآن لم يُفتَح شيء منها، وأنها فضَّلت أن تستعيض عن ذلك بإقامة اشتراك بين بعض جامعاتها وجامعات غير عربية، من أمريكة، وماليزية، وباكستان[3].

وكان نظام التعليم في الكويت في البدايات الأولى للتعليم، كالنظام السعودي، لا يسمح للطلاب الكويتيين والعرب المقيمين بالكويت بالدراسة في المدارس الأجنبية، ثم سمح بها، ولاسيما إذا كانت المدارس أمريكية أو بريطانية أو فرنسية[4]. وتضم جامعة الكويت الآن كثيرا من الأكاديميين الأمريكيين والبريطانيين الذين يدرِّسون فيها، ولذلك توصف -أحيانا- بأنها من الجامعات العربية الموالية للغرب[5]. وفيها جامعات أجنبية، منها الجامعة الأميركية في الكويت، وأسست عام ١٩٩٩، وتضم كلية العلوم والفنون، وكلية الإدارة، وإدارة الأعمال، وتعطي شهادة البكالوريوس في الإدارة، والتمويل، والتسويق، والمحاسبة، والإعلام، والاتصالات، والاقتصاد، والدراسات الدولية، والتاريخ،

---

(١) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية، ٥٠ وما بعدها.
(٢) واقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٢٩.
(٣) التجارة بالتعليم، ٢٠٩.
(٤) مظاهر التعريب في جامعة الكويت، ٢٥.
(٥) التجارة بالتعليم، ٢١٣.

وعلم الاجتماع، واللغات، والآداب، وعلوم الحاسب[١]. والجامعة الأمريكية الكويتية، وافتتحت عام ٢٠٠٤، وتدرِّس إدارة الأعمال، والاقتصاد، والإعلام، والاتصال، وعلوم الحاسوب، وجامعة الشرق الأوسط الأمريكية، وافتتحت عام ٢٠٠٨، وتدرِّس إدارة الأعمال، والطب، والهندسة، والتكنولوجيا، وغيرها. وفيها -إلى ذلك- كليات، ينتسب معظمها إلى مؤسسات تعليم أوسترالية[٢].

وتشجع عُمان مؤسسات التعليم العالي الخاصة منذ عام ١٩٩٥، وقد أسفر ذلك عن إنشاء كثير منها بأَخَرة، وأكثرها ينتسب إلى مؤسسات تعليمية أوربية وأسترالية وأمريكية، أو بينه وبينها تعاون. واللغة المستعملة فيها هي الإنجليزية. ومنها الجامعة العمانية الألمانية للتنكنولوجيا، وافتتحت عام ٢٠٠٧، وتعطي درجة في الهندسة الميكانيكية، وتقنية المعلومات، وبينها وبين RWTH Aachen تعاون[٣].

وبدأت علاقة البحرين بالجامعات ومؤسسات التعليم العالي الأجنبية ببداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فأقامت جامعة AMA، ومقرها الفلبين، فرعا لها في المنامة عام ٢٠٠٢، ويقدم برامج دراسية في الطور الجامعي والدراسات العليا، في علوم الحاسوب، والدراسات الدولية، والهندسة. وتدير الكلية الملكية للجراحة في إيرلندة منذ عام ٢٠٠٤ المؤسسة البحرينية الشريكة، والجامعة البحرينية للطب، وفي عام ٢٠٠٣ أقام معهد نيويورك للتقنية فرعا له في البحرين، وفي عام ٢٠٠٥ أقيم فرع آخر، يقدم برامج في إدارة الأعمال، وعلوم الحاسوب، والتخطيط الداخلي[٤]. هذا إلى ما قد علمنا من الجامعات الخاصة التي تدرس بالإنجليزية، كجامعة نيويورك، وجامعة البحرين الطبية، والجامعة الملكية للبنات، وجامعة ديلمون للعلوم والتكنولوجيا.

وفي عام ١٩٩٦ أقيمت في مصر أربع جامعات تجارية دفعة واحدة، ثم زادت الجامعات الخاصة بسرعة شديدة، فبلغت عام ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧، عشرا، وبلغت الجامعات الأجنبية سبعا، فصار مجموع الجامعات الخاصة، المصري منها

---

(١) الجامعات الأجنبية في الخليج، ٨.
(٢) التجارة بالتعليم، ٢١٣.
(٣) السابق، ٢١٢.
(٤) السابق، ٢١٣.

والأجنبي، سبع عشرة جامعة، ولم يكن في مصر إلى عام ١٩٩٦ جامعة خاصة سوى الجامعة الأمريكية، وأنشئت عام ١٩١٩[١]، وجامعة سنغور للدراسات العليا، وأنشئت عام ١٩٨٩. وبدأ التوجه نحو إقامة الجامعات الأجنبية عام ٢٠٠٢، فأنشئت الجامعة الفرنسية والألمانية عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤، وأنشئ فرعان لهما في ضاحية ٦ أكتوبر، والتجمع الخامس بمدينة نصر، وفي عام ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦ أقيمت جامعتان أخريان، هما الجامعة البريطانية، وجامعة الأهرام الكندية، ثم الجامعة المصرية الروسية عام ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨، وتم التفاوض على إنشاء جامعة صينية. وفي عام ٢٠١٢ أعلن أن الجامعة التكنولوجية في برلين سوف يبدأ أول فرع دولي لها في الجونة على البحر الأحمر، وسيكون الاشتراك بينها وبين أوراسكم للفنادق والتنمية، وهي من أكبر شركات المقاولة في مصر. وستكون برامجها محلية ودولية، ويتاح للطلبة الدوليين من العالم كله الدراسة فيها. وقد استمر التوسع في إنشاء الجامعات الخاصة، مصرية كانت أو أجنبية، حتى ساوت في السنين الأخيرة الجامعات الحكومية في العدد، وإن لم تساوها في عدد الطلاب. وبعض الجامعات التابعة لدول غير ناطقة بالإنجليزية يدرِّس بالإنجليزية، على خلاف ما يدل عليه اسمها، كالجامعة الألمانية، وتدرِّس الجامعة الفرنسية بالقاهرة مواد العولمة بالإنجليزية، ولغة العمل فيها العربية، ولغة الثقافة والمعرفة الفرانكفونية الفرنسية[٢]. وأغلب المدارس والجامعات الخاصة في مصر تجعل الإنجليزية لغتها، وربما جعلتها الفرنسية[٣]. وتملك الجامعاتِ الخاصة غير الأجنبية أسرٌ مصرية ثرية، ورجال أعمال ومؤسسات محلية كبيرة، مثل مؤسسة الأهرام، فإنها تملك الجامعة الكندية. وكان إنشاء هذه الجامعات كلها أثرا من آثار الحادي عشر من سبتمبر[٤]. أما مدارس اللغات، وهي التي تدرس باللغات الأجنبية، فبلغت ٥٥٧ مدرسة، وكانت قبل عشر سنين لا تزيد على ١٩٥ مدرسة[٥]، ثم أنشأت الحكومة مدارس لغات، تنافس

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢١٨.

(٢) السابق، ٢٢٠.

(٣) السابق، ٢١٦،

(٤) السابق، ٢١٨، وما بعدها، والتقرير العربي الرابع للتنمية، ١٩٩ وما بعدها، واللغة العربية وهوية الأمة.

(٥) اتجاهات الشباب.

بها مدارس اللغات الخاصة؛ لأن رسومها أقل شيئا. ثم فُتِح الباب للمدارس الدولية، وهي لا تتقيد بمناهج الوزارة، وتدريس العربية فيها والمواد الوطنية ضعيف. ولها نظام خاص في الفصول والعطل، ولها نظامان للتعليم الثانوي: الدبلوما الأمريكي، والنظام البريطاني، فضلا عن التعليمين الألماني والفرنسي وغيرهما(١).

وفي الأردن ثلاث عشرة جامعة خاصة، وأربع جامعات مرخص لها. وهي تدرِّس باللغة الأجنبية، ونشأت الجامعات الأجنبية فيها متأخرة شيئا، كالجامعة الأردنية الألمانية، ومعهد نيويورك للتكنولوجيا(٢). هذا إلى جامعات إلكترونية أجنبية، تعلم عن بعد، في الوطن العربي، كجامعة فنكس الأمريكية، وهي أكبر جامعة أمريكية تدرس بالشبكة الدولية، وجامعة إنتركونتيننتال الأمريكية، ولكل من الجامعتين مقر في دبي. ولجامعة Agence Universitaire Francophonie مقر في شبكات دولية في تونس، والمغرب، والجزائر، ولبنان، وسورية، ومصر، وأنشأ الاتحاد الأوربي جامعة فرضية متوسطية، تربط بين جامعات في أوربة ولبنان، وفلسطين، ومصر، والأردن. وللجامعتين صلاحية منح درجات أكاديمية. وجامعة آسية الإلكترونية، ومن المفروض أن يكون قد بدأ فرع لها في البحرين بإدارة ماليزية، وآخر في السعودية(٣).

ويستوقف الباحث من أمر التعليم الأجنبي في الوطن العربي أمور:

أولها- أن التربية يجب أن تكون موافقةً روح الأمة، وماضيها التاريخي والثقافي، وواقعها الاجتماعي، ولغتها، ونظرتها إلى العالم، ورأيها في نفسها، وغاياتها، وحاجاتها، وفي هذا الميدان أكثر من كل ميدان آخر لا يكون التقليد إلا عقيما وقاتلا؛ لأن التربية إما أن تجنِّد مجموع الحضارة القومية، وإما أن تجازف بها(٤). واستيراد المناهج التربوية من أمم أخرى، والتعليم بلغاتها مجازفة بالحضارة القومية، وتنكُّب لها، لا يمكن أن تترتب عليه تربية سوية، ولا نفع حقيقي. وهذه الدول تجاوزت استيراد المناهج، والنظرة الحضارية،

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢١٧.

(٢) السابق، ٢٢٣.

(٣) التجارة بالتعليم في الوطن العربي، ١٧٧ وما بعدها.

(٤) التعليم في المغرب العربي، ٨٣ وما بعدها.

والمضمون الثقافي للتعليم الأجنبي إلى افتتاح فروع من جامعات أجنبية، بأساتيذها، كأنها ترى أن ذلك يمكن أن يثمر في غير البلدان التي استُورِدت منها، وكأن الدول المستورِدة ليست لها خصوصية حضارية، ولا فلسفة، ولا نظرة إلى الكون والحياة، تباين ما عند الدول التي استوردت تعليمها. وفروع الجامعات الأجنبية ليست بأكثر من كليات مستوردة بأغلفتها من بلدان أخرى، وعلاقتها بمن استوردها لا تزيد على الإتفاق عليها، والإقامة بأرضها، أي إن الدول التي تستضيفها تمول تعليما يخدم غيرها، أما هي، فليس لها فلسفة، ولا غايات محددة في الحياة، تريد لتبلغها، وآية ذلك أن تَكِل تعليمها إلى غيرها من الحضانة إلى التعليم العالي كما يوكل إصلاح الآلة إلى الخبير بها، كأنما تقول له: ما أدري ما أريد، ولا ما ينبغي أن أريد، فاصنع لي ما ينبغي أن أريد، وكيْف أبْلغه، فأنت الأعقل، والأحكم، والأعلم، أما أنا، فضيف في هذا العالم. وهذا ونحوه لا يوطن المعرفة، وليس مما يكون في الدول المستقلة، وليس في الدول المتقدمة دولة تفعله؛ لأنه لا ينتهي إلى شيء. ولهذا عدَّ بعض الباحثين الغربيين هذه الفروع فقاقيع تعليم دولية، مكلِّفة، ومنفصلة عن المشهد وعن التعليم الوطني، وقال إنها أشبه ما تكون بمؤسسات، غرضها اصطناع سفراء لأمريكة، يحملون رسالتها، ويجمِّلون صورتها في عيون العرب والعالم، وإقناع أمريكة بأن الدولة التي تستضيفها حداثية، ومنفتحة، وغير إرهابية، ومستعدة لأن تفعل ما تُؤمَر[1]. ومن غير المعهود أن تكل الأمم أمرها إلى مؤسسات أجنبية، تهندس تعليمها من الحضانة إلى التعليم العالي، وتصطنع المستشارين والخبراء الأجانب الذين يصوغون النشء على ما يريد الاستعمار أن يكونوا عليه، وأن تكل إليهم إدارة جامعاتها. ولقد كان ندْب الأساتيذ الأمريكيين والأوربيين للتدريس في الجامعات الحكومية في هذه الدول، وجعل إدارتها إليهم، ووكْل التخطيط لها وهيكلتها، ووضع مناهجها إلى مؤسسات أمريكية يغني عن افتتاح فروع جامعات أجنبية؛ لأن نتيجة ما يفعل هؤلاء لن تختلف عن نتيجة ما ستفعل الفروع، وإذا كان اصطناع هذه الدول للمنهج والفلسفة الأمريكيين في التعليم الجامعي مرادين لذاتهما، فيمكن أن يُصطنعا في الجامعات الحكومية؛ فيغني

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٣، وتحرير الممالك، ٢٠.

اصطناعهما عن استيراد تلك الفروع، ولا سيما أن الجامعات الحكومية تضم من الطلاب الوطنيين ما لا تضم الفروع، وليس للدول التي تنفق عليها مصلحة في تعليم من يتعلمون فيها من غير أبنائها، وإنما النفع لأمريكة وحدها، فهي التي تجلبهم، وتدرسهم مناهجها، بلغتها، في جامعاتها، وإن كانت خارج حدودها، فلن يكون ولاؤهم إلا لها، ولا انتماؤهم إلا إلى حضارتها، كما لم يتأثروا إلا بثقافتها، أما الدول العربية التي تؤويها وتنفق عليها، فليس لها منها إلا الغرم وحده، أما الغنم، فلغيرها.

ثانيها- أن أقل من يستفيد من فروع هذه الجامعات أبناء الدول التي استقدمتها؛ إذ لا يدرس فيها من القطريين -مثلا- إلا نحو من ثلثهم (ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ من ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠)، معظمهم من الإناث[1]، ويرى بعض الباحثين أن من التحقوا بالمدينة التعليمية ١٤٠٠ طالب، سبعمائة منهم فقط قطريون، أي نصفهم، وإنها لا تقبل من خريجي الثانويات القطرية إلا ما بين ١٪ و ٢٪، وهذا لا يلائم عدد خريجي الثانوية القطرية، ولا الأموال التي تنفق قطر على هذه الفروع، ولا سيما إذا ووزنت بما تنفق على جامعة قطر، وسبب ذلك أن تخطيط المدينة لا يسمح بقبول أكثر من هذا العدد ونحوه، وكذلك سائر الجامعات الأجنبية في الخليج العربي، لا يكاد يبلغ طلابها ألفين، على كثرة ما ينفق عليها من الأموال، وهي لم تُرَد للقطريين المتوسطين، وإنما أريدت لـ «المجتمع الدولي»، أي إن غاياتها ديبلوماسية، لا تعليمية. فهي مخالفة للمؤسسات التعليمية الوطنية التي يراد بها أبناء البلد في المقام الأول، وتعليمهم، وإعدادهم لقيادته وتقدمه في مجالات الحياة كلها[2]. وهذا يخالف وثيقة إنشاء المدينة التعليمية التي أصدرها أمير قطر، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني: «رغبةً منا في دعم النهضة العلمية في دولة قطر وإتاحة سبل العلم والمعرفة لإبنائنا المواطنين كافة»، كما يخالف المادة الثانية من نظام مؤسسة قطر الأساسي: «تهدف المؤسسة إلى المساهمة في دعم النهضة الحضارية وتحقيق التنمية الشاملة في البلاد، وذلك بتوفير سبل

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٠٣.

(٢) تحرير الممالك، ٢٠.

العلم والمعرفة، وإتاحة مجالات البحث العلمي والإبداع لجميع أبنائها»[1].

وتشبه فروع الجامعات الأجنبية في الإمارات العربية فروعَ الجامعات الأجنبية في قطر: في قلة الطلاب، واصطناع الإنجليزية في التعليم، واختلاط الرجال والنساء. فقد قال رئيس جامعة نيويورك بالإمارات إن نسبة الإماراتيين في الجامعة ضئيلة، وإنه سيعهد إلى الخبراء التربويين في أنحاء العالم بأن يرشحوا عددا من طلبةِ أفضلِ المدارس الثانوية للاختيار منهم. وقال إن ما بين ٤٠ و٥٠٪ من الطلبة سيكونون من الأمريكيين[2]. وقد أغلق بعض الجامعات فروعه في الخليج؛ لأنه لم يجد من يكفي من الطلبة المؤهلين للدراسة فيه[3].

وليس في فروع الجامعات الأجنبية بقطر من الأساتيذ القطريين إلا واحد، مع أنه قد أتى على تأسيس المدينة التعليمية أكثر من عشرة أعوام، ومن أسباب ذلك أنها تشترط أن يكون العاملون فيها من أساتيذ جامعاتها في أمريكة، وأن يخضعوا لشروط القبول فيها. وليس في هذه الكليات طريقة واضحة، ولا برامج تطوير، تتيح للقطري أن يعمل فيها، هذا إلى ضعف العلاقة بينها وبين المجتمع القطري، فلا يكاد يعرفها، ولا يشير الإعلام القطري إليها من حيث هي مؤسسة مستقلة، وإنما يشير أحيانا إلى كلياتها إشارة عامة، على عكس جامعة قطر، والتعليم العام الذي يشرف عليه المجلس الأعلى للتعليم، فإن شؤونه تناقش، وتبين المآخذ عليه في الصحافة والإعلام[4]. وهذا يعني أن هذه الكليات وما شاكلها ما أُهِلَّ بها للعلم ولا التنمية، وأن ما يُنفق عليها من المال هدية لأمريكة، تَجلب بها من دول العالم من تصنعهم على عينها، لتُخْدِمهم سياستها في العالم، ولا سيما الوطن العربي، ولا نفع للمنفق في ذلك. وممن يدرسون فيها طلاب أمريكيون، من المتوقع أن تكون رسوم الدراسة التي يدفعون في بلادهم أقل بكثير مما يدفعون في هذه إلا أن يكونوا مُعْفَيْنَ منها، أو تدفعها عنهم الدولة التي تنفق عليها، ومما يرجح ذلك أن منزلة جامعاتها العلمية والأكاديمية في أمريكة خير منها في كل شيء، فتجشُّم الطلاب الأمريكيين الغربة، ودفع التكاليف

---

(١) المدن التعليمية في قطر، ٦.

(٢) التجارة بالتعليم، ٢٤٠ وما بعدها.

(٣) الموضع السابق.

(٤) المدن التعليمية في قطر، ٤ وما بعدها.

الباهظة، فيما فائدته العلمية والأكاديمية أقل، أمر مستبعد، إلا أن تكون لهم مهمة رسمية غير معلنة، كأن يختلطوا بالطلاب «المستوردين»، ليوجهوهم، أو يصطنعوهم، أو يستميلوهم؛ فإن ذلك يسوغ إعفاءهم، أو الدفع عنهم، كما يفسر إيثارهم الذي هو أدنى من الدراسة على الذي هو خير. وإذا صح أن ما بين ٤٠ و ٥٠٪ من طلاب بعض الفروع أمريكيون، وصح أنهم يعفون من رسوم الدراسة، تبين أنها جامعات أنشئت لخدمة السياسة الأمريكية، ولا نفع فيها لمن ينفق عليها.

ثالثها- أن الأموال التي تدفع هذه الدول للجامعات الأمريكية لقاء فتح هذه الفروع، على قلة غنائها، أمر فيه غرابة، ويعسر فهمه، إذا وُزنت الأشياء بميزان المنفعة، ولم يُقدَّر أن لها وجها غير الذي يظهر. فليس في الأرض بلد قدَّم مثلا للسخاء المفرط كالذي قدمته قطر في الإنفاق على هذه الفروع، فقد تحملت نفقات إداراتها، من أجور، ورواتب جزيلة، وتكاليف إسكان الأساتيذ، وسياراتهم، وانتقالهم، وجوالاتهم، ووهبت لهم المزايا الضريبية الضخمة، وهيأت المدارس الأجنبية لأبنائهم، والحرية الكاملة في تحويل رواتبهم إلى الخارج، وتهدي -فوق ذلك- إلى خزائن الجامعات الأمريكية ملايين الدولارات، وتموِّل مشاريعها البحثية لقاءَ ما تسمح به من إقامة هذه الفروع. وكذلك تفعل الإمارات العربية، فقد تعهدت -مثلا- لجامعة نيويورك بأن تعوضها ما تفقد، إذا هي قبلت بفتح فرع لها في الإمارات، فإذا ذهب ١٠٪ -مثلا- من أساتيذ قسم الفيزياء إلى فرع الإمارات، دفعت له الإمارات من المال ما يوسع به القسم بمقدار ١٠٪. وأهدت إليها هدايا بخمسين مليون دولار، تسلمتها عند توقيع الاتفاق في نوفمبر عام ٢٠٠٧. وذكر المسؤولون في جامعة السوربون أن فرعها في أبو ظبي بيع للدولة التي قدَّمت لها أكبر عرض مغر. هذا إلى الرسوم الكبيرة التي يدفعها الطلاب في هذه الفروع، وتدفعها الحكومات الخليجية عن مواطنيها -أحيانا- كما تفعل قطر، وهي تذهب إلى الجامعات الأمريكية، لا إلى الحكومات الخليجية. مع أن كثيرا من الجامعات التي أقامت فروعا لها في أماكن أخرى من العالم تعتمد على الرسوم التي

يدفعها الطلاب في تسيير فروعها[1]. ويبدو أن ضعف مسوغات هذا العمل هو الذي حمل بعض الأكاديميين الأمريكيين على تفسيره برغبة الدول التي تفعله في استمالة الأكاديميين الأمريكيين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط إلى معاداة إسرائيل وموالاة العرب[2]، وهو أمر تُبَعِّده علاقات هذه الدول السرية بإسرائيل.

والأموال التي تنفق على فروع الجامعات الأجنبية في الخليج لا تلائم الثمرة التي كانت ترجى منها؛ لما يواجهها من أمور، تجعل من غير المتوقع أن تكون قادرة على المنافسة العالمية، على ما تؤكد الحكومات الخليجية من أن الغرض من استيرادها أن يكون التعليم فيها مماثلا للتعليم في جامعاتها في بلادها. غير أن الحقيقة أنها لا ترقى بحال إلى منزلة جامعاتها الأم العلمية ولا الأكاديمية، فمن النادر أن يَقبل الأساتيذ المتميِّزون في الجامعات الأمريكية الانتقال إلى فروعها في الخليج؛ فتعتمد على الأساتيذ الطائرين، وهم الذين يزورون الفروع مدة قصيرة بين ثلاثة أسابيع وأربعة، لإلقاء المحاضرات. وإنما زهَّدهم فيها أن ليست في الفروع دراسات عليا، ولا مجال جادٌّ للبحث العلمي؛ فلا تجذب الأستاذ الأمريكي الحريص على الاستقرار الوظيفي. ويتضح ذلك نوع اتضاح إذا عُلِمَ أن الذين انتقلوا إلى قطر -مثلا- اثنا عشر أستاذا، وما بين ثلاثين وأربعين منهم إنما جاؤوها أسبوعين فقط، ونحو من ١٥٪ من المحاضرات يقدم بالفديو كونفرنس. وكثير ممن يعملون في الفروع قد اقتربت نهاية مسارهم الوظيفي، وكثير منهم لا ينتمون إلى الجامعة الأم، وربما لا يكونون أمريكيين، وإنما هم من جنسيات أخرى، ولكنهم درسوا في أمريكة أو غيرها، وتسميهم الجامعة في الفروع لمدة قصيرة. وبسبب هذا لم تكن واحدة من كليات هذه الفروع تضاهئ الكلية التي تناظرها في الجامعة الأم، لا في أمريكة ولا في غيرها من الدول، كالهند، وسنغافورة. ولما تخرجت الدفعة الأولى من كلية كورنل بقطر كان يقال: هل تحصيل خريجيها كتحصيل خريجي الجامعة الأم؟ ومما يدل على أن الإجابة كانت بالنفي -فوق أن النفي هو غرض السؤال- أن مِنَ المعتاد أن

(١) التجارة بالتعليم، ٢٣٢ وما بعدها.
(٢) السابق، ٢٣٤.

يقدِّم خريجو كورنل في نيويورك طلبات للتدريب إلى عشرين أو ثلاثين برنامجا ليضمنوا الحصول على فرصة للتدريب في واحد منها، أما خريجو فرع قطر، فيقدمون طلبا إلى أكثر من ستين ليضمنوا موافقة واحد منها. وأبان رئيس جامعة قطر عما يدل على ذلك، وعلى عدم الرضا عن ثمرة هذه الفروع وأدائها، وأنها تسعى إلى الربح وحده، فقال: إن جامعات كثيرة ذات أسماء كبيرة في الخارج، إذا جاءت الخليج كان التعليم فيها ضعيفا جدا[1]. وفي دراسة، شملت ستا وخمسين جامعة من الجامعات التي تعتمد المثل الأمريكي في الوطن العربي، في ثلاثة عشر بلدا عربيا، ومسحٍ، شمل مائة أستاذ في هذه الجامعات والكليات أن ثلاث جامعات فقط هي التي تمثل التعليم الجامعي في أمريكة، هي الجامعة الأمريكية في بيروت، والجامعة اللبنانية الأمريكية، والجامعة الأمريكية بالقاهرة[2]. وهي كلها قديمة، وقد أنشئت في أول القرن العشرين أو قبله. ومعنى ذلك أن سائر فروع الجامعات الأمريكية لا تمثل التعليم الأمريكي. غير أن ذلك لا يعني أن الجامعات الثلاث مثالية، ولا أنها مطابقة للجامعات الأمريكية، ولا أن التعليم فيها مطابق للتعليم الجيد في أمريكة، فإن الباحثين الأمريكيين يقولون إنها لا تعمل بالنظام الأمريكي، وإن القرارات فيها بيد الإدارة، ولا تعتد بأساتيذها، وإن الحكومات العربية تفرض عليها بعض القيود والسياسات، وإن الأساتيذ في ضغط كبير، يحول بينهم وبين البحث العلمي، وتحضير المواد العلمية التي يدرِّسون تحضيرا جيدا، ولا تهتم إدارة الجامعة بمتابعة تحصيل الأساتيذ العلمي. أما فروع الجامعات، كفرع جامعة «جورج تاون» في قطر، فتواجه كثيرا من الصعوبات، أهمها عدم قدرتها على التكيف مع ثقافة المجتمعات العربية دون خسارة خصوصياتها واستقلالها؛ وهذا يجعلها دون منزلتها الأكاديمية في بلادها[3]. وهي كلها تفتقر إلى معايير الإدارة الناجحة، والحياة الطلابية الفاعلة، فضلا عن القصور في مقاييس الجودة التعليمية، وتعاني عدم استقرار إداري، سيكون سبب اصطناع سياسات غير ناجحة، كالإخفاق في استمالة أساتيذ

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٣٦ وما بعدها، والتجارة بالتعليم في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، ص٢٢.
(٢) التجارة بالتعليم، ٢٤٢.
(٣) ملف تخصصي: الجامعات الأمريكية مهمات في الشرق الأوسط، ٢٨.

وعلماء ذوي كفاية عالية[1]. وجل ما تدرَّس من التخصصات ثانوي، كإدارة الأعمال، والعلوم الهندسية، وعلوم الحاسوب، والتقنية، والرسم، وتفصيل الملابس، والعمارة الداخلية (الديكور)، وفن الاتصالات البصرية، والعلاقات الدولية، والصحافة. وإن كان ما يسمى مشروع المدينة التعليمية بقطر يقول إنه يجلب التخصصات البارزة في كل جامعة من الجامعات التي تضم المدينة، وهي من أفضل التخصصات التي تقدمها الجامعة الأم[2]. غير أن ذلك لا يعني أن تلك التخصصات لها الأولوية في قطر، ولا في غيرها من الدول العربية، فجلب فرع من جامعة أجنبية، ليدرس فنون العمارة الداخلية، وفن الاتصالات البصرية، والأزياء، والصحافة والإعلام، وإدارة الأعمال، والسياسة الخارجية، في البلاد العربية، وإن كان مبدعا فيها، أشبه بالترف الأكاديمي في بلدان لم تستوف الضروريات من العلوم، وقد كان في وسع قطر، لو أرادت، أن تجلب من جامعات أخرى أهم ما فيها من التخصصات التي تحتاج إليها. غير أن الجامعات وسياسة بلدانها لا ترغب في ذلك، والتخصصات التي جلبتها ليست بأكثر من طُعم تَصطاد به من تريد اصطناعهم من طلاب العالم، لتوظيفهم في مشروعها في صياغة عقول الشعوب وتوجيهها في تبلُّغ ما تريد من بلادها. ويصدق هذا أيضا على الجامعة الأمريكية في القاهرة، على قدمها، فقد بدأت بستِّ كليات: كلية الآداب والعلوم، ومدرسة الدراسات الشرقية التي انقسمت إلى قسمين: أحدهما لغوي، والآخر لاهوتي لدراسة الأديان، والثالث قسم الدراسات الممتدة المهتمة بالدراسات الاجتماعية، وكلية التربية، ومركز البحث الاجتماعي، وغرضه جمع المعلومات عن أحوال مصر وأقطار الشرق العربي الاجتماعية، وتحليلها، ومعهد اللغة الإنجليزية[3]. من أجل ذلك كان حرص الدول العربية على فروعٍ، هذه حالها، وحقيقتها، وتحصيلُ خريجيها، وإنفاقُ ما تنفق عليها من المال، ليس بذي مسوغ.

وإذا عُرِفت حقيقة القضية، وحملت على ما ينبغي أن تحمل عليه، تبين أن

---

(١) الجامعات الأجنبية في الدول العربية، وما المهمة الجديدة للجامعات الأمريكية في الوطن العربي.
(٢) المدن التعليمية في قطر، ٣ وما بعدها.
(٣) ملف تخصصي، ٣٢ وما بعدها.

لوجود هذه الفروع غايات سياسية بحتا، وأنها لا تختلف عن بعض الجامعات والمدارس الأجنبية التي أنشئت بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهي -في مجملها- لا تخرج عن التنصير، واصطناع الصنائع للدول الأجنبية التي تبنيها أو تمولها، أو تقوم عليها، تقود بهم البلدان، وتُحْدِث ما تريد. ولم يَخْفَ ما تريد على كثير من مفكري العرب، فإن بينهم ما يشبه الإجماع على أن هذا الخليط من الجامعات سوف تنتج كثيرا من الإشكالات الثقافية، وأن وراءها هيمنة فكرية، وحضارة رأسمالية، وسيطرة اقتصادية[1]. وقد أوجز هوارد ويلس، رئيس الجامعة الأمريكية الأسبق في بيروت غاية هذه المدارس والجامعات في قوله: «التعليم في مدارسنا هو الطريق الصحيح لزلزلة عقائد المسلمين، وانتزاعهم من قبضة الإسلام»، وقال رئيسها الآخر، بنروز إنها أثمن الوسائل «التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان»[2]، أي إنها كانت خير الوسائل التي توسلوا بها إلى ذلك. وأفصحت عنها التقارير الأمريكية المكتوبة عن حال الدول العربية في المشرق العربي، ونظرتها إلى أمريكة ورئيسها منذ احتلال العراق وأفغانستان، فقد نشر «تقرير واشنطن» في عدده ذي الرقم ١٠٢ في ٣١/ ٣/ ٢٠٠٧ على موقعه تقريرا، عنوانه «مهمة جديدة للجامعات الأمريكية في العالم العربي»، عن أثر الجامعات الأمريكية في نشر السياسات الأمريكية في العرب، وما تريد منها من تحسين صورتها التي تزداد سوءا في الشعوب الإسلامية منذ الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وإعلانها الحرب على كل ما هو إسلامي. ومما ورد فيه خبر مشاركة رؤساء الجامعات الأمريكية في الوطن العربي في لقاءات وندوات بواشنطن للاتفاق على كيفية تطوير عمل الجامعات لتعين على بلوغ أغراضٍ أمريكية بعينها في الوطن العربي، وكانت أهم لقاءاتهم الفكرية والإعلامية مع وزيرة الخارجية الأمريكية حينئذ، كوندوليزا رايس ومساعدتها، دينا باول، وندوة في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، عن محاولة السيطرة على تنامي مشاعر العداء والكراهية لأمريكة في معظم دول العالم، ولا سيما الوطن العربي منذ احتلالها العراق.

(١) الجامعات الأجنبية في الدول العربية.

(٢) التعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي.

وفي هذه الندوة علَّق رؤساء تلك الجامعات آمالهم على خريجيها الذين يعرفون «القيم والمبادئ الأمريكية» ويقدُرونها، وإن خالفوا بعض سياساتها، فهم الذين يمكن أن يبنوا جسور التواصل بينها وبين العرب، ويحاوروها نائبين عنها وعن أوطانهم. كما علَّقوا الأمل على ما تقدم الجامعات من مناهج وطرق تدريس، وما تصدر من بحوث ودراسات في تغيير التفكير الشائع في العالم العربي[1].

وأفصح عن أغراضها كلُّ من تحدَّث عنها من مديري هذه الجامعات، ومن كبار الساسة الأمريكيين، وليس فيهم من قال إن لها غرضا علميا صرفا، ولا قال إن تقدم العرب وامتلاكهم التقنية، تصيير بلادهم دولا صناعية مما فكرت فيه يوما، ولا في واحدة من الجامعات وفروع الجامعات التي افتتحوا في الوطن العربي ما يدل على أنهم أرادوا شيئا من ذلك، إذ ليس فيها ما يدرِّس تخصصا، يعين عليه، كالتخصصات النووية، والهندسة العسكرية، وهندسة الإلكترونيات الدقيقة، وصناعة الطائرات، ومعالجة الأقمار الفضائية، وإنما تدرس تخصصات ثانوية، وبعضها قليل الأهمية[2]، وليس فيها ما يَسُوغ أن يصرف فيه من المال ما قد رأينا، وهي على السخرية من العرب واستصغار عقولهم أدل منها على كل شيء آخر، وإن كان المليم في ذلك من جلبها مختارا. وأجمع مفكرو العرب على أنها أدوات للتغيير الاجتماعي، في الأمور المهمة من حياة العرب الثقافية، ولتحسين صورة أمريكة، منذ استيقنت أن شعبيتها في الوطن العربي لم تكن يوما أشدَّ تدنياً مما هي عليه، وأن رئيسها صار -لأول مرة- ممقوتاً عند العرب أكثر من رئيس وزراء إسرائيل[3]، واصطناعِ شباب العرب سفراء لها، ورسلا إلى بلادهم بما تحمِّلهم من قيم وأفكار وخطط، تظن أنها تُنسي العرب ما فعلت بهم، ويجعلهم سَلَما لها، مطيعين لها فيما تريد بهم، وهو ضرب آخر من ضروب محو الذاكرة العربية مما علق بها من أفعال أمريكة. ومما يصدق ذلك أن الجيش الأميركي أنشأ جامعة أميركية في العراق، وأخرى في أفغانستان بعد احتلالهما[4]، وليس التعليم مما يعني الجيوش، وإنما يعنيها الغزو والقتال،

(١) ملف تخصصي، ٣٠ وما بعدها.

(٢) الجامعات الأجنبية في الخليج.

(٣) ملف تخصصي، ٢٠.

(٤) الجامعات الأجنبية في الدول العربية.

والسيطرة والاحتلال، ولما كانت الجامعات من وسائل احتلال العقول والسيطرة عليها كان افتتاحها معينا على السيطرة على الأبدان ومتمما لها. ومما خلص إليه ساسة أمريكة والغرب بعد عدة هزائم عسكرية أن ما لا تستطيع السياسة والجيوش تغييره يمكن تغييره بالقوة اللينة، ومنها التعليم، إذ يمكن مؤسسات التعليم العالي الأجنبية أن تعين على الاستحواذ على العقول العربية وتوجيه الشباب، قادة المستقبل[1]، وهي سياسة الاستعمار الغربي منذ كان إلى اليوم. وكان من أصرح ما قال مديرو هذه الجامعات قول ديفيد أرنولد، رئيس الجامعة الأمريكية في القاهرة، في ندوة بنيويورك عن الجامعات الأمريكية في الشرق الأوسط: إن جامعته تعمل من أجل التغيير الهادئ، خارج مدى رادار الحكومة المصرية[2]، وقول جوزيف جبرا، رئيس الجامعة الأميركية اللبنانية، في مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك في ٢٩ مارس عام ٢٠٠٧: إن مؤسساتنا الأميركية تقوم بالتغيير بطريقتين: الطريقة الأولى تعليم الطلبة العلم تعليما يجمع بين العقل والقلب؛ ليتعلموا -مثلا- كيف يحلون النزاعات بوسائل سلمية دون اللجوء إلى العنف، وكيف يتقبلون الغير، وإن خالفوه، يعني أنهم قد يخالفون سياسة أمريكة في بلادهم من غير أن يَعْرِضوا لها بعمل يؤذيها، كالأعمال المسلحة، ويتقبلون ما تفعل ببلادهم على أنه كما تدَّعي، من إرادة نشر القيم الأمريكية، ومحاربة «قوى الظلام»، و«الإرهاب». والطريقة الثانية اللجوء إلى «جيش من الخريجين» يزيد الآن على أكثر من مائة ألف، يشغلون مناصب مهمة في الحكومات والخدمة المدنية[3]. غير أن هذه الغايات التي لا لبس فيها تُغلَّف بكثير من العبارات الديبلوماسية -على عادة السياسة الغربية في تسمية الأشياء بغير اسمها- تُخدِّر بها العرب عن حقيقة ما تريد بهم، ويُصرَف بها الطلاب الدراسون في هذه الجامعات عن حقيقة ما يراد منهم، وما يرادون له، كتنمية الصداقة، وثقافة التسامح، والتعاون، والسلام، والحرية، والديموقراطية، والشراكة، والاندماج، والتفاعل، ومد الجسور بين الثقافات، والازدهار،

(١) التجارة بالتعليم في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، ٢٨.
(٢) الجامعات الأجنبية في الخليج، ٥.
(٣) ملف تخصصي، ٢٣.

والحوار، وعون منظمات المجتمع المدني، وبناء الشخصية السوية، القادرة على الاندماج والتفاعل مع المجتمع والتأثير فيه، إلخ. وقال جورج بوش الأب في حفل افتتاح جامعة بقطر: هذه فرصة للجيل أن يأخذ مكانه الصحيح في بناء المجتمع، وهذه الاشتراكات التعليمية ستزيد من التفاهم بين المجتمعات، والتعايش السلمي، والتفاهم الحضاري بين شعوب العالم[1]. ولهذا كله معنى واحد، هو التجاوز لأمريكة عما فعلت وتفعل، ونسيانه، والتسليم بها مهيمنا على البلدان العربية، والاستعداد لتقبُّل ما تفعل، ومعاملتها بما تحب أن تعامل به، دون ما تقتضي سياستها. وأبان عن هذه الأغراض أحد الذين رأسوا مركزا للدراسات الخليجية في الدوحة: إن الأموال التي أُنفقت على التعليم الأجنبي باهظة، لكن هذا أفضل استثمار يمكن عمله، لا من أجل المهارات الفنية، وإنما لأن جامعات الغرب يمكن أن تستحوذ على العقول الشابة، بدلا من أن تُترَك للتأثر بالاتجاهات الإسلامية الثورية. وقال أحد أساتيذ فرع جامعة جورج تاون بقطر: إن مدينة التعليم يمكن أن تكون بداية نهضة في الوطن العربي، تحوِّله من التطرف إلى الاعتدال. وقال أحد الأمريكيين إن تبادل الآراء مع الطلبة العرب أحد الأسباب الرئيسة لفتح مقر فرعي في مدينة التعليم، فهي فرصة ممتازة لإحداث تأثير في نخبة الإقليم، فلدينا فرصة للتأثير الحقيقي في تفكير الناس هاهنا[2].

وللجامعة الأميركية في القاهرة أعمال شتى، تشترك فيها هي ومنظمات غير حكومية محلية، لخدمة المجتمع، ولها مركز «لأعمال الخير والإحسان»، وأعمال مدنية لتقوية أعمال البر والإحسان في الوطن العربي، وهذا أدنى إلى أعمال الجمعيات الدعوية والتنصيرية منه إلى اهتمام الجامعات. وقد أوضح جون ووتربيري، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، أن القاسم المشترك بين مؤسسات التعليم العالي الأميركية كلها هو القيم التي تحاول غرسها في نفوس طلابها، والشعور بالاحترام المتبادل، وبالتسامح، وتقبُّل الناس على اختلافهم. وقال: إننا نسعى إلى تشجيع حرية الرأي المتعقِّلة، والحرية الأكاديمية الواعية،

---

(١) ملف تخصصي، ٢٣، والجامعات الأجنبية في الخليج، ٣ - ٥.
(٢) التجارة بالتعليم، ٢٥٦.

ونقدم للطلبة خيارات شتى في صياغة برامجهم ودراستهم. كما أننا نحرص جميعاً على برنامج تعليمي غير مهني، يعلم الآداب الإنسانية، ويُطْلِع الطلبة على الثروة الضخمة من الإبداع والمعرفة البشرية[1]. وقال معلقا على ما رأى من دراسة بعض المنتمين إلى حزب الله اللبناني في الجامعة الأمريكية ببيروت: لعل من العدل أن نسأل: هل يمكن أن يتشبع الإيرانيون والمنتمون إلى «حزب الله» بالقيم الليبرالية في دراستهم بهذه الجامعات، أو سيعارضونها؟ لقد بدا لي في زيارتي لجامعتيْ بيروت والقاهرة ولقائي الطلبة، أن الأمر الأول هو الأقرب. وقال: نرى أننا نُعِدُّ قيادة مستقبلية، ستكون قادرة على الدخول في حوار بناء مع أمريكة والغرب؛ فدعونا نأمل أن يكبر هؤلاء الطلبة بسرعة[2].

ومن سياسة أمريكة التي تريد لها أبناء العرب الذين يدرسون في جامعاتها التطبيع مع إسرائيل، ومن وسائله إقامة علاقات بينها وبينهم، عن طريق هذه الجامعات، على وجه يُذهب ما في النفوس من حزازات، ويورث تغيير صورتها في نفوس العرب، تغييرا، يترتب عليه تقبلها، والاعتراف بها، وتقبل احتلالها أرض العرب، من أجل ذلك فُتِحت الجامعات الأمريكية في الخليج لطلاب إسرائيل، يشاركون في أعمالها، كما أقرَّ بذلك مدير فرع جامعة جورج تاون بقطر، جيمس ريردون أندرسون: الجامعة مفتوحة للطلاب من كل عرق ودين، وللذكور والإناث، ونقبل الناس على قدراتهم، ونبحث عن الطلاب في كل مكان، حتى إسرائيل. وقال: كان لنا في السنتين الأخيرتين ضيوف إسرائيليون مختلفون، ولنا في كل عام لقاء لطلاب الثانوية في العالم أجمع، ومنهم طلاب المدارس الإسرائيلية، ولم نلق ما يحول بيننا وبين الحصول على تأشيرات دخول للضيوف من إسرائيل[3]. وقد وجد بعض الباحثين دراسات لمشروعات ومخططات لمدِّ أسباب التعاون بين العرب وإسرائيل في التعليم والبحث العلمي، وهي مشروعات ترعاها بعض الدول الكبرى، وتؤيدها. والوسيلة التي يُعوَّل عليها في بلوغ هذه الغايات تفريق العرب وتفكيكهم،

---

(١) ملف تخصصي، ٢٤.

(٢) السابق،٢٢.

(٣) الجامعات الأجنبية في الخليج، ٥.

وإفقادهم -حكوماتٍ وشعوبا- الثقة بأنفسهم، وببعضهم. والنتيجة الحتمية هي تراجع دوافع التعاون العربي وتزايد الثقة بكل أجنبي، والاعتماد عليه. ويمكن مؤسسات التعليم العالي الأجنبية أن تعمل عملا مؤثراً بالاستحواذ على العقول العربية، وتوجيه تطلعات الشباب[1]. وتظهر هذه المخططات أكثر شيء في الجامعات ومراكز التعليم التي تقيمها الدول الغربية في الأردن، في وادي عربة، ومدينة العقبة، كمركز رأب الصدع، وأُسِّس عام ٢٠٠٤ بمكان يسمى مكان التعليم الحر، بوادي عربة بين الأردن وإسرائيل، والجامعة الأمريكية بالأردن، فإن أحد مؤسسيها صرح بأنها ستقدم مثالا للتعايش والسلام بعد توقيع اتفاق السلام بين الأردن وإسرائيل، وكان من المخطط أن تجذب طلبة من السعودية والأردن وفلسطين وإسرائيل. ووُقِّع اتفاق بين هيئة تنمية العقبة وإحدى الهيئات الاستثمارية لإقامة جامعة بريطانية، ترتبط بجامعة كوفنتري في بريطانية، وقد أرصدت لها مائة مليون دولار عام ٢٠٠٩، ومن المتوقع أن تكون قد افتتحت[2].

ومن نافلة القول أن الجامعات الأمريكية التي هذه فروعها لا تسمح بأن يكون من أغراضها تغيير نظرة الأمريكيين إلى أعدائهم، ومحو ذواكرهم حتى يقبلوا بهم «صديقاً»، يصيبون من بلادهم ما شاؤوا، وينسون ما صنعوا بهم، حتى لا يخطر لهم يوما أن يتحرروا منهم، أو يثأروا لكرامتهم، ولو رأت أن تسمح بشيء من ذلك، لحالت الحكومة الأمريكية بينها وبين إمضائه؛ فقد قال رونالد ريجان مرة إنه إذا فُرِض على أميركة نظام تعليم معين، فلسوف يَعدُّ فرضه نوعا من إعلان الحرب، أو اعتداء سافرا، لن يسكت عنه[3]. فلفروع هذه الجامعات في الوطن العربي -إذن- أغراض غير أغراض أصولها في أمريكة، وهي لا تعمل عمل الجامعات الوطنية، وإنما تعمل بمقتضى السياسات الاستعمارية، ومن السياسات الاستعمارية القضاء على العربية، وإحلال اللغات الأجنبية محلها.

وما ينبغي الانخداع بما يقول الأمريكيون، وما يظهرون من الود واللطف، وإرادة الخير، واحترام الاختلاف، والتعدد، والتسامح، فإنما هذا مما يستعان

---

(١) التجارة بالتعليم في الوطن العربي، ٢٨.

(٢) التجارة بالتعليم، ٢٥٨.

(٣) الجامعات الأجنبية في الدول العربية.

به على استغفال الناس، ريثما تُمْحَى ذواكرهم، ويقتنعوا بما تريد بهم، من التسليم لها، ونزْع ما في صدورهم من غيظ مما فعلت وتفعل بهم. ولا يختلف ما يقولون عما كان يقول سلفهم من المهاجرين الأولين، من أنهم رسل السلام، والتنوير، وخلفاء الله، وتسويغ إبادة الشعب الهندي بأنه مرضاة لله، وما كان يقول الفرنسيون في تسويغ ما فعلوا بالجزائر، وغيرها من المستعمرات. وقد قال سياتل، زعيم هنود دواميش، في خطبة له، تعرف بخطبة الهندي الأحمر، خطبها في شعبه عام ١٨٥٤: «زعيم واشنطن الكبير يقول لي في رسالته، إنه يريد أن يشتري بلادنا، ويقول لي إنه صديقي، وإنه يكنُّ لي مودة عميقة، ما ألطف زعيم واشنطن الكبير، لا سيما أنه في غنى عني وعن صداقتي، لكننا سننظر فيما يعرضه زعيم واشنطن الكبير، فنحن نعرف أننا إذا لم نبعه بلادنا، فسوف يجيئنا الرجل الأبيض مدججا بسلاحه وينتزعها»(١). فقد فهم سياتل من رسالة «زعيم واشنطن» أن صداقة الغرب، ومودته، وتحضُّره، ليست حقيقية، وأن مجيئه مدججا بالسلاح لينتزع الأرض بالقوة هو ما سيُقْدم عليه، إذا لم تبلِّغه تلك الكلمات المعسولة، واللطف المصطنع ما أراد. كذلك علَّمته التجربة، والعلاقة مع الأوربيين، وقد بلاهم طويلا.

ولا جديد فيما نقول في هذه الجامعات، ولا في التعليم الأجنبي كله في الوطن العربي، فقد أسست الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٨٩٩ باقتراح من ثلاثة من منصري البعث الأمريكي في مصر. وتقول وثائقها إن الغرض منها ضمان شخصية الجامعة النصرانية وتأثيرها في طلابها وأساتيذها بالمقررات الدراسية، والحياة الجامعية، وتنمية الولاء النصراني فيهم، وإنها ستكون وسيلة البعث الأمريكي إلى ما أراد من التنصير و«الإصلاح» الفكري والديني في مصر وما جاورها، وفي بندها الثاني أن تقديم التربية النصرانية لشباب مصر وما جاورها هو غرضها الرئيس. وقد ظل التنصير هو المحور الذي يدور عليه سائر الأغراض المعلنة، من إعداد النخبة، ونشر الثقافة الأمريكية و«خدمة المجتمع المصري»، وأنها ستكون سببَ «تنوير» الصفوة من رجال مصر بالفكر، ونشر الحقيقة النصرانية. وجاء في رسالة من مؤسسها، واطسن أنها يجب أن تلزم

(١) أمريكا والإبادات الجماعية، ١٦٣ وما بعدها.

الصراط النصراني، وأن تكون نصرانية خالصة. أما التوجه الاجتماعي، فكان الغرض منه تحويل المجتمع المصري إلى القيم الغربية، وبذلك امتزج الغرض الديني (التنصير) بالغرض الاجتماعي (التغريب)[1]. وقال أندروس إن التنصير الذي تقوم به لا يعني الانتقال من ديانة إلى أخرى، وإنما التشبع بالآراء والمفاهيم والمثل النصرانية. وتشتمل مقرراتُها العلمية على توجه ديني؛ ليستيقن الطالب أن المدرس والمؤسسة التعليمية اللذين قدَّما له التوجيه الحكيم في العلوم قادران على تقديم النصح الحكيم أيضا في الدنيا والدين[2]. وقال جون بادو، وكان رئيس الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٥ إن غرض الجامعة «نقل الثقافة والقيم الأمريكية إلى العالم العربي»[3].

ومن المستبعد أن تحرص الدول المستعمرة على أن تصنع للبلدان العربية تعليما متميزا، يهيئها للتقدم وحيازة التقنية، ويجبر نقص جامعاتها ومدارسها، وهي التي تعدها عدوا، فضلا عن أن ليس لها نفع في أن تفعل. وحسبنا دليلا على ذلك أن جامعة سنغور الفرنسية في الإسكندرية التي أنشئت بقرار من قمة منظمة الدول الناطقة بالفرنسية بداكار عام ١٩٨٩ م، ويُدَّعَى أنها جامعة مخصصة للتنمية الإفريقية، أُسِّست على شعبتين: شعبة للتغذية والصحة، وشعبة للتنظيم والإدارة، وتنكبت العلوم والتخصصات المهمة التي تحتاج إليها إفريقية[4]. ويكفي أن تكون هذه الجامعة مُنشأة بقرار من قمة منظمة الدول الناطقة بالفرنسية؛ ليعلم الغرض منها، وما يمكن أن تصنع لإفريقية، وهي منظمة فرنسية، وتنفق عليها فرنسة، وتقودها، وتضع سياستها، ولها غاية واحدة، هي تحصيل منافعها، وتبلُّغ مآربها السياسية والاقتصادية والثقافية، ولم يلق منها يوما بلد إفريقي نفعا إلا أن يكون وسيلة إلى نفع لفرنسة أكبر منه.

ولولا أن الدعاية الاستعمارية نالت من عقول بعض العرب، وأن صنائع الاستعمار، تؤازرهم السياسة الرسمية، يجدُّون في إيهام الشعوب العربية صحة مقاصد الاستعمار عونا له على بلوغ ما يبغي من بلادهم، وسترا لعلاقة السياسة

---

(١) ملف تخصصي، ٣٢ وما بعدها.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) المقالات المحظورة، ١٣١ و ١٣٩.

الرسمية به، لكان كل ما قلنا مما يدعو إلى الإشفاق على عقل من يقوله؛ لأنه من الضروريات التي لا يحتاج مثلها إلى برهان؛ فكل شيء في حياة العرب المعاصرة، وعلاقتهم بالغرب شهيد عليه، وعلى ما يُسِرُّ لهم وما يعلن، فهو في الجانب الذي نتحدث عنه هاهنا (التعليم) يحاصر الدول العربية حصارا تقنيا ليمنع تسرُّب الصناعة المتقدمة إليهم، وقد أقرَّ مجلس النواب الأميركي عام ٢٠٠٢ قانونا يشدد الرقابة على بعض التخصصات، ويمنع طلاب العرب دراستها في جامعاته، ويمنع تصدير ثلاثة أرباع الأجهزة العلمية إلى البلاد العربية، لازدواج استعمالها، مخافة أن تستعمل في «الإرهاب»! وتجدُّ أمريكة في قتل علماء العراق منذ احتلته، وقد قتلت منهم أكثر من أربعمائة عالم، أو اشتركت هي وغيرها في قتلهم، وكان أول ما فعلت بالعراق، بعد احتلاله، أن دمرت الجامعات، ودخل جنودها جامعة الموصل فدمروا مختبراتها على بكرة أبيها، فهل يعقل أن يفعلوا ذلك كله، ثم يبعثوا بجامعاتهم ليعلموا العرب، ويخرِّجوا منهم علماء يصنعون التقدم؟(١):

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

لقد كان ما يُرَى اليوم في بعض الأقطار العربية من إقبالٍ على اللغات الأجنبية والتعليم بها في كثير من الثانويات والكليات الجامعية هو الشائع في العراق قبل الثورة، فقد كانت كليات الآداب في بغداد منذ عام ١٩٤٩ تدرِّس كثيرا من الموضوعات الإنسانية بالإنجليزية، وكان بعض أقسامها يعج بالأمريكيين والإنجليز، حتى كانوا في كلية الآداب وحدها ستة عشر أستاذا، من أربعة وعشرين، وكانوا يدرِّسون الاقتصاد، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والآثار، بالإنجليزية، على وجه يحببها إلى الطلاب، ويجعلهم يجتوون العربية، وكانوا يجعلونها لغة رسمية في مجالسهم، وكانت هي لغة الطب وسائر التخصصات العلمية. وكان العراق يعطيهم أفضل الرواتب، والبدلات الكثيرة، كما تفعل دول الخليج اليوم، حتى ضجر العراقيون من ذلك، ورأوا أن فيه تحديا لشعورهم القومي، ونيلا من تاريخهم وحضارتهم، فأخذوا يكتبون في الصحف عن أضراره، فلم يصنعوا شيئا؛ فقد كانت التبعية الفكرية مستحكمة في النفوس

---

(١) الجامعات الأجنبية في الدول العربية.

والعقول والسياسة، ووجد كثير من عمداء الكليات وأساتيذها من العراقيين والأجانب في هذه الحالة ما ينفعهم، ويجعلهم في مقدمة الصفوف، وظل الأمر على ذلك، حتى بعد أن أنشئت جامعة بغداد، ونصَّ نظامها على أن العربية هي لغة التعليم فيها، حتى كانت الثورة العراقية[1]. بيد أن ما أنفق العراق في ذلك ذهب بالرياح، فلم يخرِّج الإنجليز والأمريكيون عالما، ولا جعلوا التعليم في العراق خيرا من التعليم في غيره من الأقطار العربية التي لم تكن تفعل مثلما يفعل، وستذهب أموال العرب حيث ذهبت أموال العراقيين قبلهم، ولن يكون للتعليم شأن في بلادهم أو يسير بسيرة الدول التي وطَّنت العلم، واصطنعت لغاتها في التعليم، وبنت سياستها على الاستقلال، ورأت اللغات الأجنبية بالعين التي ينبغي أن ترى بها.

وربما كنا في غنى عن الحديث عن اللغات الأجنبية في المغرب العربي بعد الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد كان -وما زال- موطنا للفرنسية، وكانت الفرنسية وما زالت مستبدة بالتعليم فيه، والإدارة، وبعض وسائل الإعلام، فليس من المتوقع أن تزيده حرب أمريكة على العربية بعد الحادي عشر من سبتمبر، في التعليم خاصة، وحسبنا دليلا على ذلك أن بالمغرب -بحسب إحصاءٍ نُشِرَ عام ٢٠١٢- تسعا وثلاثين مؤسسة تعليمية فرنسية، يدرُس بها ثمانية وعشرون ألف طفل، ٦٠٪ منهم مغاربة، وأن معظم المدارس الفرنسية تابعة للوكالة الفرنسية للتعليم بالخارج، وأن اتحاد مجالس آباء تلامذة المدارس الفرنسية بالمغرب تابع لاتحاد مجالس آباء التلامذة في فرنسة[2]. وما يمكن أن يقال إنه جدَّ في المغرب العربي هو أن الإنجليزية صارت تزاحم الفرنسية في التعليم، كما تزاحم أمريكة فرنسة على المغرب العربي، وجدَّ لها فيه من التأثير السياسي والاقتصادي والثقافي ما لم يكن من قبل[3]. ومن آثار ذلك ما قد رأينا من أن أقسام الإنجليزية في جامعات تونس صارت أكثر من أقسام الفرنسية. ومن آثاره أيضا قرار مجلس الوزراء الجزائري عام ٢٠٠٢ أن يبدأ تعليم الإنجليزية من

---

(١) حركة التعريب في العراق، ٢١٤ وما بعدها.

(٢) السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، ٢٢ وما بعدها.

(٣) اللغة العربية وهوية الأمة.

السنة الأولى المتوسطة، بدلا من السنة الثامنة[1]. ومما أعان الإنجليزية على أن تزاحم الفرنسية في المغرب العربي ما قد علمنا من انحسار الفرنسية في العالم، حتى فرنسة، وهو مما حمل بعض مثقفي المغرب العربي على الدعوة إلى استبدال الإنجليزية بها؛ لأنها غدت هي لغة العلم، وغدا الإبقاء على الفرنسية كما كانت ضربا من الاستعمار الثقافي الصريح. وإن كان بعض ما تُسوِّغ به تلك الدعوة -على صحتها- ربما لا يكون هو الداعي إليها وحده، ولا النزوع إلى الاستقلال عن فرنسة، بل هو من التأثر بفرنسة، وما ظهر فيها من تحول إلى الإنجليزية كما قد رأينا، ويتذرع بها بعض أهل المغرب العربي إلى التخلص من نير الاستعمار الفرنسي الذي هو أسوأ استعمار غربي، ولو باستعمار أنجلي سكسوني، يرى بعضهم أنه أهون منه، ويمكن أن يتوسل به إلى إضعاف الفرانكفونية، وتهييء العقول للتفكير المتزن في اللغات الأجنبية، والنظر إليها نظرة نفعية، تعتدُّ بالمصلحة الوطنية دون سواها، وهو ما أراد الدكتور علي بن محمد وزير التربية الجزائري السابق، إذ أراد أن يُدخل الإنجليزية في التعليم الجزائري، فأُخرج من الوزارة. بيد أن ذلك كان قبل الحادي عشر من سبتمبر بنحو من عشرة أعوام.

ويشير بعض الإحصاءات إلى أن الإنجليزية صارت تنافس الفرنسية في المغرب منافسة قوية، وأن أحد عشر ألف طالب، ينتمون إلى خمس عشرة جامعة مغربية، وسبعة آلاف طالب، ينتمون إلى معاهد علمية شتى، يدرسون الإنجليزية، وأن مدرسي الإنجليزية صاروا يساوون مدرسي العربية، ويزيدون على مدرسي لغات أخرى، كالإسبانية، والألمانية، والإيطالية، وينقصون قليلا عن مدرسي الفرنسية. وتقام في المدارس الثانوية بالمغرب دروس لتعليم الإنجليزية، بإشراف مدرسين أمريكيين[2]. غير أن هذا أيضا كان قبل الحادي عشر من سبتمبر، ولكن من المتوقع أن يكون قد زاد كثيرا. إلا أن الإنجليزية ربما شاركت الفرنسية في المغرب العربي في قابل الأعوام، وإن كان من المستبعد أن تحل محلها، إلا أن يستقل المغرب العربي، أو تحتله أمريكة، فمن الأدلة

---

(١) إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، ١٢٩ وما بعدها.

(٢) العرب والانتحار اللغوي، ٥٤.

على ذلك أن أمريكة افتتحت يوم الثلاثاء ٢٣/ ٨/ ٢٠١٦ أول مدرسة دولية لها بالجزائر، وأشرفت على افتتاحها السفارة الأمريكية، وحضرته السفيرة الأمريكية ونواب عن وزارتي الخارجية والتربية الجزائريتين. وكانت الجزائر وبريطانية، في زيارة الوزير البريطاني المندوب المكلف أمر الخزينة غريغ هاندس، في مايو عام ٢٠١٦، قد أعلنتا إنشاء مدرسة بريطانية دولية في الجزائر، تعلم الإنجليزية على وفق برامج مدرسية بريطانية وجزائرية[١]. وقبل هذا بعام قال مدير المجلس الثقافي البريطاني في الجزائر، مارتن دالتري، إن بالجزائر إقبالا متزايدا على تعلم الإنجليزية، وإن المجلس منذ حصوله في الجزائر يعمل مع وزارة التربية على تكوين المدرسين الموجهين إلى المدارس والثانويات، وقال المتحدث باسم المجلس إنه لما فتح الدروس للجمهور تلقى أكثر من ٧٠٠ طلب في أول دورة للجمهور، وإنه يتوقع أن تبلغ ٨٠٠ طلب بعد ست سنين من العلاقة مع الموظفين والمهنيين والمكونين، وربما حلَّت الإنجليزية في السنين القادمة محل الفرنسية؛ لأن للشباب خاصة والأكاديميين ورجال الأعمال طلبا كبيرا وإقبالا شديدا عليها، لما يرون من أنها لغة عالمية ومهمة جدا في كل مسار مهني[٢]. وهو قول يصدق بعضه ما قابل به الجزائريون إعلان الجزائر وبريطانية اتفاقهما على إنشاء مدرسة دولية لتعليم الإنجليزية في الجزائر، من استبشار في وسائل التواصل الاجتماعي[٣]. وأقرت عدة مؤسسات حكومية جزائرية تعميم الإنجليزية بدَل الفرنسية في إداراتها، فغيرت أسماءها من الفرنسية إلى الإنجليزية، كوزارتي الدفاع، والشؤون الخارجية، وكلية الحقوق - سعيد حمدين، والمدرسة العليا للقضاء، وكلية العلوم الاقتصادية والتجارية، وجامعة باتنة، وجامعة بسكرة. ويرجح بعض مراقبي الشأن السياسي بالجزائر، أن يكون هذا ونحوه بداية طور جديد من العلاقات الجزائرية الفرنسية، يخرج عن العلاقات المعهودة[٤]، بيد أن ذلك رهن باستقلال الجزائر، كما أن حلول الإنجليزية محل الفرنسية في المغرب رهن باستقلاله.

(١) الإنجليزية تهز قلاع الفرنسية في الجزائر.

(٢) السابق.

(٣) انظر: الجزائر وبريطانيا تلغيان رسميا الازدواج الضريبي.

(٤) هل هي الضربة القاضية ضد اللغة الفرنسية واللوبي الفرنكفوني.

وقد سيَّس العربيةَ بعضُ الأساتيذ الجامعيين الفرنسيين المقيمين بالمغرب وتابِعيهم من متفرنسي المغرب العربي، بعد الحادي عشر من سبتمبر، كما سيسها الأمريكيون بالمشرق العربي، من أجل محاربتها، فجعلوها لغة إرهاب، وأخافوا منها الساسة، كما خيلوا إلى محمد السادس بعد التفجير الدامي بالدار البيضاء عام ٢٠٠٣ أنها سبب الإرهاب، ودعوه إلى مراجعة سياسة التعريب[١]، وجدُّوا في بخس العربية وإسقاطها من العيون، والإقناع بأنها مضرة بالناس؛ لأنها لغة الإسلام، بما يعني للفرنسيين خاصة، والغربيين عامة، ولغة «الأصوليين»، وأن الفرنسية هي لغة المستقبل الزاهر، والسلاح الذي سيقف المد الإسلامي، والدرع الواقية من شر الأصولية، ولكي يوقف المد الإسلامي يجب أن يكون البلد فرنكفونيا[٢]. وقرَنوا له الغلو بالعربية والإسلام، فجاراهم في ذلك؛ فعمل على تقوية الفرنسية في مختلف المرافق، ومحاربة العربية وتهميشها[٣]، على الوجه الذي قد رأينا جانبا منه، وتراجعَ عن التعريب، وضيَّق على العربية، بالقدر الذي مكَّن للفرنسية في التعليم والإعلام، واتجهت وزارة التعليم وجهة، تخالف مطالب الجماهير، بالتمكين للغات الأجنبية بما يسمى الثانوية الدولية، وهي ثانوية تدرِّس المقررات كلها بالفرنسية والإنجليزية والإسبانية[٤]، وبدأ العمل بها في العام الدراسي ٢٠١٤/ ٢٠١٥، وزعم وزير التربية المغربي يومئذ، رشيد بلمختار، أن غرضها تحسين تمكُّن تلامذة الثانوية التأهيلية من لغة أجنبية، وإعدادهم للتعليم العالي، وأنها ضرورة لدمج التعليم المغربي في نظام التعليم الدولي، والاستجابة لرغبات الشباب الراغبين في تعلم الإسبانية والإنجليزية وثقافتهما[٥]؛ لأن مستقبل العلوم في الفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية، والصينية، لا العربية، وقد أضحى إتقان اللغات من الواجبات في عالم اليوم؛ إذ تَفتُّق أذهان الطلاب مشروط بمعرفتها، لما تتيح

---

(١) الفرنكفونية والصراع مع العربية عبر الدارجة بالمغرب.

(٢) دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، ٢٥٠ وما بعدها، والفصحى والدارجة في الإعلام. محمد العربي المساري، ١٧١ وما بعدها. والمسألة اللغوية في تقرير الخمسينية، ١١٨.

(٣) لغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ٤٠١.

(٤) دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، ٢٤٩، وبيان إلى الرأي العام الوطني، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب.

(٥) بلمختار يبصم على البكالوريا الدولية بثلاث لغات ويعد بمبادرات ممثالة.

من الاطلاع على الكشوف العلمية التي تستحيل ترجمة ما كتب بها من بحوث، تزيد على ثلاثمائة مليون مقالة كل يوم[1]. وهي مسوغات ضعيفة؛ فكتابة العلم بلغة من اللغات ما حملت شعبا من الشعوب المعتزة بهوياتها على أن يتبدل بلغته، على الوجه الذي يريد متفرنسو المغرب، وقد أفادت شعوبُ العالم -وما زالت تفيد- مما ينشر بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والصينية من غير أن تدرِّس بواحدة منها، أو ترغب عن لغاتها. وما ينشر بالفرنسية من الكتب كل عام يأتي في المرتبة العاشرة، وما ينشر بها من البحوث العلمية لا يتجاوز ٤٪[2]، وما ينشر بالإنجليزية والصينية والإسبانية أضعاف ما ينشر بها، كما نشر بالإسبانية والبرتغالية عام ٢٠٠٩ ، ٦٥٥٥ مجلة بحث علمي -في الأقل-[3]، ومع ذلك لم تَصِرْ فرنسة إلى الإنجليزية ولا إلى الصينية، ولا إلى الإسبانية والبرتغالية، ولكن للمتفرنسين من المغاربة هوى في اللغات الأجنبية، ولا سيما الفرنسية، هو الذي ينزع بهم إلى منطق رشيد بلمختار وأمثاله، ويحرِّصهم على الفرنسية بالقدر الذي يزهِّدهم في العربية، ويَجعل ما يُنَال باللغة من منافع مادية هو المعيار الذي توزن به اللغات، أما غيره، فلا يُعتدُّ به، أي إنهم يجعلون هويتهم وراء منافعهم المادية، مع ما فيما يدَّعون للغة الأجنبية من مبالغة، ومخالفةٍ لسنَّة شعوب العالم الناضجة في الإفادة من اللغات الأجنبية. ومما يدل على ذلك الهوى أن فؤاد بنجلون، مدير جامعة محمد الخامس حضر ندوة لمناقشة كتاب عبد القادر الفاسي الفهري «السياسة اللغوية في الوطن العربي»، فكان أول ما نوه به عالمية الإنجليزية، وأن أكثر ما يكتب من البحوث العلمية يكتب بها، وإن نُشِر بلغة أجنبية أخرى، تُرجم إليها. ثم ثنَّى بأن العربية كانت لغة علم، ويجب أن تعود[4]. وهو تحصيل حاصل، وليس في الناس من يجهله، وإن كان يقوله في بلد كثير من مثقفيه متفرنسون، وهو يريد أن يتحول بهم إلى الإنجليزية. وكان أولى من هذا وأجدر بمن في منزلته العلمية أن يكون أكبر همه أن تُنْزَل العربية منزلتها اللائقة بها في بلادها، لا أن يشتغل ببيان مزايا

---

(١) الباكالوريا الدولية بالمغرب.

(٢) مستقبل المغرب واللغة الفرنسية.

(٣) هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟، ٥١.

(٤) السياسة اللغوية العربية والبيئة والبقاء، ١٣.

الإنجليزية، والإقناع بالتحول إليها من الفرنسية، فالإنجليزية -وإن كانت خيرا من الفرنسية- لغة أجنبية، وستنتهي إلى ما انتهت إليه الفرنسية، والترحال بين اللغات لا يليق بمن يثق بنفسه. غير أن ما يكتب أهل المغرب العربي، ويقولون، ولا سيما أهل المغرب الأقصى، يُشْعر بأن السياسة اللغوية المتبعة فيه -على قلة جدواها، وما أفضت إليه من كوارث- هي قدَر المغرب، وليس له خيار غيرها، وأن اللغات الأجنبية هي السفينة التي من رغب عنها غرق، أما العربية، فلغة ثانوية، وليس لها كبير شأن في هذا العصر، ويمكن أن يستغنى عنها بلغة أجنبية، وإذا كانت الفرنسية، فقدت مكانتها العلمية، ففي الإنجليزية خلف منها؛ فيجب المصير إليها، كما قال بعض أهل المغرب الأقصى: من المؤسف أن نجد المشرفين على التعليم في المغرب لا يزالون يلتصقون بالفرنسية التصاق القراد بالبشرة، غافلين عما يجري في العالم المعاصر، فقد انصرف الناس -ومنهم الفرنسيون- إلى الإنجليزية بالكلية، بعد أن علموا أن لغتهم التي طالما افتخروا بجمالها ورشاقتها بسبيل الأفول. لقد أرسخ الفرنسيون في أذهان الشعوب التي استعمروها أن لا تقدُّم ولا حضارة بغير الفرنسية، حتى صرنا نحن أيضا ننعت من لا يعرفها بالتخلف، مع أنها ستصير يوما لغة محلية، مهما يفعل حرَّاس الفرانكفونية. وهذا يحتِّم أن ينفتح المغرب على لغات دولية أخرى، وأن يؤهل أبناءه لمواجهة التحديات متسلحا بأحدث اللغات وأوفرها علوما، وربما أسهلها، أما عورة الفرنسية، فقد انكشفت منذ أكثر من ربع قرن، وبان ضعفها وعجزها عن مسايرة الركب الحضاري، وآن أن تُصطنَع الإنجليزية في التعليم بالمغرب، وتُجعَل لغة ثانيةً من التعليم الابتدائي، أما الإبقاء على الفرنسية بعد اللغة الوطنية، فليس له أساس موضوعي، ولا يخدم المغرب، ونحن إذ نَحمل الشعب على الفرنسية وحدها غير عادلين، ولا نبحث عن مصالحه العلمية[1].

فهذا الرأي يبين عن جانب من ثقافة متأصلة في عقول بعض مثقفي المغرب العربي، هي أن المعوَّل عندهم في التقدم على اللغة الأجنبية التي تشيع في العالم، لا على اللغة الوطنية، فهم كالبداة الرُحَّل، ينتجعون أبدا مساقط الغيث،

---

(١) مستقبل المغرب واللغة الفرنسية، ونور الدين عيوش وعقدة الفرانكفونية، وتقرير حول لغات التدريس في منظومة التعليم في المغرب.

ومنابت الكلأ، وقد كانوا يقيمون على ماء الفرنسية، فلما غار، تنادوا بالرحيل إلى ماء الإنجليزية، وبان لهم من سوأة الفرنسية ما شببوا به عقودا، وفطنوا إلى أن ما كانوا يعتقدون فيها شيء غرسته فيهم فرنسة، لا يد لهم فيه، كأنما اللغة زي من الأزياء، يُلْبَس ما رَضي به لابسه، فإن جدَّ غيره اطُّرِح وتُبُدِّل به، ولا يقدِّرون أن الذي أصاب الفرنسية سيصيب الإنجليزية، لا محالة، وأن التنقل بين اللغات لا يصنع تقدما. وقد رشح من مسودة تقرير المجلس الأعلى للتعليم ما يدل على أن المغرب بصدد التحول من الفرنسية إلى الإنجليزية[1]، دون اعتداد بما انتهت إليه الدراسات الكثيرة التي شخَّصت مأساة التعليم بالمغرب، ولا اتعاظٍ بما جَنَت عليه الفرنسية مذ دخلته إلى اليوم، ولا اكتراث بنصيحة الخبراء الدوليين، ولا الوطنيين المخلصين المشفقين، كأنما التعليم باللغة الأجنبية قدر، لا مفر منه، وملحمة كتبها الله عليه، ما له من محيص عنها، وليس في وسع الشفيق أن يَثْنيه عنها، وإن نهى وهيَّب ما استطاع، وكأنما حاله مع اللغة الأجنبية كما قال الحارث بن خالد:

إنــــي وإياهـــــا كمفتتـــــن بالنــــار، تُحرقُـــــه ويعبدُهـــا

على أن من المستبعد أن يكون تعطيل حكومة المغرب ما عطلت من مشاريع العربية، وتراجعها عما تراجعت عنه عن اقتناع بما كتب الأساتيذ الفرنسيون، وإنما صادف هو وما كان من تفجير الدار البيضاء حاجةً في نفس يعقوب؛ فتذرع بهما إلى ما كان يبغي، فإن من مقتضيات الحد الأدنى من الوعي أن لا يخفى على الحكومة المغربية أن لا علاقة بين اللغة وفكر أهلها وسلوكهم، وأن العربية لغة المغرب منذ بضعة عشر قرنا، ولم تجلب له غلوا ولا إرهابا، وأن الفرنسية لم تعصم أهلها من غلو ولا إرهاب، ولا عصمت منهما الإنجليزية، وقد ذاق العالم كله -ومنه المغرب- من إسبانية، والبرتغال، وفرنسة، وبلجيكة، وهولندة، وألمانية، وبريطانية، وأمريكة، وروسية، ما لم يَذُق من أمة من الأمم، وكان إرهابهم -وما زال- إرهاب دول، لا يقاس بإرهاب أفراد يفجرون قنبلة، أو يقتلون بضعة أشخاص، وهم -إذ يفعلون- إنما ينهلون من خزَّان الغضب والمرارة من سياسات أمريكة في العالم الإسلامي المتممة للسياسات الأوربية

---

(١) العشيري: هذا مستقبل اللغة الإنجليزية في المنظومة التعليمية.

الاستعمارية[1]. وإذا صح أن تنسب لغة إلى أفعال أهلها وفكرهم، فينبغي أن ينسب إلى الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، والإسبانية، والألمانية، والروسية، والهولندية، ما فعل المتكلمون بها، منذ القرن السادس عشر إلى اليوم، ومنه قنبلتا هيروشيما ونجازاكي، وما صُبَّ على العراق عامي ١٩٩١ و ٢٠٠٣، وأفغانستان عام ٢٠٠١، وما فعلت فرنسة بالجزائر طوال ١٣٢ عاما، وما فعلت روسية فيما احتلت من البلدان في آسية وأوربة، قبل الاتحاد السوفييتي وبعده، وما تحوي مصانع السلاح ومستودعاته في الغرب من أسلحة الدمار الشامل، الذرية، والنيترونية، والكيميائية، والجرثومية، إلخ، وهو إرهاب يتصاغر دونه كل إرهاب في التاريخ. ولكنه أسلوب من أساليب التشويه، تتعمده الدعاية الغربية، فيجوز على من لا يعرف حقيقة الغرب. على أن التخويف من العربية ونسبتها إلى الإرهاب كان سياسة فرنسة قبل الحادي عشر من سبتمبر، وقد رأينا ما كانت تنسب إليها من ذلك حين تقرر الجزائر المصير إلى تنفيذ بند من بنود دستورها القاضية بالتعريب. على أن أمريكة وفرنسة إذ تنسبان إلى العربية ما تنسبان من الإرهاب والظلامية إنما تريدان العربية من حيث هي الجوف الذي فيه الإسلام، ولكنهما ترغبان عن التصريح بنسبة الإسلام وتراثه إلى الإرهاب والظلامية تجنبا لاستعداء المسلمين، إذ لا يخفى على أحد أن نسبة اللغة من حيث هي شكل، أو نظام، إلى الإرهاب لا معنى لها. وإن كانت فرنسة أصرح من أمريكة في ذلك، إذ تقول إن العربية هي التي أدخلت الأصولية والحركة الإسلامية في الجزائر، تعني أن التعريب مكَّن الجزائريين من دراسة العلوم الشرعية، والاطلاع على التراث العربي، والفكر الإسلامي الحديث، فتأثروا بها، كما كانت تتهم تعليم العربية في الكتاتيب القرآنية بالتحريض على «التعصب»، وتأليب الجزائريين على فرنسة، وتقول إن مصادرتها الأوقاف التي كانت تنفق على التعليم عامي ١٨٤٣ و١٨٤٨ ألحقت به ضربة قاضية[2]. فقد كانت مصادرة الأوقاف تعويرا لمصادر تعليم العربية، أي التعليم الإسلامي، من أجل القضاء عليه، وفعلت شيئا كهذا في تشاد، لكنه أصرح منه في الإبانة عما أرادت، وإن كان أبشع، فقد

---

(١) الحادي عشر من أيلول، ٧.

(٢) المواجهة باللغات.

جمعت عام ١٩١٧، ٤٠٠ من علمائه بمدينة أبشية، فقطعت رؤوسهم بالسواطير في مذبحة شهيرة، تسمى مذبحة كبكب، أي مذبحة الساطور، ويذكر بعض الباحثين أن هؤلاء العلماء كانوا مجتمعين في ندوة دينية، فداهمت فرقة فرنسية مسلحة قاعة الندوة، فقتلت كل من فيها من العلماء. وقاموا بمذابح أخرى، منها مذبحة فاريا عام ١٩١٧، ومذبحة كانم عام ١٩٤٠، ثم تتبعت معلمي القرآن، والمرشدين، ومن بقي من العلماء فأخرجتهم من البلاد[١].

**ب- الابتعاث إلى الدول الناطقة بالإنجليزية:**

ولا سيما أمريكة وبريطانية وأوسترالية، على وجه لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب الحديث، مع قلة الدواعي، وعدم وجود غايات بينة كتلك التي كان يُبْتَعث من أجلها قبل عام ٢٠٠١، وكان بعضه في تخصصات، ما ينبغي أن يبتعث دارسوها إلى غير الوطن العربي، كالعلوم العربية والإسلامية، وكان بعض الجامعات يصرُّ على أن يحصل معيدوها على الماجستير والدكتوراه، أو إحداهما في الأقل، من دولة أجنبية. وكانت أمريكة هي الدولة المفضلة، وعليها كان يصرُّ بعض كبار الإداريين في الجامعات ووزارات التعليم العالي. وكان ذلك لغاية ثقافية في المقام الأول، هي غَمْس المبتعثين في الثقافة الأنجلية السكسونية، على وجه، يعين على صياغة عقولهم صياغة كالتي تريد «مبادرة الشراكة مع الشرق الأوسط»، ويُحِلُّ الإنجليزية محل العربية، كما يقتضي «مشروع الشرق الأوسط الكبير»؛ لأن ذلك الغمس يقيم جسورا ثقافية بين العرب وأمريكة، وينزع كراهيتها من قلوبهم[٢]. وكان الابتعاث والإكثار منه برغبة من أمريكة ورئيسها جورج بوش، بعد ما رأى من رغبة العرب عن الدراسة في أمريكة بعد الحادي عشر من سبتمبر[٣]. ولذلك لم يوجه بعض المبتعثين إلى تخصصات بعينها، ولا كان يُشترط للابتعاث تميُّزٌ، ولا حصول على معدل، يؤهل أصحابه للدراسات العليا، على كثرة المبتعثين، وكان بعض المبتعثين من خريجي الثانوية الذين لم يكن لهم من الحصانة الثقافية والعقلية

---

(١) التحديات التي تواجه اللغة العربية في إفريقية، ٣٦٠، وتشاد، ٧٠ وما بعدها.

(٢) التعليم العالي في السعودية، ٣٨ وما بعدا.

(٣) التجارة بالتعليم، ٢٠٩ (هامش).

والدينية ما يحول بينهم وبين التأثر السلبي بثقافة الغير[1].

**ج- إحلال اللغة الأجنبية محل العربية في الحياة العامة:**

بعد الحادي عشر من سبتمبر حلّت الإنجليزية محل العربية في كثير من المصارف، والشركات الكبرى، والفنادق، ورُبِطت سوق العمل بمعرفة اللغات الأجنبية، وجُعلت شرطَ القبول في الدراسات العليا، هذا إلى الإعراض عن التعريب، واحتقار العربية، والصدودو عن تعلمها، والإعلان بعداوتها، ولم يسلم من ذلك الصبيان في رياض الأطفال، فقد كان بعضهم يرفض تعلُّمها، ويقول إنه يكرهها، ويؤثر عليها اللغة الأجنبية[2]، ولا سلم منه العامة، فقد صار بعضهم يسخر ممن يتنكب التكلم بما درج على ألسنة الناس من المفردات الأجنبية إلى ما يقابلها من العربية، ولو كانت عامية، أو من الكلمات الفصيحة المستعملة في العامية، كـ«نعم»، كما يروى أن صحفية جزائرية تعمل بصحيفة عربية، دخلت وكالة عدْل بالجزائر العاصمة، فسألها الموظف عن وثيقة معينة، فردت بـ «نَعَم»، فهمس صاحبه ساخرا منها باللهجة الجزائرية: «وَاقيلا رانَّا في المسجد»، أي: يبدو أننا في المسجد! وقال لها الآخر: «باين انتيّا أستاذة شريعة ولاَ عربية»[3]. ومن أعجب ذلك أن قائد طائرة من طائرات الخطوط الجوية الجزائرية، جاءته مضيفة بورقة، كتبها أستاذ جامعي جزائري، كان في الطائرة، فسألته المضيفة بالفرنسية أن ينتقل من مقعد إلى آخر، ففعل، وكتب لها بالإنجليزية أن الفرنسية ليست بلغته، وكان ينبغي أن تكلمه بالعربية، فاستدعى قائدُ الطائرة الشرطة لتخرجه منها؛ لأنه خطر عليها![4]. وفسخت طالبة جامعية جزائرية خطبتها من شاب يتولى منصبا مهما في إحدى الوزارات، متعللة بأنه يحرجها عند أهلها وصديقها لتكلمه بالعربية؛ لأنه عَمِل مدة طويلة في الكويت، فكان إذا سألته -مثلا- عن مكانه، قال لها: «راني في المكتب»، أو ودَّعها قال: «ليلة سعيدة»، وهي عبارات تَعُدُّ استعمالها «تخلّفا»؛ فطالبته بتغيير أسلوبه في

---

(١) انظر: التعليم العالي في السعودية، ٣٨ و ٤١ (هامش)، واللغة العربية المعاصرة في دول الخليج العربي، ١٠١.

(٢) انقراض اللغة العربية.

(٣) الفرنسية أفسدت لغة الجزائريين.

(٤) واقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد الحادي عشر من سبتمبر.

الحديث، فلما لم يفعل تفرَّقا، بعد طول شجار[1]. وفي مقابل هذا يحرص بعض المدارس الخاصة على أن يجيد الأطفال الإنجليزية ولو كانت إجادتها بنسيان العربية، كما يبدو من قصة رواها بعضهم: أن مديرة مدرسة ابتدائية خاصة بالإسكندرية دعت أولياء الطلاب إلى اجتماع، فسألتهم منع أطفالهم الكلام بالعربية في المنزل، ومعاقبتهم بالحرمان من المصروف اليومي، إذا تكلموا بغير الإنجليزية. فقالت لها إحدى الأمهات: إذا لم يتكلم الأطفال بالعربية في المدرسة، ومُنِعوا أن يتكلموا بها في المنازل، فأين يتعلمونها؟ قالت إن تعليمهم الإنجليزية هو الأهم، وإن ملاحقة التلامذة على هذا الوجه هو الوسيلة إلى تمكينهم منها في مبتدأ حياتهم، أما العربية، فمن المفروض أنهم يعرفونها[2]. وليست مهانة العربية على هذا الوجه خاصة بالمدارس الخاصة وحدها، بل كانت المدارس الحكومية «رائدة» في ذلك أيضا، كما يبدو -مثلا- من خفض الدرجات المرصدة للعربية إلى النصف. وما كان للمدارس الخاصة أن تذهب إلى ما ذهبت إليه لو لم يكن هو ما يريد الناس[3]. وتظهر آثار «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، وسياسة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر في الحوادث المذكورة آنفا ظهورا لا خفاء به.

واتسع استعمال الإنجليزية في المال والأعمال، بسبب برامج الإصلاح الاقتصادي، وإعادة الهيكلة الاقتصادية، وتوسُّع التجارة الخاصة، وبناء علاقات تجارية واسعة مع الخارج. هذا إلى إنشاء محطات إذاعية وتلفزية، تبث بالإنجليزية، وموافقة الحكومات العربية على صدور صحف يومية وأسبوعية، ومجلات بالإنجليزية[4]. وكثر استعمال الإنجليزية في المرافق، والأماكن العامة، والمطاعم، وأسماء المحال التجارية، وألواح الإعلان، واللافتات، وأسماء الشوارع والأحياء، كأن اللغة الأجنبية هي لغة البلاد الرسمية، وصار الذي يسير في بعض الشوارع العربية كأنما يسير في شارع أمريكي، أو في بلد

---

(١) الفرنسية أفسدت لغة الجزائريين.

(٢) وبل لأمة مغصوبة اللسان.

(٣) الموضع السابق.

(٤) اللغة العربية وهوية الأمة.

ثنائي اللغة، تتنازع فيه العربية والإنجليزية[1]. وغدا من الكثير ألا تكتب ورقة رسمية، أو اسم إدارة حكومية، أو شركة من الشركات، أو محل تجاري، أو لوح من ألواح الشوارع الإرشادية، بل لا يكاد يكتب شيء، كائنا ما كان، إلا قُسِم بين العربية والإنجليزية أو العربية والفرنسية، حتى عنوانات الرسائل الجامعية في أقسام اللغة العربية، وأسماء المقررات الدراسية في أقسام العربية، والعلوم الشرعية. وأخذت الإذاعات الخاصة في المغرب العربي تنقل برامج فرنسية كاملة مخالفة لقيم المجتمعات العربية الإسلامية، وتفخر بالإعلان بتبعيتها للغة والثقافة الفرنسيتين، بلغة الحديث، والحوار، والاختيارات الغنائية، ونقْل البرامج عن إذاعات فرنسية، ومتابعة الحياة الفنية والثقافية والإعلامية بفرنسة، دون ذكر اسمها، كأن المستمع يقيم في إحدى المدن أو القرى الفرنسية، وليس بمدن المغرب وقراه، وكأنما تَفتَح الباب لإعادة استعمار المغرب[2]. وكان لهذا أثر سيئ في لغة الشباب؛ فانتشر فيهم التكلم باللغات الأجنبية، وبعربية هجينة، وقلَّ شعورهم بالانتماء إلى العروبة، وضعْف الثقة بالعربية[3]، وغدا من المعتاد أن يسمع المرء طلاب الجامعات والمدارس يعلنون كراهيتهم للعربية، واحتقارهم إياها والسخرية منها، واستثقالها، والصدود عنها كما يُصَدُّ عن القديم البالي من الأشياء. ومن أشد ما تحارَب به اللغة أن تُقصَى من سوق العمل، ويغلق باب العمل دون من لا يعرف إلا العربية، وهم السواد الأعظم من العرب، ويُخَصَّ به من يعرف لغة أجنبية[4]، ولو في أمور لا تحتاج إلى لغة أجنبية، وأن تجعل اللغة الأجنبية هي مناط الرزق، والعربية لا تسمن ولا تغني من جوع، فإن ذلك من أقوى الوسائل إلى صرف الناس عنها؛ ولذلك صار بعض الناس يفضِّل التعلم باللغات الأجنبية على التعلم بالعربية، بل أخذوا يعارضون أن يعلَّم أولادهم العربية، وأن تُدْخَل في مناهجهم الدراسية[5]. وما

---

(١) المدارس الأجنبية في الخليج العربي، ٣٣٨، واللغة العربية ومبدأ الترابية، ١١٢، واللغة العربية وأسئلة العصر، ٧٩.

(٢) اللغة العربية في وسائل الإعلام، ٢٠٦.

(٣) العربية الفصحى المعاصرة: قضايا ومشكلات، ٩.

(٤) اللغة العربية في خطر الجميع شركاء في حمايتها، ٢ وما بعدها، والاستثمار في اللغة العربية من خلال اقتصاديات اللغة، ١٩.

(٥) انظر: العربية في الوقت الحاضر، ٢٥٨، وانقراض اللغة العربية.

يترتب على هذا معروف، هو أن تكون اللغة الأجنبية هي لغة الأطفال التي يتكلمون بها على كل حال، ويجهلوا العربية جهلا تاما، حتى ليضطر الآباء إلى التحدث معهم باللغة الأجنبية في المنازل[1]. ومن نافلة القول أن أطفالا كهؤلاء لا يسرهم أن ينتموا إلى العروبة، وإنما يشعرون بالغربة في بلادهم، وهم -إذا كبروا- مهيؤون للهجرة أكثر من تهيئهم للبقاء في بلادهم، وإن بقوا، فلن يكون ولاؤهم لأوطانهم، وحضارتهم، وإنما للبلد الذي لا يعرفون إلا لغته وحضارته، ومن جهل شيئا عاداه، وربما احتقروها، إذا وازنوا بينها وبين ما تعلموا من حضارة اللغة التي يتكلمون بها، ويزيدهم إعجابا بحضارة اللغة الأجنبية أنها تُعرَض لهم حضارةً «كاملة»، «مبرأة من كل عيب ونقص»، وليس في حضارات البشر حضارة مثلها، على وجه يُسقِط من العين كل حضارة أخرى، وتُعرَض لهم حضارتهم بعكس ذلك، حضارةً شوهاء، ويُتعمَّد إسقاطها من أعينهم تعمدا، والذي يعرضها لهم يحقد عليها، ويتعمد سلخهم منها، وهو فوق ذلك يجهلها ويجهل حقيقتها، ولا يعرف من الحضارة الأجنبية إلا قشرتها. وهذه السياسة في المشرق العربي شبيهة بما قد رأينا من سياسة فرنسة في المغرب العربي، منذ استعمرته إلى اليوم، ولن يكون أثرها في المشرق إلا كأثرها في المغرب.

(١) انقراض اللغة العربية.

## ثانيا- استثارة النعرات القومية

كان لبعض القوميات غير العربية في الوطن العربي دعوات قديمة، مات بعضها، وبقي بعضٌ، واستُحدِث بعض. فنُشِر بعض الميت بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وزيد في عمل الحي وتحريضه، ووُجِّه المستحدث وجهة، تزيد الوطن العربي ضعفا وتفككا، بانتزاع ما كان بين أهله من لحمة، مصدرها التوافق في الدين واللغة، والاشتراك في التاريخ، والثقافة، والشعور بوحدة المصير. وأبرز ما استثير من النعرات بعد الحادي عشر من سبتمبر النعرة القبطية، والنعرة النوبية.

أ- النعرة القبطية:

وهي إحدى الدعوات التي أريد بها تمزيق البلدان العربية، باستحداث ولاءات مبنية على ثقافة وتاريخ قديمين غير الثقافة والتاريخ اللذين غَبَر العرب قرونا كثيرا وهم يظنون أنهما شركة بينهم جميعا، وإن كان لبعضهم دين غير الإسلام، غير أن دينه لم يؤثر يوما في السِّلْم الاجتماعي، مع أن اختلاف الدين هو المصدر الأول لما يكون من نزاع ثقافي بين المجتمعات. غير أن هذه الدعوة أخفقت، ثم ماتت؛ إذ لم يكن لها سند اجتماعي أو فكري أو ثقافي، تُبْنَى عليه، وإنما أُنشِرت بعد الحادي عشر من سبتمبر، لتكون وسيلة جديدة من وسائل التفتيت. وزعمَ أحد منتحليها أنها امتداد للدعوة الفرعونية التي ظهرت في مصر في أول القرن العشرين، لمواجهة الدعوة إلى الذوبان في دولة الخلافة الإسلامية العثمانية، والدعوة إلى العروبة التي كانت أثرا لهجرة بعض الشاميين إلى مصر في أول القرن العشرين. واختير لبَعثها محسن لطفي السيد (ابن أخي أحمد لطفي السيد)؛ ليكون «الباعثُ» الوارثُ من أهل بيت «الخالق»، وإنما يَنشر دعوة سلفه، وغير غريب أن يرث الخلف السلف، فيجدِّدَ ما درس من آثاره، ولِمَا يوهم ذلك من أن الدعوة، وإن ماتت، من حيث هي مشروع سياسي

واجتماعي وثقافي، بقيت حية في قلوب بعض المصريين، ومنهم آل السيد، كما زعم محسن لطفي، في تسويغه الدعوة إلى الفكرة في هذا العصر.

وقدَّم محسن في أبريل من عام ٢٠٠٢ طلبا بالترخيص لحزب سياسى، يُدْعَى حزب مصر الأم، برنامجه مبني على هذه الدعوة، غير أن لجنة الأحزاب المصرية رفضته فى فبراير عام ٢٠٠٤؛ لأن برنامجه مخالف للمادة الأولى من الدستور، وتنص على أن مصر جزء من العالم العربى، وينص برنامج الحزب على أن «الأمة» المصرية ليست جزءا من أمة أخرى، وإنما هى أمة مستقلة[(١)]. وأهم أغراض الحزب أن تكون الثقافة الفرعونية هي الثقافة العامة فى مصر، لا الثقافة العربية؛ فإن للثقافة المصرية «الأصيلة» سمات غير سمات الثقافة العربية «الدخيلة»، وأن تُجعل القبطية لغة دستورية، ويكون اسم مصر الرسمى «جمهورية مصر»، وتُخرَج منه «العربية»؛ لأن المصريين قبط، وليسوا بعرب. وغرض هذا التغيير إخراج مصر من دائرة العروبة، وإلغاء أن العربية لغتها، واستبدال الإنجليزية بها؛ بدعوى أنها لغة محايدة، لا يعارضها أحد من المصريين[(٢)]، مع أن القبطية، وغيرها من اللغات التي كانت تتكلم في مصر قبل الإسلام، قد انقرضت[(٣)]. ولا جديد في هذا الاتجاه، فمذ دخل الاستعمار العالم الإسلامي، ومعه خطة واضحة للقضاء على العربية، من وسائلها تجديد ما درس من اللغات التي كانت تُتَكَلَّم في بعض الأقطار العربية، كالقبطية، فقد ظهر من يدعو إلى جمع مفرداتها من العامية المصرية، لتصنع منها لغة، تكون هي لغة مصر بدلا من العربية، إذ العربية لغة أجنبية[(٤)]. وكان حزب أحمد لطفي السيد، ويدعى حزب الأمة، صناعة بريطانية بإجماع المصريين، أراد بها اللورد كرومر أن يواجه الحركة الوطنية بجموع من الإقطاعيين، والأثرياء، والأعيان الذين وصفهم بأنهم أصحاب المصالح الحقيقية، وكان غرض حزب الأمة تقنين الاستعمار، وتشريع الاحتلال، والدعوة إلى مهادنة الغاصب وتقبُّل

(١) حوار مع أمين عام حزب مصر الأم.
(٢) الموضع السابق.
(٣) الفصحى لغة القرآن، ١٠٤.
(٤) انظر: الأبجدية اللاتينية لكتابة العربية والفارسية، ٤٦ وما بعدها.

ما يسمح به دون مطالبته بشيء[١]. وأنشأه اللورد كرومر في العام الذي غادر فيه مصر (١٩٠٧م)، وقال في هذا العام إنه يترك مصر مستريحاً؛ لأنه أقام بها القاعدة الأساسية لدوام الاحتلال البريطاني[٢]. وهو يبني فكرة الأمة على الأرض، لا على أساس اللغة والدين، وكان تفكيره لا يتجاوز القاطنين بمصر[٣]. وهي الفكرة التي يبني عليها خلفه حزب مصر الأم. ويوافق هذا التوجه توجه الحركة البربرية في المغرب والجزائر موافقة تامة، حتى ليظن قارئ ما يكتبان في هذه القضية مستعارا بعضه من بعض. ومن أصول الدعوة القبطية الحديثة مد الجسور إلى بعض الحركات المعادية للعربية في مصر وخارجها، كالحركة النوبية، في جنوبي مصر، والحركة البربرية في المغرب العربي، لِمَا يرى أصحابها من وحدةِ نَسَب القبط والأمازيغ والنوبيين، فهم كلهم من نسل حام. ويعدُّ دعاة القومية القبطية الأمازيغ أقرب الشعوب إليهم، فهم أبناء أمازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، والفراعنة أبناء مصرايم بن حام بن نوح. هذا إلى ما تشترك فيه الأمازيغية والفرعونية من الخصائص. من أجل ذلك يؤيدون «حق» الأمازيغ فى الحفاظ على هويتهم، وما يتبع ذلك من حقوق سياسية، تلائم عددهم، وإعراقَ ثقافتهم. وقد أسسوا لهذا الغرض ما سموه «الشبكة المصرية لدعم الشعب الأمازيغى»، وهى شبكة «حقوقية»، غرضها تأييد الحركة البربرية تأييدا ثقافيا وحقوقيا وإنسانيا[٤]. ومع هذا الاتجاه تيار علماني ليبرالي، يُدْعَى «الجبهة المصرية للتضامن الشعبى» (تماسك)، يرى أن تكون مصر دولة علمانية، أصلُ المواطنة فيها الانتماء إلى الوطن، ولا تفرِّق بين المواطنين على العرق أو الدين أو المذهب[٥]. ولا يُخْفي هذا التوجه عداوته للعرب، كما يبدو من وصفه جمال عبد الناصر بأنه ذو أصل بدوي، أي عربي، ومن نقمتِه عليه وعلى ثورة يوليو ١٩٥٢ م، وتوجهها العروبي، تسميته اتحاد مصر وسورية «الجمهوريةَ العربيةَ المتحدةَ»، كما ينقم على أنور السادات؛ لأنه -وإن غيَّر تسمية جمال

---

(١) رجال اختلف فيهم الرأي، ٥.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) حوار مع أمين عام حزب مصر الأم.

(٥) الموضع السابق.

عبد الناصر هذه- أبقى على «العربية»، في تسميته الجديدة (جمهورية مصر العربية). وليس في المعلن من برنامج الحزب إلا القضية الثقافية وحدها، كأنها أهم قضايا مصر، أو القضية التي ليست لها قضية سواها، مع أنه قد أتى على مصر قرون كثير، ما عرفت لغة غير العربية، ولا انتمت إلى غير الإسلام. وهذا يدل على أن الحزب ليست له قضية وطنية، وإنما هو مصنوع لمضارَّة العربية، وإحلال الإنجليزية محلها لغةً رسمية، وهو ما فعلت فرنسة في المغرب العربي، إذ أنشأت الحركة البربرية. ومما يتغيا هذا التوجه أيضا إعادة صياغة مصر، لتَنزِع عن عروبتها وإسلامها إلى العلمانية والليبرالية المعاديتين للإسلام، لا العلمانية والليبرالية الغربيتين المحايدتين، وهو غرض من أغراض إنشاء الحركة البربرية أيضا. ومن علم أن ليس في وسع القبط كلهم أن يفرضوا على مصر لغة أو هوية أو ثقافة، علم أن هذه الدعوة إنما صنعت وسيلةً للبلبلة، والضغط على الحكومة المصرية.

**ب- النعرة النوبية:**

وكانت النوبة طوال تاريخها جزءا من مصر والسودان، وهي إقليم أهله مسلمون كلهم، ويذهب بعض الباحثين إلى أن كثيرا من العرب استوطنوها، فاستعجموا، لمَّا كثرت مصاهرتُهم أهلَها[1]. فالنوبيون من الأجناس الإسلامية التي امتزجت فيها الأعراق بسبب الدين والتصاهر، ولم يكونوا يتميزون من غيرهم من العرب والمسلمين بشيء، غير أن بعضهم أظهروا معارضة للعربية، بعد الحادي عشر من سبتمبر، واعترضوا في استفتاء ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٧ على المادة الأولى من دستور مصر، وطالبوا بإسقاطها. وقال حمدي سليمان، «وكيلهم» في مؤتمر أقليات الشرق الأوسط الثاني الذي عقد في زيورخ، إن النوبيين في مصر ليسوا بعرب، ولن يكونوا يوما عربا، وإنما هم نوبيون، وسيبقون كذلك أبدا، ويدعون إلى احترام خصوصيتهم، وألا يحاول المصريون إلباسهم العباءة العربية؛ لأنهم يفخرون بأصلهم النوبي الحامي الكوشي. وقال إنهم يطالبون بحق العودة إلى أرضهم، وأن تسمى أسوان محافظة النوبة، كما يطالبون بالاهتمام بالتاريخ النوبي واللغة النوبية وتدريسهما، وإنشاء إذاعة وقناة نوبية،

---

(١) العربية في السودان، ٤.

وأن تخصص لهم حصة في مجلس النواب، أو يجعل بعضهم من العشرة الذين يسميهم رئيس الجمهورية. وقال: إن اللغة النوبية لا يُحافَظ عليها، وإنما تهمل لتموت[1]. ويفهم من كلام الرجل، وهو رئيس النادي النوبي بالنمسة، أن في النوبيين فئة يسارية وعلمانية تعادي الإسلام، ولكنها تخالف ما عليه أكثر النوبيين، من التمسك به. ولا يُخْفي أنهم يستعينون بمجلس النواب (البرلمان) الأوروبي، والأمم المتحدة لنيل «حقوقهم»[2]. وإذا كان ما قال حمدي سليمان هو كل ما يريد أهل النوبة، فليست لهم مطالب سياسية، وإنما مطالبهم ثقافية، وهي موافقةٌ لبعض ما يريد أصحاب الدعوة الفرعونية، من إخراج مصر من العرب، وإلغاء المادة التي تنص على عروبتها؛ لأن فئة قليلة من أهلها ليست بعربية! على أن الحركات التي اصطنعها الاستعمار في الوطن العربي بدأ بعضها حركات ثقافية، ثم صارت إلى السياسة، كالحركة البربرية في المغرب العربي. والمطالبة بإلغاء عروبة مصر -على ما تدَّعي هذه الجماعات من ليبرالية- يخالف المتعارف عليه من أصول الديمقراطية، فإنها تقضي أن يكون العمل برأي الأكثرية، مع احترام الأقلية، في كل شأن من شؤونها الخاصة، والنوبيون -إلى ذلك- مسلمون كلهم، وليس في سلفهم، أو خلفهم، من له نزعة تخالف الإسلام والعروبة، غير المهاجرين منهم إلى الغرب، ولعلهم يتوسلون بهذه الدعوى وما شاكلها إلى الحصول على مساعدة من الغرب لقاءَ اصطناعهم في الضغط على الحكومات العربية، وتخويفها بهم. وهو ما يفعله كثير ممن ينتحلون «المعارضة» في الوطن العربي، وآية ذلك أن النوبيين في مصر لا يرغبون في تطوير لغتهم لتكون لغة علم وأدب، ومثلهم في ذلك أهل سيوة[3]، غير أن الذين يستعملون قضايا الشعوب في منافعهم الخاصة ينسبون إليهم ما لا يعرفون وما لا يريدون، ويستعملون الإعلام في تكبير الصغير، وإلباس الأمور ما لا يخطر لأهلها ببال، كما ينفخ غلاة الحركة البربرية في قضية الأمازيغ، ويزعمون أنهم يريدون إقامة تمازغا الكبرى من الكناري إلى سيوة، ولعل أهل

---

(١) عشية الاستفتاء على الدستور: نوبيون يرفضون نص عروبة مصر.

(٢) الموضع السابق.

(٣) مشكلات التعليم باللغة العربية في المناطق ثنائية اللغة في الوطن العربي، ١٤٣ (نقلا عن: اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء والجدل حول واقعها المعاصر، ٩٥).

سيوة لم يخطر لهم شيء كهذا، ولا أرادوه يوما، ولا فكروا في اصطناع لغة غير العربية، وكذلك كثير من أهل المغرب العربي.

ومما يَريب في أمر هذه الحركات أن بعض من ينتمون إليها ليست بينهم وبين ما تُبْنَى عليه من أفكار علاقة، تسوِّغ أن ينتحلوها، ويدعوا إليها، فأحمد لطفي السيد -مثلا- ومن وافقه من المصريين مسلمون، أو من أسر مسلمة، ولا يعرف لهم نسب في القبط، ولا يعرفون عن القبط والقبطية إلا ما قرؤوا في التاريخ، وليس للقبطية وجود ثقافي في الحياة المصرية؛ فدعوتهم إلى الفرعونية، وزعْم أن الرابطة المكانية التي تجمع بين من سكنوا مصر منذ آلاف السنين، ومن يسكنونها الآن أقوى من الجامعة الروحية والعقلية والثقافية التي تربط بينهم وبين السواد الأعظم من المصريين، ودعوتهم إلى صنع أدب قومي مستقل عن أدب العرب[1]، وليس لمصر أدب غير الأدب العربي، ولا تراث مكتوب غير التراث العربي الإسلامي، ولا لغة غير العربية، وإنما تنسب الآداب إلى اللغات لا إلى الأمكنة والأعراق، وليست لمصر -إلى ذلك- شخصية قومية غير الشخصية العربية -مما يشكك في غايات هذه الدعوة، وفي وطنية أصحابها، ويحمل على ظن أنهم ينتهزون حاجة الاستعمار إلى أمثالهم في بعض المواسم السياسية، والحقب التاريخية. ومما يرجح هذا أن حزب مصر الأم -مثلا- ليس له برنامج سياسي، سوى أنه علماني ليبرالي، والعلمانية والليبرالية مسألتان فكريتان، أكثر منهما مذهبا في السياسة، وليستا برنامجا سياسيا، يُنتخَب عليه، أو يُتنافس فيه، وكثير من أحزاب مصر علمانية، والحكومة المصرية علمانية، ولكنها هي والأحزاب العلمانية لا تنتحل هوية غير هوية الشعب المصري، فعلمانية «حزب مصر الأم» وليبراليته -إذن- لا جديد فيها على السياسة المصرية، ولا تسوغ إنشاء حزب سياسي. وإحياء القبطية، أو اصطناع الإنجليزية بدلا من العربية، ليسا مما يستحق أن ينشأ من أجله حزب سياسي، وإنما هما قضيتان ثقافيتان. هذا إلى أن القبطية لغة ميتة، وإذا أُنشرت، وأعيد تدوينها وكتابة قواعدها، احتاجت إلى قرون حتى تصلح للحياة، أما أن تكون لغة علم، فبعيد، وعلى فرْض أنه قريب، فمعالجة الأحياء

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ٢/ ١٤٧ و ١٥١.

أرجى من معالجة الأموات، والإصرار على نشر الأموات، وقتل الأحياء، مما يصعب حمله على الوطنية، أو إرادة الخير لمصر. وسعي فئة من الشعب في أن تمحو هوية الأكثرية المطلقة، أو أن تتجاهلها، ليكون المعتدُّ به آراء، لا يجمع أصحابَها دون سائر الشعب دين، ولا ثقافة، ولا لغة، ولا أصل، ولا تاريخ، ولا جامع، يسوِّغ أن يُعترَف لهم بخصوصية، يعاملون عليها، داع آخر من دواعي الارتياب في أمر هذه الحركة، وغاياتها، وأسباب نشأتها.

# ثالثا- إحلال العامية محل الفصحى

يخيل إلى كثير من أنصار الفصحى أن الدعوة إلى العامية أخفقت، وأن أئمتها الأولين لم يبلغوا ما أرادوا، وأن أنصار الفصحى خضدوا شوكتهم. غير أن الأمر ليس كذلك، وإنما نجحت الدعوة إلى العامية نجاحا كبيرا، ولكن السياسات التي تخطط لنشرها غيرت أساليبها، فعدلت عن المواجهة إلى العمل، والدعوةِ والتنظير إلى التنفيذ[1]؛ فبلغت ما أرادت، حتى أن مَنِ الأصلُ أن يكون أشدَّ الناس معارضة لها، واستنكافا من التكلم بها في مقام من المقامات، هو اليوم من أكثرهم استعمالا لها، كالعلماء، والدعاة، والوعاظ، والأدباء، والمفكرين، والقادة السياسيين والإداريين، والمذيعين، وأساتيذ الجامعات في قاعات الدرس، وفي المحاضرات العامة، ومجالس الأقسام والكليات والجامعات، ومناقشة الرسائل الجامعية، والمدرسين في الفصول الدراسية، وأعضاء مجامع اللغة العربية في شؤون الفصحى، ويكتب بها بعض الكتَّاب والصحفيين، على وجه يدل على أنهم لا يرون بأسا بما يفعلون، ولا أنه عون لدعاة العامية على ما يريدون من نشرها، واستبدالها بالعربية، ولا أنهم يعارضون استعمالها في شأن من الشؤون التي ما ينبغي أن تستعمل فيها[2]. فقد قال عبد اللطيف حمزة -مثلا-: العجب كل العجب أن نرى بعض المجددين في الأدب يطالبون -ملحين بين الحين والحين- باصطناع العامية في الكتابة تيسيرا على القراء، وإشراكا لأكثرهم في التعليم والثقافة، وما دَرَى هؤلاء المجددون أن الصحافة الشعبية تقوم بهذا العمل الجليل، وتتقدم كل يوم خطوة جديدة نحو هذه الغاية، من غير أن تثير عليها ضجة من جانب المحافظين المتشددين الذين يحمون

(١) العرب والانتحار اللغوي، ١٧٣.

(٢) الواقع اللغوي في العالم العربي في ضوء هيمنة اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية، ١٢٧ وما بعدها.

الفصحى من أن يتسرب إليها بعض الألفاظ والجمل التي ليست منها[1]. فالأمر عند من يراه يسير بخطو وئيد نحو الغايات التي يريد، وغايته واضحة، هي استعمال العامية، لكن من غير إثارة، قد تحول دون المراد كما حالت دونه الدعوات الصريحة. وهو شبيه بما قال يوسف الخال: سوف يأتي يوم يدرك فيه العرب أن الحقيقة لا تتجزأ، وأن ما لا يصح أن يكون لغة المسرح، والخيالة، والحوار القصصي، لا يصح أن يكون لغة الأدب في فنونه كلها، ولن يكون ذلك إلا بمثل ما يتم به تفتح الوردة، ونضج الثمرة، خِفْيةً وبثبات[2]. ولهذا صارت العامية هي لغة الدعاية الإعلامية، في وسائل الإعلام، والشوارع، وغدت هي اللغةَ التي لا تقع العين في الحياة العامة إلا عليها، ولا تسمع الأذن غيرها، ولم يبق للفصحى إلا الكتاب، وقراؤه قليل، وبعض الصحف والمجلات، ونشرات الأخبار السياسية، وإن شاركتها العامية في بعضها، حتى غدا من العسير تخليص مقامات العامية من مقامات الفصحى، وإنزال كل منهما منزلتها من غير حيف ولا إفراط. وجُنِّدت للحرب على الفصحى فضائيات، وجُيِّشت جيوش من الجهلة والحاقدين، فأقصوا الفصحى من الإعلام، وألجؤوها إلى ركن صغير، وشوَّهوا صورتها وصورة من يستعملها أو يعلِّمها أو يدافع عنها، ومكَّنوا للعامية، وأحاطوها بما يُعْلي قدرها في الحياة[3].

ومن نافلة القول أن العامية قديمة، كثيرة الدوران على الألسنة، وأن الفصحى لغة الخاصة، فهي أقل منها استعمالا في شؤون الحياة العامة؛ لأن الخاصة أقل من العامة، ومقامات الفصحى أقل وأخص من مقامات العامية، غير أن الخاصة صاروا يستعملون العامية، فيُكْثِرون استعمالها في كل مقام، وغلبت عليهم حتى ليظن أنهم لا يعرفون غيرها، كما قال طه حسين إن العربية في مصر لغة، إن لم تكن أجنبية، فهي قريبة من الأجنبية، لا يتكلمها الناس في البيوت، ولا الشوارع، ولا الأندية، ولا المدارس، وإنما يتكلمون بلغة، تقرب منها قليلا أو كثيرا، ولكنها ليست إياها على كل حال[4]. وقال حسن حنفي إن العامية تنخر القلب

(١) انظر: التصويب اللغوي في الخطاب الإعلامي، ١٧٧.
(٢) الأديب العربي في العالم الحديث، ٣٩.
(٣) اللغة العربية والإعلام: الواقع والمأمول، ٢٣٠.
(٤) مستقبل الثقافة في مصر، ١٨٣.

في مصر، أداةً للتخاطب، لا في الحياة العامة فحسب، بل في الحياة العلمية أيضا[1]، وقال أمين الخولي إنها أفسدت على العربية الفصحى في مصر ماضيها كله، أو جانبا منه، لا يستهان به، فقد حالت بينها وبين مزاولة الحياة، والتغلغل في جوانبها وأطرافها، فلم تهيئ لها المقدرة على التدرج الدائم، والتجدد المستمر، والنماء المساير لأحوال الحياة كلها شيئا فشيئا، من أجل ذلك لم تبق من حيث ماضيها هذا السجلَّ المرجو، والمتحف المبتغى، والرباط المتين. وتلك إصابة لا يستهين بها مؤرخ الحياة الأدبية المصرية، حين يلتمس معالم هذه الحياة في تراث الفصحى بمصر في البضعة عشر قرنا التي قضتها فيها[2].

وإذا كان خواص المصريين من أكثر العرب جرأة على العامية، وأقلِّهم تحرجا من التكلم بها، حيث لا ينبغي التكلم إلا بغيرها، فقد تأثرهم سائر العرب تأثرا شديدا، وآل حالهم في العقدين الأخيرين إلى ما آل إليه حال المصريين قبل ذلك بزمن طويل. أما ما جدَّ في العصر الحديث، ثم عمَّ وطمَّ بعد الحادي عشر من سبتمبر، فإخراج العامية من مقاماتها، وتعمُّد إدخالها في كل مقام، كانت الفصحى تنفرد به، كالتعليم، والخطابة، والبرامج العلمية والأدبية الجادة التي يقدِّمها المتخصصون، ونشرة الأخبار السياسية، وما شاكلها من مقامات، والإعلاميون يحضون المتكلمين في برامجهم على اصطناعها في حديثهم، ويصرفونهم عن الفصحى صرفا، إذا تكلموا بها؛ لأن العامية لغة القرب -زَعَموا-، وضمان فهْم الكلام فهما أوسع[3]، وغدا تعمُّد ذلك أمرا بيِّنا، وليس شيئا عفويا، يأتيه من يأتيه عن غير قصد. وظهرت قنوات تتعمد استعمالها على كل حال، دون الفصحى، كأنما تريد أن تصنع واقعا لغويا جديدا، واشتد ذلك في بعض البلدان العربية بعد ثورات الربيع. وهو أمر كان المتوقع عكسه، فقد تحررت الشعوب من نير الحكومات المنفصلة عنها، وصار أمرها إليها؛ فكان ينبغي أن تتحرر من كل ما كان يُفرَض عليها، وأن يكون أحرص ما تحرص عليه استعادة هويتها، وأن يكون إعلامها معبرا عن ذلك. غير أن وسائل الإعلام

---

(١) الهوية والاغتراب في الوعي العربي، ١٩٦.

(٢) فن القول، ١٦٤.

(٣) نص الحوار الذي أجرته مجلة «الفرقان» الكويتية مع د. عبد الفتاح الفاتحي.

الناطقة بالعربية سارعت إلى اصطناع العامية الممزوجة بالفرنسية، في بعض الأقطار العربية، على وجه لا يخفى ما يراد به من إظهار الاستخفاف بالفصحى، وتعمُّد صرف الناس عنها إلى العامية، ورفعِ الحرج عنهم في التكلم بها في كل مقام، وإغرائهم به بقصد إخراج الفصحى من الحياة، والتمكين للعامية، كما يبدو مما كانت تفعل إحدى المذيعات التونسيات: تقاطع ضيفها كلما تكلموا بالعربية الفصحى، وتسألهم باسم الثورة أن يستعملوا العامية، وتُعلِّل طلبها بأن الفصحى لغة خشبية؛ فليس لها محل من الإعراب بعد الرابع عشر من يناير ٢٠١١ (ثورة الياسمين)[١].

ومن المعلوم أن الناس يتعلمون اللغة الأم من السماع، فهي لا ترتسم في الدماغ إلا بعد تجارب كثيرة، وأن الكلام هو الذي يغير اللغة، والارتسامات التي يستقبلها الناس بسماعهم كلام غيرهم هي التي تغير عاداتهم اللغوية[٢]. وقد غدا لوسائل الإعلام من التأثير اللغوي في الحياة المعاصرة ما يمكن عدُّها معه وسيلة من الوسائل المعينة على إكساب السليقة اللغوية، وتعليم الناس ما يقولون، فإنَّ ما يقدَّم فيها كالكلام الذي يتلقاه المرء من بيئته اللغوية، فيُرْسِخ فيه العادات الكلامية، حتى تغدو كالسليقة، في تلقائيتها، واستعمالها من غير وعي. وهي تؤثر تأثيرا، لا تُنازَع فيه، بنشرها ما تريد، وطيها ما لا تريد، وحملها المستمعين على استعمال اللغة على وجه بعينه، وصرفهم عن غيره من الوجوه. فإن استَعمَلت الصحيحَ الفصيح، كانت عونا على حفظ اللغة وجريانها على الألسنة صحيحة فصيحة، كما ينبغي أن تجري عليها، وإن استَعْمَلت لغةً ركيكة، مشوبة بالعجمة، والأخطاء، دلَّت على العجمة والركاكة والأخطاء مَنْ لم يكن يعرفها، وأرسختها في لسانه كما ترسخها كثرة الاستعمال. وهي التي صنعت بالعربية الحديثة من المسخ والتشويه، وتغليب الأساليب المترجمة ترجمة حرفية ما يوشك أن يخرجها من فصيلتها إلى فصيلة اللغات الأوربية الحديثة، ولقَّنت الأدباء واللغويين لغةً، أنستهم ما عرفوا من العربية، وحالت بينهم وبين أن ينتفعوا بما علموا؛ لأن ما تُلقِي إليهم يغلبهم على ما يعرفون، من

(١) ها أنت أيتها الثورة، ٦٢.

(٢) محاضرات في الألسنية العامة، ٣٢.

كثرة ما ترددده عليهم، فلا يستحضرون غيره، إذا تكلموا أو كتبوا. وهي لذلك تُبطل التعليم، وتجعل ما يدرَّس من العربية قواعد نظرية، يُنْسيها ما تردِّد على الناس. فإذا طال عليهم الأمد صار لهم ما يسمعون منها ويقرؤون بمنزلة اللغة الأم، في رسوخه، وتمكنه في العقل، ونفروا مما سواه، وإن كان هو الصحيح، وغيره خطأ، وغدا من العسير أن يُرَدُّوا عنه إلى الصواب؛ لأن العادة طبع ثان. وترْك الحبل لها على الغارب لا يكون له من حُسْن الأثر إلا نشر العامية، وإماتة الفصحى، وإفساد ما بقي منها؛ لأن الذين يقومون على وسائل الإعلام أشباه أميين، وليس فيهم من يعرف من العربية ما يؤدي به عمله كما ينبغي أن يُؤدَّى. وزادها التساهلُ، والاقتصار من معايير توظيف المذيعين على المظهر، دون المخبر، كالصورة، والسلامة من عيوب النطق البينة، كالحُبسة، واللُّثْغة، والتأتأة، دون الطلاقة، وحسن الإلقاء، وفصاحة اللسان، وحسن البيان، وبراعة الارتجال. وألغى بعضها شرط المعرفة بالفصحى؛ فكثر اللحن، والكلام بالعامية على كل حال[1]، وفشت قلة الوعي، وغفلة الضمير، وضعْف الانتماء الحضاري. وأعانت على ذلك قلة التشريع اللغوي، والمحاسبة القانونية التي تأطِر على أداء العمل كما يجب أن يؤدَّى، ليكون نفعا خالصا، يسوِّغ ما يُنفَق عليه، ويبلِّغ الغايات المنشودة منه؛ فيرتقي بالعقول والأذواق، ويعلِّم، ويثقِّف، ويعين على التنمية، ويُتِمُّ مهمة التعليم.

وقد تساوى من يعادي العربية ومن يواليها، ومن يكيدها ومن يدفع عنها، فصاروا كلهم أَلْبا عليها، وشركاءَ في هدمها، والجدِّ في إماتتها، ويَدًا على ما يريد بها أعداؤها؛ لأن العامية -إذا تمادت وسائل الإعلام في اصطناعها- ستكون هي اللغة التي لا يعرف العرب غيرها، وسيكون من العسير، أو المستحيل أن يُرْجَع عنها إلى الفصحى، ولن يَتْبَع ذلك إلا أن يتحول كل بلد عربي إلى عاميته، وهو أمر تلوح بوادره بقوة منذ ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهذا -فضلا عما يَفعَل بالعرب من تشتيت، وتقطْيع ما بينهم وبين تراثهم- من أكبر ما يعين على التخلف؛ لأن العامية ليست بلغة علم؛ فإرساخها إرساخ للجهل، وعون

(١) واقع اللغة العربية في الإعلام المسموع والمرئي، ٦١٤، وواقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

عليه، وحؤول بين الناس والتعلم الذي لا يتأتى إلا بلغة العلم، وهي الفصحى. ومن المعلوم أن الطلاب اليوم يجدون مشقة في قراءة الكتب المقررة؛ ولا سيما المخصِّين منهم في العربية؛ لأنهم لا يسمعون من أساتيذهم، ومن وسائل الإعلام إلا العامية، كما لا يسمعون غيرها في شؤون الحياة العامة والخاصة، وقد حال ذلك بينهم وبين أن يعرفوا لغة العلم، وجعَلَهم يستوحشون منها، ويستثقلونها، ويجتوون القراءة؛ فضعف تحصيلهم، وكثر رسوبهم؛ لأنهم إذا قرؤوا لا يفهمون كلَّ ما يقرؤون، فتثقل عليهم القراءة، فيدَعون الكتاب، ويقتصرون على الملخصات، وما يكتبون من أفواه الأساتيذ في المحاضرات، وهو داء قديم في تاريخ العرب الحديث، فقد قال المسترمان في تقرير له عن التعليم بمصر عام ١٩٢٩ م: تلميذ المدرسة الأولية لا يقرأ في حياته المدرسية سوى كتابين أو ثلاثة[١]. وكتب أحمد حسن الزيات مقالا في الثامن من فبراير عام ١٩٣٧ قال فيه إن تسعمائة وتسعين في الألف من المصريين لا يقرؤون، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة، وواحد في الألف هو الذي يقرأ الكتاب المثقف، ويطالع المجلة المهذبة[٢]. وهو من أهم أسباب الإعراض عن القراءة في الوطن العربي إعراضا يقل نظيره في الشعوب، إذ يشير بعض الإحصاءات إلى أن كل ثمانين عربيا يقرؤون كتابا واحدا في العام، على حين يقرأ الفرد في معظم الدول الغربية خمسة وثلاثين[٣]، ولا يزيد معدل ما يقرأ العربي في العام على ست دقائق. ويطبع في الوطن العربي كله من الكتب ما بين ألفين وثلاثة آلاف كتاب في العام، فما يباع منها إلا نحو من ٩٪[٤]. ولا يزيد المنشور من الكتب في الوطن العربي على ثلاثة وأربعين كتابا لكل مليون نسمة، وينشر في أوربة -مثلا- ٥٤٢ كتابا لكل مليون نسمة[٥]. ويرى بعض الباحثين أن ما يُطبَع من الكتاب في الوطن العربي ما بين ألف وخمسمائة وألفين، ولا ينفد إلا في

---

(١) لغة العرب وكيف ننهض بها، ٢٥.
(٢) وحي الرسالة، ١/ ٣٥١.
(٣) انقراض اللغة العربية.
(٤) التعليم في العربية، ١٠٢.
(٥) تعريب العلوم ودوره في التنمية في الوطن العربي، ٦٥.

خمس سنين، ولا يوزع إلا في عدد قليل جدا من البلدان العربية، على حين يغزو الكتاب الإنجليزي والفرنسي العالم، وتباع منه ملايين النسخ، أو آلافها، ولا يزيد معدل نفاده على سنتين[1]. ومن دخل مكتبة من المكتبات العامة في الوطن العربي، علم قلة من يغشاها من القراء والباحثين؛ وعَلِم حال القراءة فيه، وما يعني الكتاب لجمهور العرب، فقد دخلت كبريات المكتبات في كبريات العواصم الثقافية العربية، فما وجدت في أكثرها غير العاملين فيها: دخلت مكتبة دار الشروق، ومكتبة مدبولي، ومكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودرت على مكتبات سور الأزبكية، بالقاهرة، فما وجدت فيها أحدا البتة، ودخلت مكتبة دار المعارف بالقاهرة، فما وجدت فيها غير شخص أو شخصين، ما أدري أكانا مرتادين، يبغِّيان الكتب، أم هما من صديق العامل فيها، وهو ما ظهر لي يومئذ. ودخلت كبريات المكتبات في الأحباس بالدار البيضاء، فما وجدت فيها أحدا، وما وجدت في دار الأمان بالرباط، وهي أكبر مكتبة بالمغرب، غير شخص أو شخصين، وما وجدت فيما ارتدت من كبريات المكتبات في تونس أحدا، وأُغلقت مكتبة العبيكان فروعها كلها في المدن السعودية، فيما قيل لي، وكانت من أنشط المكتبات في النشر والتوزيع، وكثيرا ما كان الباحث يجد فيها ما يريد، من جديد الكتب وقديمها. أما مكتبات الجامعات، فتصفر غالبا من الرادة طوال العام الدراسي ولا يكاد يدخلها إلا قلة قليلة من الطلاب «الجادين» الذين يُبَغُّون الأمكنة الخالية؛ ليراجعوا فيها دروسهم قبيل الامتحان بساعة أو ساعتين، فيجدون فيها من السكون ما يغريهم بارتيادها، كلما أرادوا مراجعة. أما غير هذه القلة من الطلاب، فربما كانوا يجهلون مكانها، ومن عرفه منهم، فما يعرفه لأنه دخلها يوما، وإنما لقربها من مرفق من مرافق الجامعة الشهيرة. ومع هذا يطالب الطلاب أن تكون العامية هي اللغة التي تدرَّس بها العلوم[2]؛ لأنهم ألفوها، وصاروا يستثقلون العربية الفصحى، أي إنهم يؤثرون اللغة التي فعلت

---

(١) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ١٥٢.

(٢) انظر: لغة الخطاب التعليمي الجامعي بين إيديولوجيا العامية وإيديولوجيا العولمية، ١٠٤، وتصورات الطلاب السعوديين حيال اللغة العربية، ٢٨١.

بهم هذا ونحوه على اللغة التي هي علاج ما بهم.

ولا تحرك الحكومات العربية ساكنا لتغيير هذه الحال، كأنها لا تدرك ما يترتب على تمادي وسائل الإعلام فيما هي فيه، أو تدركه، ولكنها لا تباليه، أو ترى أنه لا يعنيها، وكأنما حسْبها أن يكون لها إعلام، بغض النظر عما يفعل بالشعب، كما أن حسبها أن يكون لها مدارس وجامعات بغض النظر عما تفعل. وهي سياسة، لا تختلف عن سياستها تجاه اللغات الأجنبية: تسارع في تعليمها، وتنفق عليه الأموال الطائلة، ولا تلقي بالا لانتقاد من ينتقد عليها ما تأتي، وتسوِّغ للشعوب ما تفرض عليها من تعليمها والتمكين لها بما قد رأينا. وتتبين هذه السياسة في التعليم كما تتبين في الإعلام، فقد احتلت العامية التعليم احتلالا تاما، وأخرجت منه الفصحى، حتى غدا من النادر أن يُرَى من يعلِّم بها، مع أن نظام التعليم في بعض البلدان ينص على أن الفصحى هي لغة التعليم. وإنما مرد ذلك إلى قلة وعي الساسة، وهو أمر يدل عليه اصطناعهم العامية في كل مقام، وتكلمهم بها على كل حال، إلا أن يقرأ أحدهم الورقة، تُكتَب له، يجد من قراءتها عنتا، ولا يصيب إلا فيما لا يمكن الخطأ فيه. وما كان ذلك ليكون شأنهم، ومبلغ علمهم ووعيِهم، ثم يَنْصَبوا في حماية الفصحى، والذود عنها، والتمكين لها.

وقد شك بعض الإعلاميين في أن يكون ما تفعل وسائل الإعلام العربية بالفصحى عفوا، وليس متعمَّدًا لمآرب، يُسِرُّ بها من يقوم عليها، كما قال عمر الزين، مدرِّب فنِّ الالقاء والأداء في لبنان: إن إحدى الفضائيات اللبنانية تقدم التقارير الأخبارية المصورة بالعامية، ضاربةً بأهمية الفصحى عرض الحائط، ومخالِفةً ما تعارفت عليه المحطات العربية من تقديمها بالفصحى، كأنما تتعمد النيل منها بالإساءة والتشويه، متذرعةً بأن العامية أقرب إلى الأذن. وهي حجةُ من لا يعلم، ولا يريد أن يعلم أو يتعلم، وإنما يريد فرض العامية على المستمع والمشاهد[١]. ولعله يعني قناة LBC؛ فإنها من أكثر وسائل إعلام لبنان اصطناعا للعامية ونشرا لها، وإن لم يكن غيرها أمثل منها كثيرا، فقد غدت العامية هي

---

(١) جدل استخدام العامية في الفضائيات اللبنانية.

لغتها الرسمية، التي لا تكاد تعدل عنها[1]. وقال غيره إن أخطر مظاهر العولمة ذات العلاقة بوسائل الإعلام التوسل بها إلى نشر السياسة المعادية للعرب في كثير من الفضائيات العربية التي لا تَخْفَى أسماؤها ومراجعها السياسية، فهي أدوات قوية للاتصال وتبليغ رسالة السياسية الأمريكية الخارجية. وتبلُغ ميزانية الأعمال التي يُكاد بها العرب ٢٥٪ من مجموع الميزانية العامة لتمويل هذه الأعمال[2]. ومن المعلوم أن وكالة المخابرات الأمريكية إنما أنشئت عام ١٩٤٧ لتتولى الجانب الثقافي من الحرب الباردة بين أمريكة والاتحاد السوفييتي، وكان أوَّلَ عمل عملته إنشاءُ واجهة ثقافية، تَعمَل منها لـ«تحصين» العالم من الأفكار الشيوعية، وتمهيد الطريق للمصالح السياسية الأمريكية في الخارج[3]. وأرصدت كثيرا من المال لبرنامج سرِّيٍّ للدعاية الثقافية في أوربة الغربية، كان من ملامحه الرئيسة أن يبدو كأنْ لا وجود له. وكان الذي يتولى الدعاية الثقافية فيه هو «منظمة الحرية الثقافية»، وهي منظمة، كانت لها مكاتب في خمس وثلاثين دولة، يعمل بها عشرات الموظفين، وتُصْدِر أكثر من ثلاثين مجلة، وتنظِّم المعارِض الفنية، ولها مؤسسات إعلامية، وتعقد مؤتمرات دولية، يحضرها رجال مشاهير، وتكافئ العاملين في الفن والموسيقا بالجوائز، وترعى معارضهم وحفلاتهم. وكانت مهمتها «إيقاظ مثقفي أوربة الشرقية من فتنتهم بالشيوعية»، وتوجيههم وجهة أقرب إلى الأسلوب الأمريكي. وكان الذين لا يرتبطون بتلك المنظمة السرية، بوجه من الوجوه، من الشعراء، والكتاب، والعلماء، والمؤرخين، والنقاد، وأهل الفن، في أوربة، بعد الحرب الثانية، قلة قليلة[4]. وقد علمنا أن العقد العاشر من القرن العشرين رفع شعارا جديدا، يلائم الحال التي آل إليها أمر العالم بعد الاتحاد السوفييتي، ونهاية الحرب الباردة، وبدءِ تفرُّد أمريكة بحكم العالم، وتطلُّب عدو، يحل محل الشيوعية، ويقوم بالمهمة التي كان يقوم بها الاتحاد السوفييتي، لتحريك عجلة إنتاج السلاح، وعقْد الأحلاف، وتسويغ التدخل في شؤون الدول، وفرْض ما تريد أمريكة

(١) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.
(٢) اللغة العربية بين العولمة والأصالة، ٣٨١.
(٣) من الذي دفع للزمار، ١٣.
(٤) السابق، ٢٣ وما بعدها.

عليها، فكان ما يسمى «صراع الحضارات»، وصار هذا «الصراع» فكرة ذائعة بعد الحرب الباردة، إذ جدَّت الحاجة إلى ما تُجَيَّش به الشعوب وتستثار، وليس له معنى وراء ذلك. وكان مما تبع ذلك جعلُ الثقافةِ العربية عدوا للثقافة الغربية، كما جُعِل العرب خلفاء الاتحاد السوفييتي في عداوة أمريكة، و«العالم الحر»؛ فلا بد من القضاء على ثقافة العرب قضاء لا حياة لها بعده أبدا؛ فأخذت أمريكة ومخابراتها تصفها بالإرهاب، وتسعى في استئصالها كما تسعى في استئصال «الإرهاب»؛ لأن الثقافة العربية هي وقوده[1]. ومقتضى جعل الغرب العالمَ الإسلامي على خارطة الصراع مكان الاتحاد السوفييتي أن يحوَّل برنامج عداء السوفييت إلى برنامج عداء للعالم الإسلامي، وهذا يعلل أن قنوات ناطقة بالعربية تتخصص في تدمير العربية، على الوجه الذي يشير إليه بعض المحللين والإعلاميين؛ لأنها لغة العدو الجديد الذي صنعته نظرية صراع الحضارات[2]، والعربية أعظم ركن من أركان الثقافة العربية، وهي -إلى ذلك- وعاؤها، ووعاء التراث الإسلامي، وحصن العرب الباقي[3]، وكل نيل منها نيل مما توعي، واقتحام لذلك الحصن. وهي خطة قديمة قدم الاستعمار الغربي، كما قد رأينا، وإنما الجديد منها بعض الوسائل والأساليب، والجد في الإجهاز عليها، وقد أعان قدم تلك الخطة، وطول العمل بها على اكتساب خبرة عظيمة، أفادت منها الحرب الجديدة في بلوغ ما أرادت، وهذا سبب أن ما آل إليه أمرها في العقود الثلاثة الأخيرة، ولا سيما ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، أسوأ مما نالها طوال عهد الاستعمار، هذا إلى أن انتصار الغرب -ولا سيما أمريكة- في الحرب الباردة، وتحكُّمها المطلق في السياسة العربية، جعلها تتصرف فيها كيف تشاء، بعد تدمير العراق عام ١٩٩١، وتدميره الثاني واحتلاله عام ٢٠٠٣، وأتاح لها أن تتصرف في شؤون العرب كيف شاءت، على الوجه الذي يبلِّغها ما تريد؛ لأن ساسة العرب لم يبق منهم من ينكر الظلامة، أو يخالف، فضلا عن أن يعصي أو يمانع؛ فكان من اليسير أن تَصنع بالعربية ما تشاء، وتوجه الثقافة والسياسة

---

(١) خرافة التقدم، ٣٢، والعولمة والإرهاب، ٨٨.

(٢) إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، ٩ وما بعدها.

(٣) الأستاذ بدرو، بك لغة الضاد تفخر.

العربيتين حيث تريد. ومن آثار ذلك التي لا خفاء بها رِدَّةُ العرب الجماعية عن التعريب، بعد إقبال بعضهم عليه بعد الاستقلال. ولعل مما صرَف العرب عن فهم الواقع الجديد ما أَلِفوا من الحرب التي تشن عليهم طوال القرنين التاسع عشر والعشرين في كل شأن من شؤون الحياة، وأن الحرب على السوفييت لم تشغل عن تلك الحرب، ولا قلَّلت منها، ولا شعروا يوما أنهم أقرب إلى الغرب من السوفييت، على ما كان يعلن به الغرب من عداوة السوفييت، وما كان يتوسل بالعرب ودينهم إلى تدميرهم ومحاصرتهم. وهذه الحرب يساندها منذ القرنين الماضيين بعضُ دعاة التغيير في جوانب من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ممن ربطوا التغيير بالخلاص من العربية، في صورتها المعهودة[١]. ولم يدرك العرب أن العرب بعد الحرب الباردة ليسوا كالعرب في إبانها، ولا كالعرب أيام الاستعمار، وأن وسائل الحرب التي تشن عليهم اليوم ليست هي وسائل الحرب التي كانت تشن عليهم يومئذ، ولأنهم لم يدركوا ذلك، لم يُعِدُّوا لهذه الحرب العدة التي تلائمها؛ ولسوف تكون العواقب وخيمة جدا، إذا لم يتداركوا أمرهم؛ لأن ما يراد بهم أسوأ بكثير مما كان يراد بالاتحاد السوفييتي.

وتجاوزَ بعض الكتاب والإعلاميين من العرب، ولا سيما اللبنانيين، استعمال العامية في كل مقام، كان يُحظر على غير الفصحى إلى تسويغ ذلك بزعم أن الفصحى لغة ميتة، وأن العدول عنها إلى العامية عدول عن الأموات إلى الأحياء؛ لأن الميت لا يصلح وسيلة للبيان عن الحياة، ولا سيما الحياة المعاصرة، وأن العرب ليسوا بأمة واحدة؛ فيجب أن يُحَرَّروا من ذلك الوهم، ليعدلوا عما يحرصون عليه من وحدة اللغة. وهم يدافعون عن هذا الرأي، ويجدُّون في نشره[٢]. وفيهم من يود لو جاء اليوم الذي «تَنتهي فيه هذه اللغة الثقيلة على نفسه، العصية على فكره»، ويرى أن على اللبناني أن يعمل ما في وسعه لنشر لهجته في الأقطار العربية[٣]. ويدعو أشدهم غلوا إلى لغة لبنانية

(١) الأستاذ بدرو، بك لغة الضاد تفخر.

(٢) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.

(٣) أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية، ٣٢.

متميزة في أصواتها وتراكيبها ودلالاتها، والحروف التي تكتب بها، ويدعو أقلهم غلوا إلى لهجة لبنانية متميزة من لهجات سائر أهل الشام. وكتب بعضهم بهذه اللهجة الأشعار والقصص، والبرامج الإذاعية، والتلفزية، والمسلسلات الخيالية (السينمائية)، والمسرحيات[1]. ودعا بعضهم إلى لغة، سماها اللغة الثالثة، وهي لغة مشتركة، تولدت من المدرسة والصحافة والإذاعة والسياحة والتجارة والتقارب السياسي، والتعاون الاجتماعي. وغرض اصطناعها المعلن تجنيب المتكلم «عنتَ» الإعراب، أما غرضها الحقيقي، فإماتة الفصحى، وإحلال العامية محلها؛ لأن هذه اللغة ليست بعربية فصحية ولا صحيحة، ولأن العربية إذا سُلِبت الإعرابَ، صارت لغة أخرى، وفقدت جمالها ومزاياها الإيقاعية، وبعض مزاياها البيانية، وصارت مسخا، سرعان ما سيُنتَقل منه إلى العامية الصريحة. وهي لا تحلُّ إشكالا؛ لأن مبناها، في أحسن الأحوال، على الكسل وتسويغ الجهل. والجهل والكسل هما اللذان حملا بعض من يتعاطون الكتابة على ما سَمَّاه «تصالح العامية والفصحى»، بمزجهما لتقريب العاميات بعضها من بعض، وتقريبها من الفصحى العصرية الميسَّرة المكتوبة[2]. وهو ضرب من العبث، لا يخفى ما فيه من ضعف المُنَّة، إذ يدعو إلى استحداث لغة عامية مشتركة بين العرب، وتنكُّب العربية الفصحى، وهي لغة عتيدة مشتركة بينهم منذ مئات السنين، ويفهمونها جميعا، وهي لغة دينهم وتراثهم، يَدعونها إلى مسخ، ليست له ذاكرة، ولا تراث، ولا يصلح لشيء، إلا أن يَرفع الحرج عمن يُوزِعه الجهل وفرط الجرأةِ والثقةِ بالوهم بالتفكير في أن يكون كسله وجهله مما يلتقي عليه العرب! وقد تركت هذه الدعوة آثارا قوية في الإعلام اللبناني، واستجابت لها ثلة من اللبنانيين، كيوسف الخال، وبعض المصريين، كتوفيق الحكيم[3].

وتجاوز تأييد العامية وإحلالها محل الفصحى النقاشَ إلى الحسم بتغليب العامية، بعد أن اصطنعت القنوات الفضائية العاميةَ، في بعض برامجها الثقافية،

---

(١) لغتنا العربية والسياسة، ٣١ وما بعدها.

(٢) كي لا تموت لغتنا العربية.

(٣) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.

وترجمت إليها أفلام الصور المتحركة للأطفال، واصطنعتها في بعض نشرات الأخبار السياسية، وأوعزت إلى المراسلين أن يذيعوا بها، بعد أن كانت الأخبار وقفا على الفصحى[١]. وهذا يصدِّق ما يغلب على الظن، من أن القضية ليست بعفوية، وهو أمر لا يَخْفَى على من يشاهد بعض الفضائيات العربية، ومذيعيها من أول مرة، لا يخفى عليه أنها أسقطت الفصحى من برامجها عمدا، وأنها تتعمد تجاوزها، إذ أعرضت عن استعمالها في برامجها ألبتة. وقناة LBC مثال لذلك، فهي تزدري العربية في بعض البرامج كبرنامج «لماذا»، فإنه يريد ليَغْلِب الحرفُ اللاتينيُّ الحرفَ العربي، وإن كان يُخرج ذلك مُخرَجا هزليا، يُنْسِي حقيقة ذلك الازدراء، والاستهانة بالعربية، فيكتب النص العربي بالحرف اللاتيني على الشاشة، ويترجمه ترجمة هزلية، يتبيَّن فيها التلاعب بالعربية[٢].

إن الإصرار على اصطناع العامية في وسائل الإعلام أسلوب من أساليب النيل من الهوية العربية، يتغيا تقطيع ما بين العرب، وإحداث فوضى لغوية مقصودة، خرجت من دائرة العفوية إلى دائرة التخطيط، وقد بدأتها قناة LBC، أكبر مؤسسة إذاعية مرئية في لبنان، وهي الناطقة باسم القوات اللبنانية التي كان يرأسها بشير الجميِّل، وكان بشير يتعمد في كلامه الرسمي استعمال العامية، حتى بعد أن انتُخب رئيساً[٣]. وقد أعانها على ذلك وعلى إرساخ نهجها انطلاقتها المدروسة بإتقان، وتميُّزُها الإعلامي؛ بما تستعمل من أساليب حديثة، وغناها، وما يقدِّم لها أثرياء اللبنانيين والأجانب من المال؛ حتى صارت مثلا يحذو به كثير من الإذاعات والقنوات الفضائية[٤]. ثم تابعتها الإذاعات اللبنانية، فقد شاع فيها ما يسمى «اللغة اللبنانية» أو «اللغة العامية اللبنانية»، التي يريدها بعض اللبنانيين -كسعيد عقل، ومَن وافقه من الاتجاه اللبناني- لغة للقومية اللبنانية، فهي إذن مشروع مضاد للفصحى، من غاياته تفتيت العرب، وعزل بعضهم عن بعض باصطناع العاميات لغات رسمية. ومن آثارها في الإعلام اللبناني أن العامية صارت تعم مجمل برامج إذاعة «لبنان الحرّ»، وهي تذيع نشرة الأخبار

---

(١) اللغة العربية والإعلام: الواقع والمأمول، ٢٣٠.
(٢) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.
(٣) الموضع السابق.
(٤) الموضع السابق.

وموجزاتها وملاحقها باللهجات العامية، أو «اللغة الثالثة»[1]. وقد صيرت هذه الوسائل العامياتِ لغات، تهدد العربية الفصحى، بعد أن صارت نسبة ما يقدَّم من برامجها بالعامية منطوقا ومكتوبا ٩٠٪[2].

وقد تولى الإعلام المصري كبر عداوةِ العربية، وإخراجها من الحياة، واستبدال العامية بها، فهو أقدم إعلام نحا هذا المنحى، وبسبب اصطناعه العامية، وتنكبه العربية في الخيالة، والتلفاز، ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية غزت العامية البيوت العربية، وسنَّ للإعلام العربي كله سنة غير حسنة، ومنه الإعلام اللبناني، فإنما هو ربيبه في ذلك[3]. وما يزال الإعلام المصري من أشد الإعلام العربي إمعانا فيه، حتى غدت العربية الفصحى فيه غريبة، ومن المستبعد أن تعود إليه، إلا أن تُجْعل لغةَ مسلسل تاريخي، سيئ الإخراج، تدل لغته وإخراجه على قلة علم كاتبه ومُخْرِجه بالتاريخ والأدب العربيين، وأنه إنما يسخر من العربية، ويتعمد اطِّراحها والنيل منها، وأنها عادت غير قادرة على تجاوز هذا ونحوه، ولا تصلح لشيء، كما لا يصلح الأشخاص المُمَثَّلون الذين يتكلمون بها لأن يكونوا من أهل هذا العصر. وإذا زيد في هذا ما هو معروف في تاريخ الخيالة المصرية من تعمد السخرية من العربية الفصحى، ومن يتكلمون بها، كالمأذون الشرعي، حين يُخرَج في زي شاذ عن محيطه، يجعله -وهو يتكلم بالفصحى- موضع سخرية، وما تصنع وسائل الإعلام الأخرى من تعمد عرض الأشخاص الذين يزاولون العنف باسم الإسلام، بعد كل عمل، وهم يتكلمون بالعربية الفصحى، والشخص الأنكد النكد الذي يتكلم بالعربية، على وجه يفسد متعة غيره من الأشخاص الذين يتمتعون بالحياة ولهوها[4] -رَجَح أن اصطناع العربية الفصحى في بعض المسلسلات التاريخية يُقصد منه السخرية منها أيضا وممن يتكلمون بها. وقد اصطنع الإعلام العربي العامية لغة للخيالة فيما أنتج من الأفلام إلا ستة أو سبعة، من أربعة آلاف فيلم[5]، وهو عمل، لا يمكن

---

(١) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.

(٢) بين العامية والفصحى، ٢٠٦.

(٣) الموضع السابق.

(٤) اللغة العربية والإسلام فوبيا: من رهاب الدين إلى رهاب اللغة، ٦٨ وما بعدها.

(٥) لننهض بلغتنا، موقع مركز نماء للبحوث والدراسات.

حمله إلا على تعمد إخراج العربية الفصحى من الثقافة العربية، بل من الحياة العربية العامة كلها. وبسبب هذا صار بعض العوام في أقطار المغرب العربي -ممن تعودوا رؤية الإعلام المصري وسماعه- يظنون أن اللهجة المصرية هي العربية المشتركة بين عرب المشرق كلهم، فإذا خاطب أحدهم شخصا من أهل المشرق العربي خاطبه باللهجة المصرية، فتكلف نطق القاف همزة، والجيم گافا، ظنا منه أن ذلك هو الذي يعين على أن يُفهم كلامه. ولو اصطنع الإعلام المصري العربية الفصحى بدلا من العامية لكان رسولَ الوحدة إلى كل بيت عربي، وسببا إلى جمع شمل العرب، والتقريب بينهم، وإذابة لهجاتهم في العربية الفصحى. وظهرت بعد الحادي عشر من سبتمبر قنوات مصرية، تبث برامجها كلها بالعامية، تخلط أحيانا بكلمات إنجليزية، حتى نشرات الأخبار، والتعاليق، كقناة دريم، لرجل الأعمال، أحمد بهجت، وبدأ بثها في الثاني من نوفمبر ٢٠٠١، وهي تستعمل العامية في برامجها كلها، إلا نادرا، وقناة o.t.v، وهي للمهندس المصري، نجيب ساويرس(١).

وإذا حُمِل بعض ما تأتي وسائل الإعلام من ترويج العامية وقتل الفصحى على العفوية، لجهل الإعلاميين، وقلة وعيهم، فما ينبغي أن يغضَّ الطرف عن سكوت الحكومات عنه، ولا سيما وزارات الإعلام، فإنه إفساد صريح لهوية أمة، وتقطيع لأواصرها، وإرساخٌ للجهل فيها، وهدْم لما يبني تعليمها، وهدر لما يُنفَق فيه، وما ينفق على الإعلام، ويحول دون أن يصيب الإعلام غرضا مهمًّا من الأغراض التي يراد لها الإعلام في حياة الشعوب. غير أن السياسة العربية، وقِصَر نظرها، واقتصارها على إدارة الدولة بما تيسر، من أكبر أسباب هذا ونحوه، ومن أسباب السياسة اللغوية العربية غير الواعية، وهي التي جعلت كثيرا من أمور الدولة العربية شكليا، ويقلُّ فيها ما هو مبني على أصول أو فلسفة، أو يتغيا غايات جليلة، وما يهيَّأ له من المراقبة والمتابعة ما يقيمه على الجادة، حتى يبلِّغ ما يراد من مثله. ولهذا كثرت في السنين الأخيرة قوانين حماية العربية في الوطن العربي، من غير أن يُعمَل بها، وإنما يُعمَل بما يخالفها، كأنما وُضعت ترضية لمن يعز عليهم أن يؤول أمر العربية إلى ما آل إليه، أو

---

(١) لننهض بلغتنا، موقع مركز نماء للبحوث والدراسات.

إسكاتا لهم، أو إيهاما أن للحكومات من رعاية العربية، وصونها، والغيرة عليها ما ليس حتما أن يكون لها. هذا إلى ما قلنا مرارا، من أن كثيرا ممن يعملون في وسائل الإعلام ومن يستضيفون، لا يعرفون العربية، وليس فيهم من يُخْرِجُه أن يكون مثقفا، أو روائيا، أو مفكرا، أو عالما، أو أديبا، وهو لا يعرف الفصحى، ولا يتكلم بها، وإنما يتكلم بالعامية، وليس في نظام الإعلام ما يُلْزمه التكلم بها، كما ليس فيه ما يحمل المذيع على التكلم بها، ولا ما يزعه عن الخطأ فيها، فإن كان، لم يجد من يحاسبه إذا خالفه؛ فكان -من أجل ذلك- كعدمه.

وما إعلام المغرب من إعلام المشرق ببعيد، فقد دخلت العامية منه ما كان يستعصي عليها دخوله، كنشرة الأخبار السياسية، فقد صار بعض وسائل الإعلام يذيعها بالعامية، كما تفعل تلفزة المغرب الكبير، وقناة نسمة، وهي قناة تونسية، أسست في ٦ مارس ٢٠٠٧، وانطلقت عام ٢٠٠٩، وهي تبث من باريس، وممن يشارك فيها سيلفي برلسكوني، وتتوزع مكاتبها بين تونس وباريس، وتميل في أغلب برامجها إلى إرساخ الثنائية بين العامية والفرنسية، في عنوانات البرامج وأسمائها، ولغة الأخبار، والبرامج الحوارية، وإخراج العنوانات. ولها نشرة أخبار تقدمها في الساعة الثامنة ليلا بتوقيت تونس، بالعامية، أما موقعها، فإنما يستعمل الفرنسية وحدها[١]. وتزعم أنها تخاطب أهل المغرب العربي بفئاتهم كلها، ولا سيما المقيمين منهم بفرنسة، وإيطالية[٢]. ومع هذه القنوات إذاعات وقنوات أخر، منها إذاعة موزاييك التونسية، وبدأت البث عام ٢٠٠٤، وتبث بالعامية ممزوجة بالفرنسية، كقناة نسمة، وعاميتها موغلة في الشعبية، وهي تتعمد ذلك تعمدا، ومثلها في الخلط اللغوي قناة «حنبعل»، وانطلق بثها عام ٢٠٠٥،[٣]. وقد ينتهك بعض وسائل الإعلام الرسمية القوانين الموضوعة لها، كما تنتهك القناة المغربية الثانية المادة التاسعة مما يسمى «دفتر التحملات»، وهو القانون المنظم لبثها، وتنص هذه المادة منه على أن تَبُثَّ القناة برامجها بالعربية والأمازيغية، والحسانية، والتعبيرات الشفوية المحلية المغربية المتنوعة، مع

---

(١) الازدواجية اللغوية في وسائل إعلام بلدان المغرب العربي: دراسة نقدية، ١٨ وما بعدها، والعرب والانتحار اللغوي، ١٥٩

(٢) العرب والانتحار اللغوي، ١٥٩

(٣) السابق، ١٦٨.

المحافظة على سلامة العربية والأمازيغية، ولا سيما برامج الأطفال والجمهور الناشئ، والنشرات الأخبارية، والترجمة المرافقة للأعمال المبثوثة[١]. وتنص المادة الحادية والعشرون على أن تبث كل يوم نشرتين أخباريتين عامتين، في الأقل، بالعربية، ونشرة أخبارية بالأمازيغية مصحوبة بترجمة عربية مكتوبة، ونشرة بالفرنسية[٢]. وتنص المادة الثانية والثلاثون على أن تجعل ٥٠٪ من شبكتها المرجعية للبرامج بالعربية السهلة السليمة، و٣٠٪ بالأمازيغية والتعبيرات اللسانية العربية واللسان الصحراوي الحساني، و٢٠٪ باللغات الأجنبية. ويمكن أن تخالَف هذه النسب بما لا يزيد على ٥٪ لكل منها[٣]. غير أن القناة تعطي العامية المغربية ٩٢٪ من برامجها[٤]. وتُستعمَل العامية في أكثر من ٩٠٪ من برامج القنوات الفضائية والمَحَطّات الإذاعية الرسمية، وتَستحوذ استحواذا كبيرا على الإعلان المنطوق والمسموع والمكتوب، وتتولى بعض ذلك وكالاتُ إعلان متفرنسة، بالغت في بثّ العامية، لا في الإعلانات السمعية البصرية وحدها، بل في الشوارع: في الملصقات الإعلانية، وألواح الدعاية، من أجل أن ترسخها في عقول المارة[٥].

وقد اتفقت الحكومات العربية في المشرق والمغرب على زيادة حصة العامية في الإعلام، وأمرَ بها بعض الحكام تعبيرا عن جدّه في العمل بها، واحتج لأمره بالتيسير وتقريب ما يُلْقَى في الإعلام إلى الشعب كله؛ لأن العامية أسهل عليه، وأقرب منه، وليس فيها ما يعجزه فهمه، كما أعلن ملك المغرب، محمد السادس بصراحة، وفي غير مناسبة، أن من الواجب مخاطبة الشعب المغربي بالعامية[٦]، وهو تصريح يدل على رضا السياسية الرسمية في المغرب عما تفعل الوسائل الناطقة بالعامية، مع أنه ما جدَّ ما يقتضي أن يُعدَل عن اللغة التي كان يخاطب بها الشعب إلى العامية، وإنما يُفرَض أن الشعب ازداد

(١) دفتر تحملات صورياد ٢، ص٧.
(٢) السابق، ص ١٢.
(٣) السابق، ص ١٦.
(٤) «دوزيم» تشرمل دفتر التحملات و«الهاكا» تقرر التفرج، موقع حزب العدالة والتنمية.
(٥) الفصحى والدارجة في الإعلام، ١٦٨ وما بعدها.
(٦) خلايا حزب فرنسا في المغرب.

-بالتعلم والإعلام- علما، ووعيا؛ فازداد من الفصحى قربا، ولها فهما؛ فغدا من الملائم أن يخاطب بها، لا بلغة السوقة التي تُنْزِل المتعلمين منزلة العامة، وتُبقي العامة على جهلهم، إن لم تزدهم جهلا على جهلهم، بدلا من تثقيفهم والارتقاء بهم. وتحتج وسائل الإعلام العربية لمجاوزتها الحد في استعمال العامية بإرادة تقريب الإعلام من الشعب، وكان احتجاجها بذلك ودعوة محمد السادس إلى مخاطبة الشعب بالعامية بغية التيسير والتقريب في وقت، أو أوقات متقاربة، وبعيدٌ أن يكون ذلك التقارب اتفاقا، أو مجرد توارد خواطر، وأقرب منه أن يكون من وحدة المصدر المؤثر في السياسة اللغوية العربية منذ ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، ومن سياسة النيل من الفصحى بالعامية المتبعة في الوطن العربي منذ زمن بعيد. وما ينبغي حمل أمر محمد السادس باستعمال العامية على أنه كلام عابر، أو توصية عارضة، فلو كان كذلك، لكان من الممكن أن يقوم به من هو دونه، وإنما ينبغي وضعه مع انتشار وسائل الإعلام الناطقة بالعامية وترخيصها من غير شرط، في سياق السياسة المغربية التي تعتقد أن التعريب سبيل إلى نشر «الإرهاب والتطرف»، وأن شيوع العامية يعين على عزل العربية عن الحياة، وإبعادها عن الناس حتى تُنسَى، فتصير عقولهم في آذانهم؛ فيتجافون عن القراءة، ويقنعون بما يخف عليهم، وهو ما يسمعون، وقناعتهم به معينة على «الاستقرار»، وحجْب العلم والفكر اللذين يورثان الوعي، ويغريان بـ «الإرهاب والتطرف». ومما يؤيد هذا ضعفُ الحجة التي أدلى بها محمد السادس، وتدلي بها وسائل الإعلام، وهي إرادة التقريب، فإن أقلَّ العرب تعلما يتابعون المسلسلات المكسيكية المترجمة إلى العربية الفصحى، وإذاعاتِ الدول الأجنبية، كبريطانية، وألمانية، والصين، وروسية، بشغف واهتمام[1]، ولا يجدون فيها ما يصعب فهمه، فكيف يسهل عليهم فهْم ما تبث الإذاعات

---

(١) مستقبل العربية في سوق اللغات.

الأجنبية، ويصعب إذا بثته الإذاعات العربية، واللغة واحدة، مع أن أكثر ما تبث وسائل الإعلام من القرب والسذاجة بحيث لا يحتاج إلى تقريب أو إيضاح؛ فليس بعلْم، ولا فكْر، ولا فلسفة، وإنما هو أحاديث في شؤون الحياة العادية، وما ارتفع منه عن ذلك كان في أمور، ليس في لغتها ما يخفى على عربي، وإن كان أميا. هذا إلى ما هو معلوم من أن هذه السياسة جزء من خُطَط منشورة، وغاياتها معلنة، وآثارها بادية في حياة العرب العامة والخاصة، منذ الحادي عشر من سبتمبر. وقد لمح إلى ذلك الشيخ محمد مهدي شمس الدين: إنَّ ما يجري في التلفزة الرسمية ليس مجرَّد انفتاح حضاري وثقافي، وإعلام، ولغة، وحرية، واقتصاد، بل هو سياسة موجهة من الخارج، وقد يكون بعض اللبنانيين مواطئا لها، وهي سياسة، غايتها إفساد الشبان اللبنانيين والعرب والمسلمين، وغرس بذور الجريمة والعنف، وتحطيم الأسرة؛ لأنَّ هذا العمل يوافق ما يسمَّى «نظام الشرق الأوسط الجديد»، أو «مفاوضات السلام»، ويراد به غسل أدمغة الشباب؛ ليكونوا قطيعاً مطيعاً. هذا إلى أنَّ كثيرا من محطات التلفزة يعرض أفلاماً تروِّج في باطنها للفكر الصهيوني والحركة الصهيونية، في مظاهرَ بريئة[1]. وقد كان من وزيرة الخارجية الأمريكة، كوندليزا رايس سعْيٌ في إقناع رؤساء الدول العربية بهذا الاتجاه؛ لأنه جزء من «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، وعلى إثر سعيها ذلك سمحَ كثير من الحكومات العربية بإنشاء إذاعات وفضائيات إقليمية خاصة، تبث بالعامية[2]. هذا إلى ما قد علمنا من أن ما تسميه أمريكة «الإصلاح اللغوي»، أي تغيير العربية الفصحى، وتعميم الإنجليزية والفرنسية جزء من سياستها بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وهو «إصلاح»، تقوم على خططه لجان من خبراء أجانب، وقد كان مما ترتب عليه انتقال بعض الجامعات العربية العريقة من التدريس بالعربية إلى التدريس بلغاتٍ أجنبية[3]، وإجازةُ الحكومات العربية تأسيس إذاعات وفضائيات بالإنجليزية، في بلدان المشرق العربي، وبالفرنسية في بلدان المغرب العربي؛ لتنقل إلى العرب برامج من أمريكة وفرنسة من غير

---

(١) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان.

(٢) الدارجة والعربية، ٩.

(٣) تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي.

وساطة[١]. وقد كثر الإقبال على مشاهدة القنوات الفرنسية حتى فاقت مشاهدتها من الهوائي المقعَّر -البرابول- في دول المغرب العربي ٧٠٪[٢].

وانتهز بعض المتفرنسين من أهل المغرب العربي الحرب التي أعلنها الغرب على العربية عقب الحادي عشر من سبتمبر، فسيَّسوا الدعوة إلى العامية، كما سيَّسوا تعليم اللغات الأجنبية ونشْرَها؛ فتدهور أداء المذيعين والمذيعات، وتراجعت حصة العربية الفصحى في الإعلام العام والخاص، وزادت حصة العامية والفرنسية، وأُنشئت صحافة مكتوبة بالعامية، وقنواتٌ فضائية مخصصة كلها للعامية، والترويج لها، والدعوة إلى تعميمها، وصارت تترجم بها المُسلسَلات الأجنبية في المغرب، مع أن «دفتر تحملات صورياد» ينص على أن تستعمل الفصحى والأمازيغية وحدهما في ترجمة الأعمال الأجنبية[٣]. وأُحدثت مواقع إلكترونية مخصصة لنشر العامية والدعوة إليها والدفاع عنها[٤]. وكان الذين سيَّسوا الدعوة إلى العامية من أهل المغرب تابعين لأساتيذ فرنسيين منهم من يقيم بفرنسة، ومنهم من يقيم بالمغرب؛ لينفذوا سياسة فرنسة الرسمية في المغرب، وسياسة منظمة الفرانكفونية العالمية، وهم الذين سماهم عبد القادر الفاسي «المبشرين اللغويين الفرنكفونيين»، وقد اتخذ بعضهم المغرب مقاما له لخدمة هذه القضية[٥]. وقد أعلنوا على العربية حربا، لا هوادة فيها، في المغرب العربي عامة، والمغرب الأقصى خاصة، وهي حرب تدعو إلى العامية والتمكين لها على وجه لم يسبق له مثيل، وتشارك فيها الكنيسةُ المغربية، وعملاؤها، والمتنصرون الجدد في المغرب والجزائر، وقد ترجموا القرآن الكريم إلى العامية، وزعموا أنهم يريدون تقريب معانيه إلى العامة الذين لا يحسنون العربية الفصحى! وإنما ترجمتهم إياه تتميم لما فعلت أمريكة في كتابها «الفرقان»،

---

(١) مستقبل العربية في سوق اللغات.

(٢) نص الحوار الذي أجرته مجلة «الفرقان» الكويتية مع عبد الفتاح الفاتحي.

(٣) ص ١١.

(٤) انظر: الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٢١، وإشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٧١، والدارجة والعربية، ٩، والفرنكفونية والصراع مع العربية عبر الدارجة بالمغرب، وانظر: المساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني بالمغرب. وذكر بعض الكتاب أنها رخصت لإحدى عشرة إذاعة، أكثرها يبث بالعامية، أو يجمع بينها وبين الأمازيغية (مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، ٤٨).

(٥) الفرنكفونية، أيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي - لغوي، ٧٥، والمسألة اللغوية في تقرير الخمسينية، ١١٣.

وزعمت أنه هو القرآن. وتقوم بجانب مهم من هذه الحرب السفارات وما يتبعها من مراكز ثقافية، تبث العامية، وتقيم لبثها المعارض، والندوات، والحلقات، والمناقشات. ويشارك فيها الأمريكيون المقيمون بالمغرب، كالفنانة الأمريكية إيلينا برينتس، وتَهتمُّ بالعامية المغربية ونشرها اهتماما شديدا، ولها دار، تنشر ما يُكتب بها، وصحيفة بالعامية، عنوانها «أخبارنا اليوم». هذا إلى مواقع مخصصة للعامية، تلتقط كل شاردة وواردة، تُكتب أو تقال بالعامية، وتقدم برامج لتعليم قيادة السيارة بالعامية، وتقدم بها الرسوم المتحركة، وتعلِّم أسماء الأعشاب، وتقوم بالدعاية للأفلام المكسيكية والهندية المترجمة إلى العامية المغربية، وتَعدُّ ترجمتها حدثا تاريخيا عظيما[1]. وفي المغرب إذاعة، تدعى «راديو من الشمال»، تقدم نشرة الأخبار بالعامية[2]، وقنوات، تبث بالفرنسية والإنجليزية[3]، ويصل البث اليومي في إذاعة RTM بالفرنسية إلى ست عشرة ساعة، وأصبح بعض البرامج التي كانت تبث بالفرنسية الصرف تبث بالعامية والفرنسية، وهي برامج هجينة ليست لها هوية[4]. ويقول بعض الباحثين إن المركز السينمائي المغربي والقناة الثانية وسيلتان من وسائل الاستعمار اللغوي الفرنسي في المغرب، فإن من شروط قبول النص المقدم للتمثيل (السيناريو) في المركز أن يكون بالفرنسية، ومنذ إنشائه والمخرجون يكتبون نصوصهم بالعربية ثم يترجمونها إلى الفرنسية لكي تُقبل، والذي يتولى إدارته فرنسي مغربي الأصل. أما مديرة الأخبار بالقناة الثانية ونائبة مديرها، سميرة سيطايل، ففرنسية المولد والمنشأ، ولا تعرف العربية، ألبتة[5]. وبعد إنشاء «الهيئة العليا للاتصال السمعي البصري» بالمغرب عام ٢٠٠٣، أصدرت رخصا لعشر إذاعات، رُخِّصَ لها في منتصف عام ٢٠٠٦، بعضها يستعمل العامية[6]. وتبث هذه الإذاعات في أمكنة شتى من المغرب، لتبلغ دعوتها من استطاعت من الناس.

---

(١) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٢١ و ٣٨ وما بعدها.

(٢) الدارجة في الإعلام والسينما، ٩٠.

(٣) السابق، ٨٧، وعلاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٣٨.

(٤) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٣٩.

(٥) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.

(٦) الدارجة والعربية، ٩، ولغتنا الجميلة.

وتبع الأمرَ باستعمال العامية وترخيص وسائل الإعلام التي تستعملها تغير كبير في السياسة اللغوية الإعلامية؛ فصارت التلفزة المغربية تبثُّ بالعامية السوقية، بعد أن كانت تبث البرامج الثقافية والاجتماعية بالفصحى والعامية الراقية الممزوجة بالفصحى، وسرى الأمر إلى الخيالة، فتذرعت إلى استعمال العامية بالواقعية وحرية الإبداع(١). وتتسم العامية المستعملة في الإذاعات الخاصة بأنها مزيج من «الفرانارِبية»(٢) التي تطرق السمع برنة غريبة، تكاد توحي للسامع أن العامية المغربية تركيب هجين، على غرار المالطية، أو العامية الجزائرية التي كان يُتندَّر بها؛ من أجل أن تُهيِّئ الأذنَ المغربية لتقبل الفرنسية، ويكون ذلك أحيانا بدوافع عقدية، هي تقليل الارتباط بالمشرق، أو لمجرد الفضول، والمزاج، أو العجز(٣). وقد حث بعضهم على استعمال عامية مهجنة من العامية واللغات الأجنبية، كأن يقال: «كليكي على السوري»؛ لأن ذلك أقرب إلى العامية من: «اضغط على الفارة». وإنما غاية هذا الإبعادُ عن العربية ما أمكن، وحشْو المعجم المغربي بما يمكن من المفردات الفرنسية(٤). وإن لم يكن هذا خاصا بالإعلام المغربي، بل هو كثير في الإعلام اللبناني، عامة؛ فربما قدَّم فيه المذيع البرنامج، يستغرق نصف ساعة، فلا يستعمل كلمة عربية واحدة فصيحة، ويجعل نصيب العامية منه ضئيلاً في نصيب الإنجليزية، كأن يذْكر الكلمة العامية ثم يتبعها مرادفَها بالإنجليزية، كأنما يبغي ترسيخ العامية وتعليم الإنجليزية في وقت(٥). ولذلك قال أحد الباحثين إن العربية تُذبَح في كثير من قنوات الإعلام والصحف والمجلات ذبحا منهجيا بدعاوٍ، يختلط فيها السياسي، والعقدي، والاقتصادي، والفرنكفوني، والمصلحة الخاصة والعامة، والكره، والانتقام(٦). وهذا ما يشعر به المرء في حياة العرب بعد الحادي عشر

---

(١) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٣٨.

(٢) لعلها هي الفرنبية، وهي كلمة منحوتة من كلمتي الفرنسية والعربية، ويراد بها لغة هجينة، تكون فيها البنية اللغوية فرنسية وجذور الكلمات عربية، بعكس «العرنسية»، فهي لغة هجينة، تكون فيها البنية اللغوية عربية وجذور الكلمات فرنسية (طروحات حول الثقافة واللغة والتعليم، ٦٦)

(٣) الفصحى والدارجة في الإعلام، ١٧٠

(٤) السابق، ١٧١ وما بعدها.

(٥) اللغة العربية في الدواوين والمخاطبات والمراسلات في المؤسسات الخاصة والعامة في الأردن.

(٦) خمس قواعد للتصالح مع اللغة العربية.

من سبتمبر، في التعليم، والإعلام، والحياة العامة، فقد وزعت هذه بين العامية واللغات الأجنبية، وأصبح المرء يؤنس من الناس كراهيةً بيِّنةً للعربية واحتقارا لها، بالقدر الذي تُخرَج به من الواقع، فهي مهجورة في التعليم والإعلام، والمال والأعمال، والاجتماع، ولا وجود لها إلا في كتب التعليم، من حيث هي قواعد نظرية، تُعرَض عرضا باردا قليل الجدوى، أو يؤلف بها.

وتسعى إسبانية أيضا في استبدال العامية بالعربية الفصحى في المغرب، لا أمريكة وفرنسة وحدهما، فقد جعلت العامية المغربيةَ هي اللغة الرسمية الثانية في سبتة ومليلية المحتلتين، ورفضت أن تجعلها الفصحى، مع أن ذلك هو مطلب أهلهما، وهو ما تقدمت به جمعية مسلمي سبتة إلى مجلس النواب الإسباني[1]، وكان ينبغي أن يكون الأمر فيه إليهم؛ ما دامت اللغة لغتَهم، وهم الذين يستعملونها، دون الإسبانيين، فضلا عما تقتضي مهمة الحكومة من النصح لهم باختيار ما هو خير لهم؛ إذ لم تكن العامية، ولا سيما عامية المدينتين، لغة علم، فجعْلها لغتَهم الرسمية حكم عليهم بألا يكون لهم سبيل إلى العلم إلا الإسبانية، وهو مما ييسر استلحاقهم، وقطع ما بينهم وبين تراثهم وحضارتهم، وما بينهم وبين وطنهم (المغرب)، وما بينهم وبين سائر العالم الإسلامي، كما ييسر طمس هويتهم، وتجريدهم مما يُشْعِرهم بالتميز من الإسبانيين، وما يترتب على الشعور بالتميز من عدم الرضا بالاحتلال. وتجِدُّ مدرسة الترجمة بطليطلة التابعة لجامعة قشتالة بمدريد في نشر العامية المغربية ودراستها، وتقيم مؤتمرات دولية عنها، كان آخرها المؤتمر الرابع في إبريل عام ٢٠١٠[2]. ولعل ما فعل أحد مستشرقي إسبانية، من استعمال العامية المغربية في بعض ما كتب عن العربية، كان تيسيرا لما أرادت الحكومة، من استبدال العامية بالعربية الفصحى في سبتة ومليلية، وعونا عليه، كما أنه جزء من الحرب التي تُشَنُّ على العربية في المغرب. ولإسبانية منافع في المغرب كما لفرنسة، وإن كانت منافع فرنسة وأطماعها أكبر، وتاريخها في هذا العمل أطول وأعرق؛ إذ كل إضعاف للهوية المغربية، أو تغيير فيها يضعف لحمة الشعب، ويجعله أدنى إلى التفكك، ودولته

(١) إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٧٧، والدارجة ضد الفصحى، ٢٢٥.
(٢) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٣٩ وما بعدها.

أقرب إلى الانهيار، وتوزُّعِ الولاء بين الدول التي لها أطماع فيه، ومنها إسبانية، وأقل ما لإسبانية من المصالح في ذلك أنه يؤمِّن جبهتها الجنوبية التي كانت يوما مدخل الفتح الإسلامي، ويطمئنها إلى بقاء سبتة ومليلية في حوزتها. فقد كتب فرانثيسكو موسكوسو غارثية، من جامعة الأوتونومة، بمدريد، مقالا مطولا بالعامية المغربية، عنوانه: «العربية المغربية، اللغة الأم أو اللغة الأصلية: تعليمها فِالمدرسة لتحسين تطور العقليات ؤمهارات الهذرة: القراية ؤالكتابة بالعربية الفصحى». وهو عنوان ليست عليه سيما العلم، كلغة المقال كله، وأكثر مفردات المقال واصطلاحاته فصيح؛ لأن العامية ليس فيها من الاصطلاحات ما يبين عما اشتمل عليه المقال من مفاهيم. ولا يخفى ما في استعماله «ؤُ» حرف عطف، بدلا من الواو، من السخف، واستعماله «الهذرة» مكان «الكلام»، وحذفه الياء من «في»، في قوله: «فِالمدرسة»، بدلا من «في المدرسة»، واستعماله «لقراية» بدلا من القراءة. كما لا يخفى أن ما بين الفصحى والعامية ليس بالذي يزعم الزاعمون من التباعد، وأن العامية ليس لها خط، تكتب به، وأن ما هو مكتوب في هذا المقال إذا رآه المرء لم يقرأه إلا بالعربية الفصحى؛ لأن الكتابة لا تبين عن نطق كثير من الكلمات العامية ولا تصلح لكتابتها، وكان هذا ما حال بين فرنسة واصطناعها لغةً رسمية في المغرب[1]. وانظر إلى قوله: «العالم اللغوي الإسباني لاثارو كارّيطير كا يذكّرنا باللي الأفكار الاولين على أصل اللغة تقالوا فالقرن الخامس قبل ميلاد المسيح ؤهكذا خلقوا زوج نظريّات اللي بقاوا حتّى اليوم ؤهم «الأصل الإلهي» اللي كان كا يدافع عليه هيراقليطس ؤ»الأصل المتّفق عليه» اللي كان كا يدافع عليه ديموقريطس حيث الإنسان محتاج بالاتّصال. هذ الزوج ديال النظريّات كانوا مشهورين مع مرور الزمان بفضل إفلاطون ؤأرسطو. فِالماضي ؤُفِالحاضر بعض اللغات سيطروا على غيرهم ؤولّوا بحال جهاز باش يقهر لغات أخرى اللي ما كانتْ ش محتمية بسلطات سياسية ؤلا دينية. القشتالية سيطرَت على العربية ؤباقي اللغات ديال اسبانيا ؤالعربية اللي كتبوا بيها القرآن سيطرت على خواتاها العربية ؤاللغات الأخرى اللي كانت

---

(١) من ديوان السياسة، ٥٦.

تهذرت فالآراضي المفتوحة، بحال الأمازيغية فشمال إفريقيا»[1]؛ فإنه مهزلة أن تكتب البحوث العلمية بكلام العوام، فتتنكب المفردات العلمية الشهيرة التي يعرفها الناس جميعا، ويقرؤها العارف بالعربية من العرب وغيرهم، أينما كان من العالم، إلى مفردات لا تصلح إلا لحياة العامة وشؤونهم، ولا يعرفها إلا أهل قطر بعينه، ولا يستطيع غيرهم أن يفهم ما خالف الفصحى منها أو ينتفع به. يُفْعَل ذلك لغير حاجة أو داعٍ، فالعربية الفصحى معروفة عند العرب كافة، ومن اليسير عليهم أن يكتبوا بها، بل الكتابة بها أيسر عليهم من الكتابة بالعامية، للتعود، أولا، ولأنهم عهدوا العامية للتواصل الشفهي، لا للكتابة، ولا سيما كتابة البحوث العلمية، ثانيا. وهم إذ يكتبون بها إنما يخاطبون أمثالهم من المثقفين والمتخصصين الذين يفهمون ما يريدون أفضل مما يفهمون العامية، أما العوام الذين قد يُدَّعَى -خداعا- أن المراد بهذا ونحوه تقريب العلم إليهم، فليس من المعهود أن يقرؤوا الكتب والبحوث العلمية، ولا سيما ما يُنشَر منها في الدوريات العلمية المتخصصة. ومن الطريف أنه استعمل كلمة «زوج» بدلا من «جوج»، ربما لشعوره بأن الكلمة غير ملائمة للبحث، أو أن بعض من يقرؤها من أهل المغرب ربما لا يفهمها، وكان ينبغي أن يفعل بسائر الكلمات مثل ما فعل بـ «زوج»؛ لأن من غير المتوقع أن يفهم كثيرا منها من يراه مكتوبا أولَ مرة. وفي القضية جانب آخر من الطرافة، أن لغة المقالة غير مستعملة في المغرب ولا في غيره من البلدان، فالعامية المغربية لا يقال فيها: «كانوا مشهورين مع مرور الزمان بفضل إفلاطون»، ولا يقال: «حيث الإنسان محتاج بالاتصال»، وما شاكلهما من الجمل التي هي أكثر المقالة، وهذا يعني أنه يصنع لغة، لا هي بالفصحى، ولا هي بالعامية. وهو يدل على أمرين: ما يركب الذين يريدون أن يتجهوا بالعرب هذه الوجهة من السخف والشطط لصرفهم إلى ما يريدون، وما يريدون أن يصير إليه العرب من السخف والسذاجة، إذ يستبدلون العامية، لغةَ الجهل والجاهلين بالعربية الفصحى، لغة العلم والعلماء والحضارة! ثم إن من دأْب العلماء والباحثين أن يتطلبوا لما يكتبون أذيع اللغات في العالم، ويلتمسوا من أوعية النشر العالمية أكثرها قراءة، ليطَّلع عليه أكثر الناس، ولا سيما

---

(١) العربية المغربية، ١٥٣.

المتخصصين، أما اللغات الميتة، واللغات التي لا يعرفها إلا أهل إقليم بعينه، فما يتطلبها إلا من يريد أن يدفن علمه وفكره، ومن أراد دفنهما، فلن يجد خيرا من عدم كتابتهما. ومن المؤكد أن هذا الإسباني يفضل نشر بحوثه بالإسبانية والإنجليزية والفرنسية على نشرها بالباسكية والقطلونية. ولو كتب أهل المغرب بحوثهم باللهجة التي كتب بها مقاله هذا ما قرأ لهم إلا أهل المغرب وحدهم، وما كانت لهم المكانة العلمية المرموقة في الوطن العربي، ولا حصدوا من جوائزه ما حصدوا، ولا نزلوا من قلوب أهله ما نزلوا، ولا كان لهم من الإشعاع -قديما وحديثا- ما كان. وإذا سأل المرء: لمن كتب هذا المقال؟ لم يجد إجابة شافية، فهذا لإسباني لا يخاطب به الإسبانيين؛ لأن من يعرف منهم العربية إنما يعرف الفصحى غالبا، وهي التي قرأ بها ما قرأ من التراث العربي الإسلامي، وفهم ما كتب بها أيسر عليه من فهم العامية، وفي حوزته ما يعينه على فهم ما لم يفهم منها، ككتب اللغة، والمعجمات، فمن الخير له أن يخاطب بها. وهو لا يخاطب العرب؛ لأن من يقرأ منهم مقاله هو الباحثون المتخصصون ومن في حكمهم، فقط، وقراءته بالفصحى أيسر عليهم وأحب؛ لأنها هي ما تعودوا، ولا يجدون مشقة في كتابتها، بخلاف العامية؛ فإن أهلها يعسر عليهم فهمها إذا كتبت؛ لأنهم ما عهدوها مكتوبة، وإنما يعرفونها منطوقة، وليس من دابهم أن يكتبوها. وإذا صح هذا تبين أن كتابته المقال بالعامية إما عبث، وهو بعيد، وإما محاولة لاستمالة غيره إليها، وتجريئه عليها، وهو أمر لا يستميل إلا من يريده بابا للرزق.

وتدار حرب العامية في المغرب العربي على وجه آخر منذ أول العقد المنصرم، بعد أن أخفقت في إبان الاستعمار الفرنسي، كما أخفقت في سائر الأقطار العربية، هو محاولة جعلها لغة التعليم الرسمية، ولا يُكتفَى بأن تكون لغة التعليم بحكم الواقع؛ لأن جعل العامية لغة رسمية يعني إزاحة الفصحى بالقانون، وعدم الاكتفاء بإزاحتها بالعمل وحده. ويسوَّغ ذلك بأن العامية أيسر على التلميذ، وأعون له على التعلم، كما يُدَّعى أن استعمالها في الإعلام يقرِّب مضمونَه إلى الجمهور. ويتولى هذه الدعوة أناس متفرنسون، بعضهم وزراء، كنورية بن غبريط، وزيرة التربية الجزائرية، فقد حاولت أن تجعل العامية لغة

التعليم الابتدائي في الجزائر، بيد أنها قوبلت بمعارضة من الشعب، جعلت رئيس الوزراء يحول بين مشروعها والتنفيذ. وكان قرارها ذلك عقب مؤتمر لوزارة التربية الجزائرية في ٢١ يوليو عام ٢٠١٥، انتهى بتوصيات، أهمها تدريس الأطفال الذين هم بين الخامسة والسادسة باللهجات العامية، بحسب أقاليمهم، متعللين بأن الأطفال الصغار لا يستوعبون العربية في هذه السن، وأن تهييئهم لتعلُّمها في السنة الثانية الابتدائية يكون بتقوية رصيدهم من العامية. وقد نفَّذت الوزيرة توصيات المؤتمر، وصيرتها قرارا حكوميا، بغير علم من رئيس الجمهورية، وهو وحده صاحب القرارات التي تَحْسِم توجُّه المجتمع والدولة[1]. ومسارعتها إلى إمضاء التوصيات، دون أن يطَّلع عليها الرئيس مما يحمل على الارتياب في دوافعها، كما يحمل على الارتياب في أمر اللجنة، وأنها هي وما قررت ربما كانا من خطط «الحكومة الخفية» في الجزائر. وسوَّغت الوزيرة قرارها بإرادة تقريب المعرفة إلى التلامذة الجدد، استعداداً لتعليمهم العربية الفصحى في الأطوار اللاحقة؛ فإن التلامذة يصطدمون بالعربية الفصحى ومعظمهم لم يتعود التكلم إلا بواحدة من اللهجات العامية المتأثرة بالفرنسية، أو الإسبانية، أو الأمازيغية[2]. وقالت: إذا كانت في الطور الابتدائي نسبة إخفاق، فإنما ذلك بسبب طريقة نقل المعارف، واقتراح التعليم بالعامية كان نتيجة مناقشة ثرية في مؤتمر الوزارة، وقد أجمع المختصون على أن تعليم الطفل يجب أن يكون باللغة الأم، وأن استعمالها في تعليمه يطور جزءًا كبيرًا من عقله[3]. وقالت إن التحول إلى العامية مدفوع بدوافع تربوية بحت، ولا يراد به إنزال العربية دون منزلتها التي أنزلها الدستور، لغةً رسمية منذ الاستقلال عام ١٩٦٢[4]. وهي حجج يصطنع ظاهرُها العلم، غير أنها تخالف ما يجمع عليه المهتمون بالتربية والتعليم، من وجوب أن يتجنب المدرس استعمال لغة المتعلم إبان تعليمه لغة أخرى، حتى يألف الطفل تراكيب اللغة التي يريد تعليمه

(١) التراجع عن التعريب في الجزائر يخدم الفرانكفونية.
(٢) اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية.
(٣) الشعب يريد إسقاط بن غبريط.
(٤) اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية.

إياها[1]، فإن الأطفال يمكن أن يكلَّموا بالعامية في الأمور العادية، ويدرَّسوا بالعربية الفصحى الميسَّرة التي تلائم عقولهم، إن أريد لهم أن يكتسبوها اكتسابا يجعلها كاللغة الأم، وهو المعمول به في الدول الأوربية[2]. هذا إلى أن ما بين الفصحى والعامية من خلافٍ يسيرٌ، ولا يحول دون فهم التلميذ ما يريد المدرس، إذا كلَّمه بالفصحى، ومن الخطأ أن يُظَن أن الطفل يقضي وقتا طويلاً من أجل أن يتعلم الفصحى، ويفهم النصوص والحوار، والمواد الرياضية والعلمية، فإنما هذا وهم، فالطفل يدخل المدرسة في السادسة من عمره برصيد لغوي عظيم، بعد أن يكون قد امتلك ناصية اللغة في سنته الرابعة، فلا يُعْوزه منها إلا مزيد من المفردات، والتدرُّب على صياغة جمل أكثر تعقيدا من الجمل البسيطة التي كانت تفي بحاجاته من قبل[3]، وهو، إذ يعلَّم بالفصحى، لا يعلَّم بلغة يجهلها، وإنما يعلَّم بأداء من أداءي لغته، يراد أن يتعوَّده، ومن الملائم أن يُعوَّده في الصغر؛ إذ كان العلم في الصغر كالنقش في الحجر، وهو في هذه السن يكون مقتدرا على تعلم اللغة واكتسابها أكثر من كل سنٍّ أخرى، وأكثرَ من اقتداره على تحصيل المعرفة. وتبدأ هذه السن من اليوم الأول من حياته إلى السنة العاشرة، ويكون حينئذ قادرا على الكشف عن قواعد اللغة بنفسه، وعن حدود المفردات، ومعانيها، فهمًا، وإنتاجًا، كشفًا غير واعٍ، فإن أتيح له أن يسمع اللغة، أمكنه أن يتقنها فهْما وتكلُّما، بسهولة[4]. فصرْفه إلى العامية، تفريط في استعداده، وحؤول بينه وبين أن يكتسب الفصحى اكتسابا يدني معرفتَه بها من معرفته بالعامية، وهو خطأ من أخطاء التعليم في الوطن العربي، أرادت خطة جان دوبياس، وخطة وزيرة التعليم الجزائرية، أن تشرِّعه، وتسوِّغه بحجج، تنتحل لها العلمية، وكذلك فعل ميثاق التربية الوطنية المغربي، كما سوف نرى. ثم إن ما يعلَّم بالفصحى في هذه السن مبادئ سهلة يسيرة، تلائم عقل الصبي، كما أن المفاهيم التي يدرسها في هذا الطور كلها كذلك.

وقد أحفظ قرار نورية بن غبريط كثيرا من وسائل الإعلام الإسلامية والعروبية

(١) التبعية اللغوية، ١٠، والدارجة في الإعلام والتعليم ما بين الفكر والاستثمار.
(٢) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١٢٦.
(٣) تجارب في تفصيح العامية، مجلة اللغة العربية، ع ١٠، وأضواء على الدراسات اللغوية، ٦٠
(٤) نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، ٩١ وما بعدها.

والمثقفين الجزائريين، وبعض الموظفين السابقين في التربية والتعليم، وأيدتها الصحافة الجزائرية الناطقة بالفرنسية والمتفرنسون، ودافع عنها وعن سياستها الكتَّاب والروائيون والمثقفون العلمانيون، والأحزاب ذات التوجه العلماني في المعارضة، وقالوا إن العربية فُرضت على الجزائريين، وإن الفرنسية هي المنقذ لوحدتهم، وإن نظام التعليم الجزائري الحالي هو سبب انتشار الغلو، لما يشتمل عليه من مواد، تحثُّ على الكراهية الدينية والإرهاب[1]. كما دافعت عنها وسائل الاعلام الفرنسية كمجلة «جوان أفريك»، وصحيفة «العالم الدبلوماسي» Le monde diplomatique[2]. وما احتج به مؤيدوها مستقى كله من «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، ومما دأب الإعلام الفرنسي على ترديده كلما أريد أن تُنزَل العربية منزلتها في الجزائر. واتهمها بعضُ مَنْ أحفظهم قرارها بتغريب المنهاج، وقالوا إن ما تقوم به تمثيل لأحلام فرنسة بعد إخفاقها مع جيل الثورة[3]، وإن التدريس بالعامية ليس جديدا، وإنما هو خطة قديمة، كان يُتوخَّى لها الوقت المناسب، وهي تريد النيل من عروبة الجزائر، وتفتيتها، ومحو هويتها[4]. والتمس له بعضهم أصلا في سياسة فرنسة اللغوية في الجزائر، في عهد الاستعمار، فقد كانت منذ عام ١٩٠٥، تسعى في استبدال الفصحى بالعامية، وبعد الاستقلال تولى الدعوة إلى العامية بعض الباحثين. وقال عالم الاجتماع السياسي الجزائري، ناصر جابي إن القرار ليس قراراً جزائرياً، وإنما قرر بضغوط دولية، وهو ككثير من القرارات الأخرى التي فرضت في سياق العولمة وسيادة الدول المنقوصة[5]. ومن المعلوم أن اللهجات الجزائرية متنوعة جدا، وبعضها يصعب على أهله أن يتفاهموا به، ولا سيما القرى، فضلا عن بعض الأمازيغيات التي لا يتفاهم أهلها؛ لأن ما بينها من الاختلاف أشد مما بين العاميات العربية، ومن علَّم بها وبالعاميات العربية الجزائرية، جعل الجزائر

---

(١) اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية.

(٢) لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية.

(٣) الموضع السابق.

(٤) مصير وحدة الجزائر، ٩٥.

(٥) اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية.

شعوبا، يُعلِّم كل منها بلغة[1]، أما تخير واحدة منها دون سائرها، فيهدد بوحدة الشعب[2]. ولما كان هذا من الوضوح بحيث لا يخفى على جزائري، كان في حمله على إرادة التيسير على الأطفال ما لا يخفى من الاستغفال؛ ولهذا ذهب بعض الجزائريين إلى أن غرضه ليس تربويا، كما يُعلَن، وإنما أن تكون للجزائر لغات شتى؛ لتُجعل الفرنسية هي اللغة الموحِّدة التي يلتقي عليها المختلفون، كما هي سياسة فرنسة في سائر دول إفريقية، ولهذا عارضه بعض الجزائريين الذين لا يكتبون إلا بالفرنسية، وثاروا على نورية، وقال بعضهم إن الخلاف بينهم وبينها ليس خلافا لغويا، وإنما خلاف عقدي (أيديولوجي)، حضاري، وجودي[3]. هذا إلى مخالفته ما عليه التعليم في العالم، ومنه فرنسة التي يلمِّح العارفون ويصرِّحون بأن خطة نورية كانت من وحيها، فإنها تعلِّم أطفالها منذ العام الأول بالفرنسية الفصحى، وإذا استعمل أحدهم الكلمة من العامية، عُلِّم الكلمة التي تقابلها من الفصحى، وأُمر باستعمالها دون الكلمة العامية؛ لأنها هي التي سيتعلم بها، ويقرأ ويكتب[4]. أما الأقاليم التي تتكلم بلغات غير الفرنسية الرسمية، فيحرَّم على أطفالها التكلم بها في المدارس. ويستدل العارفون من الجزائريين على ما يقولون إنه غاية خطة نورية هذه بأنها كانت تُعِدُّ لتنفيذ «الدفعة الثانية» من «إصلاحات» لجنة ابن زاغو، وكانت نورية من أعضائها الرئيسين، كما يستدلون بأنها كانت تُعِدُّ «إصلاحات»، يشاركها فيها خبراء فرنسيون في سرِّية تامَّة، بمعزل عن الجزائريين، ولكن نورية نفت ذلك، وقالت إن «اللجنة الوطنية للبرامج والمناهج» هي التي تتولَّى المشروع، وأعضاؤها كلهم جزائريون، غير أن وزيرة التربية الفرنسية، نجاة فالو بلقاسم أقرَّت بما نفت نورية، في زيارةٍ لها إلى الجزائر في أبريل عام ٢٠١٦م[5]. هذا إلى ما أقدمت عليه نورية من التحقيق مع معلِّمةٍ، بثَّت فيديو بالفيسبوك، في الصفِّ في أوَّل يوم من أيام الموسم الدراسي، وقالت إن سبب التحقيق أن القانون

(١) جدل اللغة والهوية من جديد في دول المغرب العربي.
(٢) اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية.
(٣) مقترح للتعليم بالعامية يثير جدلا جزائريا.
(٤) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٠.
(٥) رهائن في صراعات اللغة والهوية.

يمنع تصوير الأطفال داخل أقسام التدريس، غير أن الذين أخذوا على نورية ما فعلت بالمعلمة قالوا إن سببه أن المعلمة قالت في شريطها إن «العربية لغة أهل الجنّة». وما كادت قضيَّة المعلِّمة تنتهي حتى كُشِف في منتصف ذلك الشهر أن كتاب الجغرافية استُبدلت فيه «إسرائيل» على الخريطة بفلسطين، فصودر الكتابُ بسرعةٍ شديدة، وغُيِّرت الخريطة[١]. هذا إلى ما يلمِّح إليه الجزائريون ويصرحون، من أن نورية يهودية الأصل، فهي تدعى نورية رمعون بن غبريط، وهو أصل نفته عن نفسها، وقالت إن أصلها أمازيغي، وإنها عربية مسلمة، وحفيدة قدُّور بن غبريط، مؤسس مسجد باريس في العقد الثالث من القرن العشرين[٢]. وقالت لوسائل إعلام جزائرية إنها معتزة بالاسلام، دين أجدادها الذين فروا من محاكم التفتيش النصرانية، أيام سقوط الأندلس عام ١٤٩٢. غير أن روايات كثيرة تقول إنها يهودية من يهود إسبانية الذين استقروا بالغرب الجزائري، ومدينة وجدة المغربية[٣]. وكان بين جدِّها، قدور بن غبريط والشيخ عبد الحميد بن باديس خلاف، لعلاقته بفرنسة، وبسبب هذه العلاقة قُلِّد رئاسة لجنة المسجد الكبير بباريس عام ١٩٢٢، وكان أولَ إمام له[٤]. ولذلك ينبزها بعض الجزائريين ببنت الحَرْكي[٥]، أي عميل الاستعمار الفرنسي. وقد دأب بعض العرب أن يبحثوا لمن تظهر منه عداوة للإسلام والعروبة عن نسب في اليهود، يعللونها به؛ لما يعتقدون من أنهم (أشد الناس عداوة للذين آمنوا)، وأن المكر من ديدنهم وثقافتهم، كما قالوا إن والد مدحت باشا كان حاخاما يهوديا، وإن مصطفى كمال أتاتورك من يهود الدونمة[٦]؛ ليفسروا بأصلهما ما كان من ائتمارهما بالدولة العثمانية، وإسقاط السلطنة الإسلامية، وما ظهر منهما من عداوة الإسلام، وجدٍّ في استئصاله من تركية، مع أن بعض ما فعل هذان فعل مثلَه عرب مسلمون، لا يرقى الشك إلى نسبهم، كالشريف حسين بن علي، فقد

---

(١) رهائن في صراعات اللغة والهوية، والشعب يريد إسقاط بن غبريط.
(٢) الشعب يريد إسقاط بن غبريط.
(٣) لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية.
(٤) الموضع السابق، والشعب يريد إسقاط بن غبريط.
(٥) بن غبريط تصر على بعث إصلاحات بن زاغو.
(٦) رجال اختلف فيهم الرأي، ٧٥.

مالأ الإنجليز على الدولة العثمانية، وأعانهم على إسقاطها واحتلال ما احتلوا من بلاد العرب، وكان مصطفى الأشرف، وزير التربية الجزائري الأسبق عربيا من بني هلال، وكان متفرنسا، ماركسيا، يعادي الإسلام والعربية كما تعاديهما نورية بن غبريط.

ومهما يكن أصل نورية، فإن سياستها في التعليم، منذ تولت الوزارة، تدل على أنها ماضية في تنفيذ السياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية في الجزائر، وأن كل ما تُقدم عليه لا يختلف عما كانت تفعل فرنسة ويفعل حزبها في الجزائر، فقد جدَّت في تعميم تدريس الأمازيغية فيما يزيد على اثنتين وثلاثين ولاية، وأبانت في غير مناسبة عن رغبتها الشديدة في ترقية الفرنسية والأمازيغية لغة وتراثا وثقافة، وأن لذلك عندها أولوية كبيرة، وهجمت في بداية توليها الوزارة على المدارس القرآنية، وقالت إنها دكاكين لتخريج ضعفاء التعليم[١]. وهذا مساوق لكونها كانت عضوا في لجنة ابن زاغو، ولِمَا كَتبت فيما وكلت إليها اللجنة من أعمالها، وهو إعداد تقرير عن «المدرسة والدين»، وقد بينت في تقريرها أثر الدين في نفسيات التلامذة الجزائريين، وخطَّأت وجود الدين المكثف في المناهج الدراسية، ودعت إلى «تجديد» المدرسة. ومعلوم أن هذه اللجنة كان من توصياتها أن التعليم الجزائري خرَّج إرهابيين، اشتركوا في العشرية السوداء[٢]. وهي تصرُّ على بعث «إصلاحات» لجنة ابن زاغو، وعلى التمسك بها، مع ما قابل به الجزائريون هذه اللجنة من رفض، ومع ما ثبت من ضعف التلامذة الذين هم نتاج العمل بتوصياتها[٣]. وهي أول وزيرة جزائرية لا تعرف العربية الفصحى ولا العامية، ولذلك كانت موضع استهزاء الجزائريين وتندرهم، وسخرية من كلامها غير المفهوم ولا المنطقي، فهي لا تجيد تركيب جملة مفيدة بالعربية ولا العامية؛ فتفزع بدلا منهما إلى الفرنسية. وتجاهر بعدائها للعربية وتعدها مدرسة لتخريج الإرهابيين، وتعد الفرنسية مصدر الحداثة والتنوير. وأول ما فعلته بعد تنصيبها وزيرةً مَنْعُ الدكتور علي

---

(١) لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية.

(٢) الشعب يريد إسقاط بن غبريط.

(٣) بن غبريط تصر على بعث إصلاحات بن زاغو.

بن محمد، وزير التربية والتعليم السابق، المعروف بدفاعه عن العربية، من إلقاء محاضرة عن «أساليب فرنسة في تعليم العربية إبان الاستعمار»، كان يزمع إلقاءها بمناسبة عيد الطالب، وكانت هي صاحبة قرار منعه. وأصدرت مرسوما بترجمة المراسلات الإدارية في الوزارة إلى الفرنسية. وهي -إلى ذلك كله- تستعين بخبراء فرنسيين على «إصلاح» نظام التربية في الجزائر. وعقدت اتفاق تعاون بين وزارتها ووزارة التعليم الفرنسية، بين ٢٠١٣- ٢٠١٧، ويضم نص الاتفاق فقرة متعلقة بالتربية، جعلتها برنامجًا وطنيا لتهيئة التربويين للتكيف مع «الإصلاحات» والمناهج الجديدة، وطريقة تعليم الفرنسية بالثقافة الفرنسية، وما فيها من قيم «مدنية»[١].

وما ينبغي أن تفهم سياسة نورية التعليمية واللغوية بمعزل عن توجهها الفرنكفوني، وعلاقتها بفرنسة، ولا بالمناخ المعادي للعربية بعد الحادي عشر من سبتمبر، ولا بمعزل عن سياسة فرنسة في استبدال العامية والأمازيغية بالفصحى في المغرب العربي منذ احتلته، تمهيدا لإحلال الفرنسية محل العربية، على الوجه الذي قد بينا. فمن حيث علاقتها بفرنسة يذهب العارفون بالشأن الجزائري إلى أنها ليست بأكثر من قفازات لباريس، وأنها هي التي سَمَّتها وزيرة[٢]، وكانت عضوا في لجنة ابن زاغو التي ألفها عبد العزيز بو تفليقة عام ٢٠٠٠ لإعادة النظر في التربية، بعد توليه الرياسة عام ١٩٩٩، وهي لجنة أبانت توصياتها عن تعصب على العربية، وتحيز للفرنسية، فقد دعت إلى إعادة الفرنسية سيرتها الأولى قبل التعريب، وإخراج العربية من التعليم؛ لأنها لغة الظلاميين، وسبب ما بالبلد من غلو، إلخ. واستحسنت فرنسة توصياتها على لسان سفيرها بالجزائر، فقال إن فرنسة مستريحة للتعديلات التي أدخلت على التربية، ولا سيما ما يتعلق منها بالفرنسية، فقد صارت تدرَّس من السنة الثانية الابتدائية، وإن فرنسة ستقدم العون للتعليم الجزائري في أطواره كلها، وتخصص صندوق تعاون لتكوين ألفي أستاذ جزائري بالفرنسية، على نفقتها لتقوية الفرنسية في الجزائر، وستهتم بالتعليم العالي، ولا سيما البحث العلمي،

---

(١) بن غبريط تصر على بعث إصلاحات بن زاغو، والشعب يريد إسقاط بن غبريط، ومقترح للتعليم بالعامية يثير جدلا جزائريا.
(٢) مقترح للتعليم بالعامية يثير جدلا جزائريا.

وتفتح باب التعاون والتبادل بين الجامعات الفرنسية والجزائرية[1].

وتلقى الدعوة إلى التعليم بالعامية في المغرب الآن ما لا تلقى في بلد عربي، فقد ظهر رجال أثرياء متفرنسون، يبذلون مالهم في استبدال العامية بالعربية، واستعمالها في التعليم، ولهم مجلات ومدارس، هذه وجهتها، وهم ينفقون عليها بسخاء، ويعقدون من أجلها المؤتمرات، وينشئون الجمعيات، ويقولون إن العامية والأمازيغية هما اللغتان الأم، وهما اللتان تُيَسِّران الاتصال بين التلامذة والأساتيذ، وإن الدراسات النفسية أثبتت أن العامية أفضل من اللغات الأخرى في التعليم، وإن غيرها من اللغات قد يسبب للتلامذة أمراضا نفسية. يقولون هذا وهم يعلِّمون أبناءهم بالفرنسية من الروضة، ويدخلونهم في مدارس فرنسية، أو تعلِّم بالفرنسية، ولا يخشون عليهم من التعلم بها ما يخشون عليهم من التعلم بالفصحى، مع أن الفصحى أقرب إلى العامية المغربية من الفرنسية، وأقرب منها إلى الأمازيغية، إن صحَّ أن العامية المغربية ليست هي العربية الفصحى محرفة تحريفا يسيرا، لا تخفى العلاقة بينه وبين أصله. وهم -إلى ذلك- يجيدون الفرنسية، ويتكلمون بها بطلاقة، ويكتبون بها، ويبرِّزون في الدراسة، وهي أبعد شيء من لغتهم العامية ولغتهم الأمازيغية، وأبعد من ثقافتهم، ولم تسبب لهم من الأمراض النفسية ما يخشون على أولادهم من العربية، ولا عاقتهم عن التعلم[2]. ولكن من دأب القوم أن يسوغوا ما يقولون بما ينحلونه من العلمية، على ضعف العلاقة بينه وبين العلم، وقد تحداهم بعض اللغويين أن ينشروا ما يقولون في هذه القضية في مجلة علمية متخصصة، ملمحا إلى أنه لا يقوم على أساس علمي متين، وأنهم يعولون على سلطانهم الإعلامي، لا سلطانهم المعرفي[3]. هذا إلى أن الدعوة إلى التعليم بالعامية لا معنى لها، لأن التعليم في المغرب تعليمان: خاص، لا مكان فيه لغير الفرنسية، ولا سيما التعليم الابتدائي، وعامٌّ، ولا يستعمل فيه إلا العامية، وإن كان استعمالها غير رسمي[4]،

---

(١) انظر: مستقبل اللغة العربية ورهاناتها في ظل العولمة، ٦٨٩، وفرنسا مرتاحة لتعديلات المنظومة التربوية في الجزائر، صحيفة الشروق، ١٨/ ٢/ ٢٠٠٥ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣٢٩ وما بعدها).

(٢) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٥٣ وما بعدها، واللغة العربية: الصراعات المتداخلة، ٧٩.

(٣) الصراع اللغوي في العالم العربي بين دعاة العامية و أنصار الفصحى، ١٢٥.

(٤) التدريس باللغة الدارجة بين التفسير العلمي و التبرير السوسيوتربوي.

فالدعوة إلى استعمالها فيه من تحصيل الحاصل، وإن كانت له فضيلة، فقد ظفر بها المغرب، بل ظفر بها التعليم العربي كله، في أطواره كلها. وفرنسة التي هي كعبة هؤلاء، تستعمل العامية في شؤون الحياة العادية، وليس فيها -مع ذلك- من طالب بإحلال عاميتها محل فصحاها، لا في التعليم الابتدائي، ولا في غيره من أطوار التعليم؛ لأن العامية -وإن كانت هي لغة الأم- قاصرة قصورا نسقيا، ولا تكتمل إلا إذا صارت لغة، ولا تكون لغة ما دامت معها الفصحى، وبديوانها الثقافي نقص، وما تشتمل عليه من أفكار بسيط، ولا تهيئ النشء لفهم العلم والفكر، وإنما تهيئه لفهم لغة التواصل، أو ما سماه بعضهم: كلمات الأغاني، والأحاجي، ومعتقدات العوام وأفعالهم[1].

والدعاة إلى العامية والتدريس بها في المغرب لا يعرفون العامية ولا يستطيعون الكتابة بها ما عدا بضعة أشخاص منهم[2]، كما لا يعرفون الفصحى، وإذا تكلموا عن العامية تكلموا عنها بالفرنسية، وأكثرهم درس بمدارسِ فرنْسة. فنور الدين عيوش -مثلا-، وهو أحد الداعين إلى العامية، والتدريس بها، رجل أعمال، ينتمي إلى الطبقة الوسطى (البرجوازية)، ولا علاقة له ولا لأهل بيته بالعامية، ولا تعنيه في شيء، ولا يستعمل في عمله إلا الفرنسية، ويعمل في الدعاية والإعلان، وهو المجال الذي يستعمل فيه العامية للوصول الى جيوب المستهلكين[3]. ولا تستعملها هذه الشريحة في شؤون حياتها كلها إلا مع العمال البسطاء، والخادمات القادمات من البادية[4]. وهم مرتبطون بالمنافع الاقتصادية والسياسية الفرنسية، وارتباطهم بها يعلل دعوتهم دوما إلى عدِّ الفرنسية لغة التفتح والاقتصاد والمال والأعمال والتقنية، ورفضهم المطلق للغات الأجنبية التي هي أنفع منها في العلم والاقتصاد. ومنهم من يدعو إلى جعْل النشيد المغربي بالعامية[5]، ولا علاقة لهذا بالتعليم، ولا بكل ما يسوِّغون به استبدال العامية بالفصحى. ولهذا يقول العارفون من لغويي المغرب إن لهذه النزعة

---

(١) اللغة أساس التنمية في وطنها، ٤٣، وعن ظاهرة العداء للغة العربية والدعوات إلى الدارجة، ٢٠.

(٢) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٥٣ وما بعدها، واللغة العربية: الصراعات المتداخلة، ٧٩.

(٣) التدريس باللغة الدارجة بين التفسير العلمي و التبرير السوسيوتربوي.

(٤) المسألة اللغوية في المغرب وآفاق إصلاح التعليم، ٢٩.

(٥) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم،، ٢٧٤ وما بعدها.

غايات غير علمية، وإنما هي جزء من توجه فكري لفئة من متفرنسي المغرب، ويستدلون على ذلك بأن أصحابها يدافعون عن الانحلال الخلقي، وعلمانية الدولة المتوحشة، والعلاقة مع الكيان الصهيوني، والدفاع عن التفاهات باسم الحرية الفنية[1]. وقد رأينا من الأدلة على ذلك ما فيه كفاية. وتسمي صحيفة «المساء» المغربية هؤلاء «حزب فرنسة بالمغرب»، وتذهب إلى أن بين نشر الفرنسية وتأييد العامية المغربية تحالفا محبوكا، وتقول: إذا كان دعاة العامية يعللون اهتمامهم بالعامية بالاتصال بالمواطن العادي أو الأمي، فإن استعمال الفرنسية في الإعلام الرسمي وكثير من القطاعات -مع أنها ليست لغة رسمية، ولا يتحدث بها في البيوت إلا أقل من ١٪ من المغاربة، يجعل هذا التعليل بعيدا من الموضوعية العلمية[2]. ويصدق هذا أن عنوان محاضرة نور الدين عيوش التي ألقاها في ندوة زاكورة كان: «العامية لغة المستقبل»، وكان هذا العنوان هو فحوى محاضرة كلود حجاج في هذه الندوة أيضا، وقال فيها: لا يمكن أن يكون مستقبل المغرب اللغوي هو التعريب؛ فإنما التعريب رد فعل على الاستعمار، وإنما مستقبله اللغوي العامية، أي اللغة التي يستعملها المغاربة كل يوم، والفرنسية، فهي لغة الأعمال، والاقتصاد، والعلوم. وكان هو الذي استهلَّ الندوة بمحاضرته هذه، فكان استهلاله توجيها لها، ومنه أخذ نور الدين فكرته، وعليها أدار حديثه، وكذلك فعل غير نور الدين، فقد ألقى عزيز داودة محاضرة عنوانها أيضا: مستقبل المغرب في لغته العامية[3]. وهي فكرة قديمة، قالها يوسف الخال في مؤتمر الأدب العربي المعاصر المنعقد بروما عام ١٩٦١: إن هذه اللغة العربية المتطورة هي لغة الحاضر والمستقبل، واستعمالها في الكتابة، كاستعمالها في الحديث، أمر حتم[4].

وأولى القانون المغربي العامية ما لم يولها قانون من قوانين البلدان العربية، فأوصى الميثاق الوطني للتربية والتكوين الصادر عام ١٩٩٩ باستعمالها في التعليم الابتدائي، على الوجه الذي أرادت نورية أن تفعل في الجزائر، فقد جاء

---

(١) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ٢٧٦.

(٢) حزب فرنسا في المغرب.

(٣) الصراع اللغوي في العالم العربي بين دعاة العامية و أنصار الفصحى، ١١٦ وما بعدها.

(٤) الأديب العربي في العالم الحديث، ٤٠.

في المادة ١١٥ منه: يمكن السلطاتِ التربوية الإقليمية استعمال الأمازيغية، أو لهجةٍ محلية للاستئناس وتسهيل الشروع في تعلم اللغة الرسمية في التعليم الأولي، وفي الطور الأول من التعليم الابتدائي[١]. فهو يفتح الباب للتعليم في الروضة والسنتين الأوليين من الابتدائية بالعامية. ولا يخفى أن الإذن في هذا كالأمر به؛ لأن المعلمين لا يعرفون العربية، ولا يتكلمون بها، ولو أوجب عليهم الميثاق أن يعلِّموا بها، ما فعلوا، لعجزهم عنه، فالإذن لهم في الأسهل تشريع لما يفعلون. هذا إلى أن ما جرت به العادة في الوطن العربي كله أن يكون التعليم بالعامية في أطوار التعليم كلها، فالإذن باستعمالها في سنين بعينها من تحصيل الحاصل، والجديد فيه جعله نظاميا، وتشريع التعليم بالأمازيغية في السنين الأولى، وما في ذلك من إقرار الثنائية اللغوية، وكان ذلك قبل أن تُجعل الأمازيغية لغة رسمية بدستور عام ٢٠١١. وكان من الخير ألا يشرَّعِ الخطأ، وأن يترك من يأتيه في حال من الشعور بالخطأ، أو خلافِ الأولى؛ فإنَّ ردَّه إلى الصواب -حينئذ- أيسر من ردِّ مَن يظن أنه يفعل ما هو خير للتلامذة وأصلح، وما هو القانون. وقد كان تعليم الأطفال في المغرب العربي بالعامية منذ الصغر سياسة فرنسية ثابتة[٢]، فقد جاء في مشروع جان دوبياس أن يكون التعليم في الابتدائية التونسية بالعامية، وأن تُدْخَل الفصحى في التعليم بالتدريج[٣]، وهو عين ما أرادت لجنة نورية بن غبريط، وما أمر به الميثاق المغربي. ومن عَلم أن جان دوبياس فرنسي، وأن خطته وأغراضه كانت -وما زالت- موضع جدل طويل بين التونسيين، وأن نورية متفرنسة، كما قد رأينا، وكذلك لجنة ابن زاغو التي كانت عضوا فيها، وجلُّ اللجنة التي وضعت ميثاق التربية الوطنية في المغرب -علم أن في قضية التعليم بالعامية في المغرب العربي ما يريب، وأنها ليست مسألة تربوية خالصة، كغيرها من مسائل السياسة اللغوية.

ويبدو أن نص الميثاق الوطني -إن أُحسنَ الظن، ولم يُعْتدَّ بالسياق الذي وُضع فيه، وما كان فيه من خصام وتنازع، ودعوةٍ إلى استبدال العامية

---

(١) الميثاق، ٣٧.
(٢) مصير وحدة الجزائر، ٩٥.
(٣) البورقيبية والهوية، ٢٧٥.

والأمازيغية والفرنسية بالفصحى - ربما كان مبنيا على ما يشيعه بعض الفرنسيين ومن يشايعهم في المغرب، من تباعُدِ ما بين الفصحى والعامية تباعدا يجعلهما لغتين مختلفتين.

وأقرت «دفاتر تحملات» القنوات والإذاعات المغربية العاميةَ لغةً من لغات المغرب الرسمية، بما جعلت لها جزءا مقسوما من برامجها، كما فعل ميثاق التربية الوطني، كالمواد ١١، و ٢٦ من دفتر تحملات صورياد، و٣٩، و١٢٦ و ١٦٩، من دفتر الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة، مع أن هذا الجزء لا معنى له، وإنما كان ينبغي أن يجعل نصيب العربية من القنوات والإذاعات واحدا، وألا تُميَّز العامية من الفصحى، وألا يشرَّع استعمال العامية؛ فإن في ذلك عونا على إقرارها، وإنزالها منزلة الفصحى؛ لأنه يجعل لها حصة كما للفصحى، وهو أقرب إلى هوى المذيعين، كما أن تشريع التعليم بالعامية أقرب إلى هوى المعلمين، وهؤلاء وأولئك يفعلونه من غير حاجة إلى تشريع، ويفعلونه على مخالفته تشريع الأقطار التي توجب أن تكون الفصحى هي لغة التعليم والإعلام. على أن الإذاعات والقنوات لا تلتزم ما قررت دفاترها، ففي بند من المادة ٣٢ من دفاتر القناة الثانية، سمته التنوع اللساني أنها تجعل ٨٠٪ من مدة شبكتها المرجعية للعربية السليمة المبسطة، والأمازيغية، والعامية المغربية والحسانية، و٢٠٪، للغات الأجنبية، لكن الفرنسية ربما نالت منها ٣٨٪، ولا تستعمل العربية الفصحى إلا في نشرات الأخبار والبرامج الدينية الأسبوعية، وبعض البرامج الثقافية، وما عدا ذلك فجله يصطنع العامية لغة للبث، وهذا يناقض المادة الثانية من دفتر القناة، وقد تعهدت فيه بحماية اللغتين الوطنيتين الرسميتين العربية والأمازيغية وتقويتهما. وكذلك الأمر في القناة الإذاعية ميدي١ التابعة للقناة الفضائية midi1 TV، فالهيمنة فيه أبدا للفرنسية، وربما نالت ٥٨٪ من برامجها، أما الإذاعات الخاصة الأخرى، فتشترك فيها العامية والفرنسية لعدم وجود نظام، يلزمها نظاما لغويا بعينه، إلا مادة يتيمة في البند الخامس من المادة ١١، عنوانها: استعمال اللغات، جاء فيها: «يحرص المتعهد على ضمان التنوع الثقافي واللغوي للمجتمع المغربي»، أو عبارة يحرص

المتعهد على ألا تستعمل اللغات استعمالا فوضويا، أو غير منتظم[1]. وفي قانون الإعلام السمعي البصري لعام ٢٠٠٣: يعد إنتاجا سمعيا بصريا وطنيا كل إنتاج سمعي بصري يكون مضمونه متأصلا في المجتمع المغربي، ويبث بالعربية أو الأمازيغية أو اللهجات، أو بلغات أخرى. ولم يوضح لغة البث، وإنما وكلها إلى الهيئات الإعلامية، وهذا يوحي أن الدستور لا يُعتَدُّ به في الواقع، وهذا يضر باللغة الرسمية، ويتيح للهجاتها أن تزاحمها، وللغات الأجنبية أن تحل محلها، ولا سيما الفرنسية، وهذا ما يؤكده نص آخر من هذا القانون أيضا، يتعلق بالإعلان، يسمح لوسائل الإعلام أن تبث بالعربية والأمازيغية واللهجات المغربية، إذا كانت موجهة إلى الجمهور المغربي، ويجيز استعمال لغات أخرى إذا ثبتت صعوبة البث بالعربية والأمازيغية أو اللهجات المغربية، بسبب المفاهيم التقنية التي تحتوي عليها، فهذا يشرِّع التسيب، والمسخ اللغوي الذي غدا سمة من سمات الإعلان، بسبب استعماله العامية، مكتوبة في أحيان كثيرة بحروف لاتينية، وصار بعض الدعايات الرسمية التي تقوم بها مؤسسات رسمية يكتب بهذه اللغة الهجينة، وهو دليل على أن التوجه نحو العامية وإهمال العربية الفصحى توجه يتم عن وعي وقصد، على ما فيه من خطر على العربية، إذ الإعلانات التجارية ولغتها جزء من البيئة التي تكتسب منها اللغة[2]. ويبدو أن ما ورد في دفاتر تحملات القنوات والإذاعات المغربية بشأن اللغات وتوزيع الزمن بينها منقول من الفصل الخامس من الباب الأول من دستور المغرب الأخير، فقد ورد فيه أن الدولة تعمل على صيانة الحسانية؛ لأنها جزء لا يتجزأ من الهوية الثقافية المغربية الموحدة، وصيانة اللهجات والتعبيرات الثقافية المستعملة في المغرب[3]. غير أنها لم تعدل بينها بما يلائم مكانتها من الدستور.

ويذهب بعض لغويي المغرب العارفين بسياسته اللغوية إلى أن الحكومة المغربية مما يسرها التمكين للعامية، على الوجه الذي قد رأينا؛ فإن ذلك يعينها على التراجع عن التعريب الذي يصعب عليها الإعلان به، وإنما الغارة

(١) الوضع اللغوي في المغرب: صدامية النص والواقع، ٦٩ - ٧٦.
(٢) السابق، ٦٧ وما بعدها و ٧٧.
(٣) الدستور، ٥.

على الفصحى شيء يعمله حُماة الفرنسية بالمغرب؛ ليتيحوا للحكومة مخرجا، يمكن أن تتذرع به إلى التراجع عن التعريب إلى الفرنسية، أما العامية، فإنما هي شيء مؤقت، سرعان ما ستنتقل منه إلى إعلان الفرْنسة الصريحة. ويستدلون على ذلك بأن الدعوة إلى العامية إنما جاءت بعد حملات منظمة على تعريب المواد العلمية في التعليم الابتدائي والثانوي، منذ آخر العقد الثامن من القرن العشرين[١]. وإن الدعوة إلى العامية في المغرب العربي كَيْد للعربية، يراد به فسح المجال للفرنسية لتحل من المغرب حيث تريد فرنسة؛ إذ كانت العامية لا تصلح للعلم والفكر، ولا تقوم للفرنسية، ولا لغيرها من اللغات ذات التراث العلمي، وإنما تقوم لها العربية الفصحى، فإذا أزيحت بالعامية، كان من اليسير أن تزاح العامية بالفرنسية، ويستدلون لذلك بأن دعاتها في المغرب لا يعرفونها كما لا يعرفون العربية، إلا أن يمزجوها بجمل وكلمات فرنسية[٢]، وأن الداعين إليها يتقنعون بالإنجليزية والعامية، وإنما يريدون الفرنسية، وهي التي يستعملونها في حياتهم كلها، كما يستدلون له بما يجد دعاة العامية من عون من رؤوس الحركة الأمازيغية[٣]، وعلاقتهم بفرنسة معروفة، ومعروف أن القضية الأمازيغية عندهم مما يراد به التمكين للفرنسية، وجعلها ضرة للعربية، تزاح بها من الحياة ثم تزاح بالفرنسية. وآية ذلك أن الذي نظم ندوة زاكورة هو المعهد الملكي للدراسات الإستراتيجية للتداول، وهو معهد حكومي، وكان عنوان الندوة التي ألقى فيها نور الدين عيوش محاضرته هو: سياسة التنوع وكيفية تفعيل مقتضيات الدستور الجديد[٤]، ويوصف نور الدين عيوش رئيس مؤسسة «زاكورة» بأنه مقرب من دوائر صنع القرار[٥]، وكان رشيد بلمختار أحد أبرز المشاركين فيها، وسُمِّيَ بعدها بأيام قليلة وزيرا للتربية بدلا من محمد الوفا، وبعد تسميته وزيرا قال نور الدين: الكلمة الآن للعمل، على وزير التربية الوطنية أن يبدأ في العمل (التعليم بالعامية)، وهو امرؤ، له إمكانات كبيرة، وتجربة ميدانية، وحضر معنا أعمال

---

(١) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٤٠ وما بعدها.
(٢) السابق، ٣١.
(٣) المسألة اللغوية في المغرب وآفاق إصلاح التعليم، ٢٩.
(٤) الصراع اللغوي في العالم العربي بين دعاة العامية و أنصار الفصحى، ١١٦ وما بعدها.
(٥) مذكرة مثيرة للجدل تتضمن توصيات غاية في الجرأة.

هذه الندوة، وأظن أن عليه أن يبدأ في العمل ولا ينتظر. أعلم أنه لا يمكن أن يفعل كل شيء دفعة واحدة، لكن عليه أن يبدأ بما هو سهل، وهناك أشياء كثيرة يمكن الانطلاق منها؛ لأنها لا تتطلّب شيئا، لا ميزانيات ولا غيرها، والتوصيات التي خلصت إليها الندوة سهلة في مجملها، وبسيطة وواضحة. وعلاقة رشيد بلمختار بفرنسة معروفة، وكلام نور الدين هذا يدل على أن لتسميته وزيرا غايات محددة، منها اصطناع العامية في التعليم، وأن نور الدين على علم بها، وهو استنتاج يؤيده ما قد رأينا من سيرة رشيد في التمكين للفرنسية، مذ تولى الوزارة للمرة الثانية. ونبه الدكتور محمد العمري على أن رجال المخزن كان لهم حضور ظاهر في «زفِّ» هذا التوجه وتقديمه[1]؛ فهي -إذن- ندوة رسمية، أَوعزت بها السياسة المغربية العليا. هذا إلى أن التراجع عن التعريب مما بدأه الحسن الثاني لغرض، ذكرناه، وإنما التمهيد له بما قد رأينا امتداد لتلك السياسة، واتباع لسنتها، كما أنه امتداد للسياسة الفرنسية، وخططها في ثني المغرب والجزائر عن التعريب، وإعادتهما إلى التعليم بالفرنسية، وتسويغ ذلك بما يسوغه به إعلامها ومبشروها اللغويون، ورجالها في المغرب والجزائر، يضاف إليه ما أجدَّت السياسة الأمريكية تجاه العربية بعد الحادي عشر من سبمتبر، ونسبتها إلى الإرهاب، كما تنسبها فرنسة إليه وإلى الظلامية والأصولية.

---

(١) المسألة اللغوية في المغرب وآفاق إصلاح التعليم، ٢٩.

# المراجع


- آثار التربية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، معروف أحمد، مجلة التربية، س ٣١، ع ١٤١، ٢٠٠٢ م.
- الأبجدية اللاتينية لكتابة العربية والفارسية، فكري إبراهيم سليم، د. ت.
- اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم، ريما سعد الجرف، موقع ديوان العرب.
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=748.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٥ هـ.
- أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية، إبراهيم كايد محمود، أعمال مؤتمر علم اللغة الأول المنعقد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة في ١٧ و١٨ ديسمبر ٢٠٠٢ بعنوان: اللغة العربية في وسائل الإعلام.
-أجداد ترانت العنصريون، برجان توتار، موقع أخبار تركيا،
http://www.akhbarturkiya.com/yazar/.
- إحياء الأصل، نغوغي وا ثيونغو، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، دار أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١)، منشورات أضواء، د. ت.
- الأديب العربي في العالم الحديث، يوسف الخال، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما المنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.

- أربع وستون سنة على ثورة الجزائر.. وفرنسا «تتهرب» من جرائم الاستعمار،
http://assabeel.net/news/201864/01/11/.
- أردوغان: نجري استعدادات لقفزة نوعية في الديمقراطية والاقتصاد، موقع مصر العربية،
http://www.masralarabia.com/.
- الازدواجية اللغوية في وسائل إعلام بلدان المغرب العربي: دراسة نقدية، محمد شطاح، ضمن بحوث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بدبي، من ٢٧ - ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ.
- أساطير أوربا عن الشرق: لفِّق تَسُدْ، رنا قباني، ترجمة صباح قباني، دمشق، دار طلاس، ط٣، ١٩٩٣ م.
- الأستاذ بدرو، بك لغة الضاد تفخر، أبو بكر خالد سعد الله، موقع بوابة الشروق،
https://www.echoroukonline.com/ara/articles/544828.html.
- الاستثمار في اللغة العربية من خلال اقتصاديات اللغة، حسين بن علي الزراعي، الاستثمار في اللغة العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦ م.
-الاستشراق الفرنسي بالجزائر ما بين ١٩٣٠ - ١٨٣٠ م: قراءة في مقال لهنري ماسي، ترجمة محمد يحياتن، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري بتيزي وزو- الجزائر، ع ٣٩، ٢٠١٧ م.
- أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال،
http://www.pubarab.com/t188628-topic.
- أسرار غريبة حول حرب بوش على العراق يكشفها شيراك، موقع عربي ٢١،
https://arabi21.com/story/1211692.
- الإسلام في عيون غربية: بين افتراءات الجهلاء وإنصاف العلماء، محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٨ م.

- الإسلام والغرب في كتابات الغربيين، زغلول النجار، القاهرة، دار نهضة مصر، ط١، ٢٠٠٣ م.
- الأسماء والألقاب في الجزائر: دعوة إلى دراستها دراسة لغوية دلالية وحضارية، عبد الله بو خلخال، أعمال الموسم الثقافي (مدونة المحاضرات الملقاة عام ٢٠٠٠ م)، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠٠ م.
- إشكاليات التعليم باللغة الأنجليزية في دول مجلس التعاون: التعليم باللغة الإنجليزية وآثاره التربوية والثقافية: دول مجلس التعاون أنموذجاً، عبدالله جمعة الكبيسي، موقع منتديات شبكة الأسهم القطرية
http://www.qatarshares.com/vb/showthread.php? .
- إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، شمامة خير الدين، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب: المغرب نموذجا، إلياس بلكا ومحمد حراز، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠١٤ م.
- الإصلاحات التعليمية بالمغرب: دراسة على مستوى الوظائف والمكونات ١٩٥٦ - ٢٠٠١ م، محمد غزالي، جامعة الحسن الأول، ٢٠١٤ م.
- أضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر ٣ - واقع التعريب في الجزائر في مجالات: الثقافة - الاعلام - المحيط الاجتماعي - الإدارة (١٩٦٢ - ١٩٨٢)، تركي رابح، المستقبل العربي، مج ٦، ع ٦١، ١٩٨٤ م.
- اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- إمبراطوريات الكلمة: تاريخ اللغات في العالم، نيكولاس أوستلر، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١١ م.

- الإمبريالية الجديدة، ديفيد هارفي، ترجمة وليد شحادة، بيروت، شركة الحوار الثقافي، ط١، ٢٠٠٤ م.
- أمريكا: الكتاب الأسود، بيتر سكاون، ترجمة إيناس أبو حطب، بيروت: الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- أمريكا والإبادات الثقافية، منير العكش، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩ م.
- أمريكا والإبادات الجماعية، منير العكش، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٢ م.
- الإنجليزية تهزّ عرش الفرنسية في الجزائر، بوابة إفريقية الأخبارية، https://www.afrigatenews.net/article.
- إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، أحمد درويش، القاهرة، دار نهضة مصر، د. ت.
- انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، علي القاسمي، موقع شبكة فولتير، http://www.voltairenet.org/article145997.htm.
- إنية وأصالة، مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ هـ.
- أهمية اللغة في الحفاظ على الأمن الفكري في عصر العولمة، لحرش أسعد المحاسن، كتاب المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدبي ١٧-٢١/ ٧/ ١٤٣٦هـ.
- أوكار الشر، كينيون جيبسون، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- الباكالوريا الدولية بالمغرب، http://www.2b2bi.com/t3531-topic.
- بالأسماء: أستاذة جامعية تكشف المستور عن المدارس الأجنبية في مصر، أحمد حافظ، الأهرام، ٢ يناير ٢٠١٦ م.
- بريد الجزائر يقرر إلغاء اللغة الفرنسية من كافة الوثائق الرسمية، حسان حويشة ونادية سليماني، موقع بوابة الشروق، https://www.echoroukonline.com.
- بقاء الجيش الفرنسي في الجزائر إلى سنة ١٩٧٨ م، قناة الجزائر، http://www.algeriachannel.net/.

- بلمختار يبصم على البكالوريا الدولية بثلاث لغات ويَعِدُ بمبادرات مماثلة، موقع هسبريس
https://www.hespress.com/societe/235366html.
- بن غبريط تأتي على ما تبقى من التعليم، نسرين مؤمن،
http://elhiward.z.com/national/3804.html
- بن غبريط تصرُّ على بعث إصلاحات بن زاغو، عبلة عيساتي، أخبار اليوم، ٢١/ ٧/ ٢٠١٤ م.
- بيان إلى الرأي العام الوطني، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب، https: / /iitilaf.org/ .
- بين العامية والفصحى، مسألة الازدواجية في اللغة العربية في زمن العولمة والإعلام الفضائي، إيمات ريمان، وعلي درويش، ط١، ملبورن - أوسترالية، رايتسكوب، ٢٠٠٨ م..
- بورقيبة بلسان بو رقيبة: محاضرات بمعهد الصحافة عن تاريخ الحركة الوطنية، الحبيب بورقيبة، تونس، دار آفاق، ط١، ٢٠١٥ م.
- بورقيبة والإسلام: الزعامة والإمامة، لطفي حجي، تونس، دار الجنوب، ط٢، ٢٠١٣ م.
- البورقيبية والهوية: صراع مشاريع، الحسين بن عيسى، تونس، مكتبة تونس، ط١، ٢٠١٥ م.
- تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، علي محمد الصلابي، بيروت، دار المعرفة، ط٤، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- تأملات في السياسة: السيادة الناقصة، محمد بو عزازة، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي، محمد الأوراغي، صحيفة العلم، السبت ١٤ شعبان ١٤١٩ هـ.
- التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).
- التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر والرؤية المستقبلية، محيا زيتون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٣ م.

- التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر والرؤية المستقبلية، محيا زيتون، مجلة المستقبل العربي،
http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal__mustaqbal_413_mohya%20zytoun.pdf.
- تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، محمد جابر الأنصاري، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٢ م..
- تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي: الإنجازات، والصعوبات، والتحديات، همام غصيب، موقع مجمع اللغة العربية الأردني وموقع المعرفة،
http://www.marefa.org/sources/index.php..
- التحديات التي تواجه اللغة العربية في إفريقيا: منافسة اللغات الأوربية، محمد عبد الغني سعودي، مجلة الجامعة الإسلامية،ع ٣٦، ٢٠٠٢ م.
- تحرير الممالك: كيف تدير ممالك الخليج إصلاح التعليم، لي نولان، الدوحة، مركز بروكنجز، ٢٠١٢ م.
- التدريس باللغة الدارجة بين التفسير العلمي والتبرير السوسيوتربوي، محمد أقديم، موقع أخبارنا
https://www.akhbarona.com/writers/57130.html
- تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، مجموعة كتاب، الرياض، مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- التراجع عن التعريب في الجزائر يخدم الفرانكفونية، توفيق المديني، موقع بوابة الشرق،
http://www.al-sharq.com/news/details/.
- تشاد، محمود شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٣ هـ.
- تصفية استعمار العقل، نغوجي واثيونغو، ترجمة سعدي يوسف، دمشق، دار التكوين، ٢٠١١ م.
- تصورات الطلاب السعوديين حيال اللغة العربية، محمود بن عبد الله المحمود، التصورات الشعبية عن اللغة العربية: مفاهيم وقضايا وحالات،

الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- التصويب اللغوي في الخطاب الإعلامي، محمد بنشريفة، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- تعايش الثقافات: مشروع مضاد لهنتنغتون، هارالد موللر، ترجمة إبراهيم أبو هشهش، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- تعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، عبد الكريم بكري، مجلة اللغة العربية الجزائرية، العدد ١، ذو الحجة ١٤١٩ هـ.
- التعريب في الجزائر بين تعريب الفكر والتعريب اللغوي، خثير عيسى، مجلة التعريب، العدد ٥٠، شعبان ١٤٣٧ هـ.
- تعريب العلوم ودوره في التنمية في الوطن العربي، سعيد كناي، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد ٣، ٢٠٠٠ م.
- التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، عبد الرحمن سلامة «ابن الدوايمة»، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٦ م.
- التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ١٩٩٣ م.
- التعريب في الجزائر: وجها الحصيلة، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/bilan.htm.
- التعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي، مهيمن عبد الجبار، موقع صيد الفوائد
http://www.saaid.net/manahej/24.htm.
- التعليم العالي في السعودية: رحلة البحث عن هوية، أحمد العيسى، بيروت، دار الساقي، ط١، ٢٠١١ م.
- التعليم في المغرب العربي، دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٩م.

- تغطية الإسلام: كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥ م.
- تفجير فرنسا النووي يهز مواقع التواصل في الجزائر،
https://www.alalamtv.net/news/5439048.
- تقرير حول لغات التدريس في منظومة التعليم في المغرب، في منظومة التعليم في المغرب، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب،
http://www.iitilaf.org/.html.
- التقرير العربي الرابع للتنمية الثقافية، مؤسسة الفكر العربي، ط١، ١٤٣٢ - ١٤٣٣ هـ.
- التلوث الإشعاعي في العراق والمضاعفات الصحية لحروب الخليج، منظمة المجتمع العلمي العربي، كاظم المقدادي، د. ت.
- التنصير الفرنسي في الجزائر، فاطمة حسين المفرجي، مجلة العلوم الإنسانية - كلية التربية بجامعة بابل، مج ٢٣، ع ٢، ٢٠١٦ م.
- التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة؟ جون ل. إسبوزيتو، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة وبيروت، دار الشروق، ط٢، ١٤٢٢ هـ.
- الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، بو علام بن حمودة، الجزائر، دار النعمان، ط ٢٠١٤ م.
- الجامعات الأجنبية في الخليج، أحمد القايدي، موقع حزب الاستقلال المغربي،
http://www.estqlal.com/article.php?id=23590.
- الجامعات الأجنبية في الدول العربية، الاتجاه المعاكس، موقع الجزيرة نت،
http://www.aljazeera.net/programs/opposite-direction/20108/8//.
- جدل استخدام العامية في الفضائيات اللبنانية: مذيعات يهربن من صعوبة الفصحى وأخريات يلجأن إلى البهرجة والتزين لتغطية ضعفهن اللغوي، نسرين عوطة، الشرق الأوسط، الاثنين ١٣ جمادى الأولى، ١٤٢١ هـ.

- جدل اللغة والهوية من جديد في دول المغرب العربي، موقع نون بوست،
https://www.noonpost.org/.
-جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بوجو إلى الجنرال أوساريس، سعدي بزيان، الجزائر، دار هومة، ٢٠٠٥ م.
- «الجربوع الأزرق».. ذكرى التجارب النووية الفرنسية مازالت تؤلم الجزائر،
https://www.alhurra.com/algeria/202113/02/.
- الجزائر: الأمة والمجتمع، مصطفى الأشرف، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة، ٢٠٠٧ م.
- الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ م.
- الجزائر: المفكرة والتاريخية، أبعاد وتأمل، محمد العربي ولد خليفة، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤ م.
- الجزائر من أحمد بن بله إلى عبد العزيز بو تفليقة، ، يحيى أبو زكريا، ٢٠٠٤م،
www.nashiri.net.
- الجزائر وبريطانيا تلغيان رسميا الازدواج الضريبي، موقع أخبارك،
http://www.akhbarak.net/articles/22085081.
- الجزائر والقيم الإنسانية، أنور عبد الملك، مع الثورة الجزائرية، الجزائر، مؤسسة عالم الأفكار، ط١، ٢٠٠٧ م.
- جماجم الجزائريين في فرنسا نسخة «داعشية» من القرن الـ ١٩،
https://www.aa.com.tr/ar/.
- جهاد الجزائر: حقائق التاريخ ومغالطات الجغرافية، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤ م.
- الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، تعريب مجموعة من المختصين، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- حرب بلا نهاية، ديفيد كين، ترجمة معين الإمام، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- حرب صليبية بكل المقاييس، زينب عبد العزيز، دمشق القاهرة، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠٣ م.

- الحرب الصليبية الثامنة، سعد الدين الشاذلي، د. م، ط١، ١٩٩٢ م.
- حزب فرنسا في المغرب، الحسن السرات، الجزيرة نت،
http://www.aljazeera.net/news/presstour/.
- الحركة الإسلامية في تركية، مختار الغوث، دمشق، دار البينة، ١٤٣٢ هـ.
- حركة الترجمة في تونس وأبرز مظاهرها في الأدب ١٨٤٠ - ١٩٥٥ م، محمد مواعدة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٦ م.
- حركة التعريب في العراق، أحمد مطلوب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٣ م.
- الحركة الديغولية في الجزائر ١٩٤٠ - ١٩٤٥ م من الظهور إلى المواجهة مع الحركة الوطنية، لزهر بديده، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، ١٤٣٠-١٤٣١ هـ.
- حروب جورج دبليو بوش الوقائية بين مركزية الخوف وعولمة إرهاب الدولة، نصير عاروري، العراق، الغزو، الاحتلال، المقاومة: شهادات من خارج الوطن العربي، بيروت، مركز دواسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٣ م.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، موقع بوابة داماس.
- حزب البعث الفرنسي، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠٠٠ م.
- الحكومة الأمريكية متورطة في سرقة مدبرة للكنوز الفنية العراقية، آن تالبوت، العراق، الغزو، الاحتلال، المقاومة: شهادات من خارج الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٣ م.
- حوار الحضارات، روجيه جارودي، تعريب عادل العوا، بيروت، دار عويدات، ط٥، ٢٠٠٣ م.
- حوار مع أمين عام حزب مصر الأم، الحسين بوردة، موقع amazighworld.
- حوار مع الذات، محمد بلقاسم خمار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠ م.
- خرافة التقدم والتخلف، جلال أمين، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٣، ٢٠٠٩ م.
- خلايا حزب فرنسا في المغرب: من الدعوة إلى تكريس الفرنسية إلى العمل على تعميم الدارجة، حنان بكور، صحيفة المساء المغربية، الملف الأسبوعي، العدد ١٨، السبت والأحد ٧ و ٨ أكتوبر ٢٠٠٧ م.

- خمس قواعد للتصالح مع اللغة العربية، عبد الرحمن الخالدي، موقع هسبريس
https://www.hespress.com/writers/.
- خمسة قوانين تكشف الوجه المرعب للاستعمار الفرنسي في الجزائر، إبراهيم الهواري، موقع ساسة بوست
https://www.sasapost.com/the_laws_of_france_against_algerians/.
- خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية: صراع هويات ينتهي إلى الأمية، طيبي غماري، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد ٧، ديسمبر ٢٠١٢ م.
- الدارجة ضد الفصحى: في بعض أوجه السياسة اللغوية الاستعمارية بالمغرب، سلمان بو نعمان، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- الدارجة في الإعلام والسينما، مصطفى الطالب، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- الدارجة والعربية: صراع لغوي أم تكامل وظيفي، مصطفى الخلفي، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- الدارجة في الإعلام والتعليم ما بين الفكر والاستثمار، عمر الدريسي، موقع دراما ميديا
http://www.dramamedia.net/point-de-vu/3401-.
- دستور المغرب، المغرب، الأمانة العامة للحكومة، مديرية المطبعة الرسمية، ٢٠١١ م.
- الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجُذور والامتدادات، الأهدافُ والمُسَوِّغاتُ، عبد العلي الودغيري، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.

- دفتر تحملات صورياد - القناة الثانية، الجريدة الرسمية، ع ٦٠٩٣، ٦ ذو الحجة ١٤٣٣ هـ.
- دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، عبد القادر سبيل، اللغة العربية في المنظمات الدولية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- «دوزيم» تشرمل دفتر التحملات و«الهاكا» تقرر التفرج، محمد لغروس، موقع حزب العدالة والتنمية http: / /www.pjd.ma/ .
- رجال اختلف فيهم الرأي من أرسطو إلى لويس عوض، أنور الجندي، https://www.almutadaber.com/books/book1_8909.pdf.
- رهائن في صراعات اللغة والهوية، محمد علاوة حاجي، موقع العربي الجديد، https://www.alaraby.co.uk/culture/.
- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية: دراسة سوسيو نقدية، إعداد جبور أم الخير، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب بجامعة وهران، ٢٠١٠ - ٢٠١١م.
- سفر صموئيل الأول، الإصحاح الخامس عشر.
- السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (١٨٣٠ - ١٩٥٤)، يحيى بو عزيز، الجزائر، دار البصائر، ٢٠٠٩ م.
- السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها ١٨٧١ - ١٩١٤ م، سعيدي مزيان، الجزائر، دار سنجاق الدين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١ هـ.
- السياسة الاستعمارية وإجراءاتها ضد التعليم العربي الإسلامي في الجزائر، سعودي أحمد، مجلة التراث، جامعة زيان عاشور بالجلفة - الجزائر، ع ١١، يناير، ٢٠١٤ م.
- سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ - ١٩٥٤ م، يحيى بو عزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧ م.
- السياسة اللغوية العربية والبيئة والبقاء، إعداد محمد مرزوق وآخرين، عمان، دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٧ هـ.

- السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، علي القاسمي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠، مولود قاسم نايت بلقاسم، ط٢، الجزائر، دار الأمة، ٢٠٠٧ م.
- شركة البربرية المتحدة: مرافعات ضد مجموعة الدول الثماني، تحرير جيل هوبارد وديفيد ميلر، ترجمة خالد العوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٧ هـ.
- الشعب يريد إسقاط بن غبريط، موقع ساسة بوست،
https://www.sasapost.com/nourieh-ben-ghabrit/.
- شيء من المأزق الهوياتي في مؤسسات التعليم الجامعي الخليجي: الهجرة نحو الإنجليزية، عبد الله البريدي، قضايا التعليم وتحدياته في دول مجلس التعاون الخليجي لدول الخليج العربية، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٥ م.
- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، صموئيل هنتنغتون، تعريب مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، ليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- صراع اللغة والهوية بالجزائر: الأبعاد والتداعيات، علي بن محمد، بلا حدود، قناة الجزيرة،
http://www.aljazeera.net/programs/withoutbounds/201518/10/.
- الصراع اللغوي في العالم العربي بين دعاة العامية وأنصار الفصحى: المغرب نموذجاً، محمد علي الحنشي، العربية والترجمة، مج ٧، ع ٢٣، ٢٠١٥ م.
- صديقنا الملك، جيل بيرو، ترجمة ميشيل خوري، دمشق، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢ م.
- طروحات حول الثقافة واللغة والتعليم، محمد جسوس، المغرب، الأحداث المغربية، ٢٠٠٤ م.

- عالم بوش السري، أريك لوران، ترجمة سوزان قازان، بيروت، دار الخيال، ط١، ٢٠٠٣ م.
- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠١١ م.
- العربية المغربية اللغة الأم أو اللغة الأصلية: تعليمها فالمدرسة لتحسين تطوّر العقليّات ؤمهارات الهذرة، القراية ؤالكتابة بالعربية الفصحى، فرانثيسكو موسكوسو غارثية،
https://rodin.uca.es/xmlui/bitstream/handle/10498167_151/16887/.pdf?sequence=1&isAllowed=y.
- العربية الفصحى المعاصرة: قضايا ومشكلات، محمد حسن عبد العزيز، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ١٤٣٣ هـ.
- العربية في السودان، محمد نور الحسن وعبد الله الطيب، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٨٩ (موقع المكتبة الشاملة).
- العربية في الوقت الحاضر: الحصيلة والآفاق، عقيل بن حامد الزماي الشمري، انقراض اللغات وازدهارها: محاولة للفهم، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- العربية وسؤال الهوية: صراع الهويات، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب.
- عشية الاستفتاء على الدستور: نوبيون يرفضون نص عروبة مصر، موقع العربية،
http://www.alarabiya.net/Articles/200732893/25/03/.htm.
http://www.alarabiya.net/Articles/200732893/25/03/.htm
- العشيري: هذا مستقبل اللغة الإنجليزية في المنظومة التعليمية، موقع هسبريس.
http://www.hespress.com/orbites/.
- عصر التشهير بالعرب والمسلمين، نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر، جلال أمين، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٢، ١٤٢٨ هـ.

- علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي: دراسة حالات من الوطن العربي، هدى الصيفي، رسالة ماجستير في كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر، عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦ هـ.
- عمِلَ على الفرْنسة ومارسَ الإبادة الفعلية: الوجه القبيح للاستعمار في المغرب العربي، محمد ولد محمد سالم، صحيفة الخليج،
http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/667ec5b7-c65a-455c-ae992-a92376150d9.
- عن ظاهرة العداء للغة العربية والدعوات إلى الدارجة، بنسالم حميش، مجلة الفرقان، ع ٧٣ عام ١٤٣٥ هـ، ١٩.
- عولمة الثقافة، جان بيير فارنيي، ترجمة عبد الجليل الأزدي، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم، نعوم تشومسكي وآخرين، ترجمة حمزة المزيني، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٣ م.
- غطرسة القوة، عالم ريتشارد نيكسون السري، أنطوني سمرز، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- فرنسا مرتاحة لتعديلات المنظومة التربوية في الجزائر، صحيفة الشروق، ١٨/ ٢/ ٢٠٠٥ م.
- الفرنسية أفسدت لغة الجزائريين وحولتها إلى أضحوكة، بوابة الشروق،
https://www.echoroukonline.com/ara/articles/.
- الفرنكفونية، أيديولوجيا، سياسات، تحدٍّ ثقافي لغوي، تحرير عبد الإله بلقزيز، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١١ هـ.
- الفرنكفونية والصراع مع العربية عبر الدارجة بالمغرب، مصطفى الخلفي، موقع مغرس،
https://www.maghress.com/attajdid/52368.
- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، بيروت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٤٠٢ هـ.

- الفصحى والدارجة في الإعلام، محمد العربي المساري، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- الفلسفة وقضايا الحياة، برتراند رسل، ترجمة علي مصباح، تونس، دار المعرفة، د. ت.
- فن القول، أمين الخولي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٦ م.
- في الإرهاب اللغوي، أحمد جواد العتابي، موقع الحوار اليوم.
- فيض الخاطر، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٣٧٢ هـ.
- في غمار السياسة، فكرا وممارسة، محمد عابد الجابري، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث، ط١، ٢٠٠٩ م.
- القضية الأمازيغية في الجزائر: الخلفية التاريخية والتطور السياسي، سؤدد كاظم مهدي، مجلة العرب والمستقبل، الجامعة المستنصرية، س٣، ع١١، ٢٠٠٥ م.
- قضية الجزائر، طه حسين، مع الثورة الجزائرية، الجزائر، مؤسسة عالم الأفكار، ط١، ٢٠٠٧ م.
- قطر تتبنى قانونا لتعريب مناهجها التربوية والتعليمية ومراسلات إداراتها، القدس العربي، ١٠/ ٢/ ٢٠١٦.
- كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة عبد القادر الجزائري، علي محمد الصلابي، القاهرة، الصحوة، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- كيف تقصف أمريكا أبناءها بالسلاح النووي، آمي ورثنغتون، العراق، الغزو، الاحتلال، المقاومة: شهادات من خارج الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٣ م.
- كي لا تموت لغتنا العربية، دياب أبو جهجه، صحيفة المساء، ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٩م.
- لستر فظائعها: فرنسا تحرك اللوبي الأرمني ضدنا، محمد صويصال، موقع ترك برس،

https://www.turkpress.co/node/60276.

- لغتنا الجميلة: احتفاء أممي وغربة في عقر الدار، عبد الله باليزي، موقع تينجداد أنفو
http://www.tinejdad.info/opinion/.
- لغتنا العربية والسياسة، عبد الحي عبد الحق، د. ت.
- اللغة أساس التنمية في وطنها، محمد الأوراغي، أعمال المؤتمر الدولي: اللغة العربية والتنمية البشرية: الواقع والرهانات، وجدة - المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨ م.
- اللغة بين القومية والعالمية، إبراهيم أنيس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠ م.
- لغة الخطاب التعليمي الجامعي بين إيديولوجيا العامية وإيديولوجيا العولمية، مثل من الجزائر والمملكة العربية السعودية: رؤية سوسيو لسانية، نعمان بو قرة، التخطيط والسياسة اللغوية، س١، ع٢، ١٤٣٧ هـ.
- لغة العرب وكيف ننهض بها، محمد عطية الأبراشي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٣٦٦ هـ.
- اللغة العربية بيت الكينونة، عبد العزيز حمودة، في التعريب والتغريب، محمود فوزي المناوي، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٦ هـ.
- اللغة العربية بين العولمة والأصالة: تجليات العولمة في اللغة العربية، عمر عبد الهادي عتيق، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع ٢٢، شباط ٢٠١١ م.
- اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء والجدل حول واقعها المعاصر، رشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨م.
- اللغة العربية بين الواقع والطموح، محمد كشود، مجلة اللغة العربية الجزائرية، العدد ١، ذو الحجة ١٤١٩ هـ.
- اللغة العربية: الصراعات المتداخلة، محمد أديب السلاوي، الرباط، مطابع الرباط نت، ط١، ٢٠١٥ م.

- اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في لبنان: دراسة تحليلية ونقدية، سالم المعوش، موقع مجمع اللغة العربية الأردني،
http://www.majma.org.jo/index.php/.html.
- اللغة العربية في الجزائر تشعل جدل الهوية بتوابل سياسية، ياسين بودهان، موقع معهد واشنطن
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/arabic-in-algeria-identity-tainted-by-politics.
- اللغة العربية في خطر الجميع شركاء في حمايتها، المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية، ٢٧/ ٥ إلى ٢/ ٦ / ١٤٣٤ هـ.
- اللغة العربية في الدواوين والمخاطبات والمراسلات في المؤسسات الخاصة والعامة في الأردن: واقعها وسبل النهوض بها، سمير محمود الدروبي، موقع مجمع اللغة العربية الأردني.
- اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، عبد العلي الودغيري، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- اللغة العربية في وسائل الإعلام، جمال المحافظ، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- اللغة العربية المعاصرة في دول الخليج العربي وقضية الهوية، أحمد محمد المعتوق، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- اللغة العربية وأسئلة العصر، وليد العناتي وعيسى برهومة، عمان، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧م.
- اللغة العربية والإسلام فوبيا: من رهاب الدين إلى رهاب اللغة، حسين السوداني، المنتدى العالمي للغات والتواصل،
https://houcinesoudani.wordpress.com/author/soudanihoucine/page/2/.
- اللغة العربية والإعلام: الواقع والمأمول، أحمد بن محمد الضبيب، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٩٣ (موقع المكتبة الشاملة).

- لغة الهوية والتعلُّم بين السياسة والاقتصاد: نموذج تماسكي تنوعي تعددي، عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ م.
- اللغة العربية وسؤال الهوية، مصطفى شميعة وموسى الشامي، فاس، مطبعة آنفو برانت، ٢٠١٣ م.
- اللغة العربية ومبدأ الترابية، أحمد الباهي وعبد الواحد مبرور، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن (ندوة)، موقع مجمع اللغة العربية الأردني
http://www.majma.org.jo/index.php/.
- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، شكيب أرسلان، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٢ م.
- لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية في الجزائر، إبراهيم الهواري، موقع ساسة بوست،
https://www.sasapost.com/nouria_government_minister/.
- لننهض بلغتنا، مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية، ياسر المحتوم، موقع مركز نماء للبحوث والدراسات
http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=190.
- ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، فاضل الربيعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٧ م.
- الماضي النووي» بصحراء الجزائر.. دعوات فرنسية لكشف المستور،
https://www.skynewsarabia.com/middle-east/.
- ما المهمة الجديدة للجامعات الأمريكية في الوطن العربي، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، محمد أيوب،
http://www.wata.cc/forums/showthread.php?.

- المدارس الأجنبية في بلادنا: غزو آن له أن ينتهي، ليلى بيومي، موقع طريق الإسلام http://ar.islamway.net/article/.
- المدارس العالمية تلقى إقبالا متزايدا من طلاب السعودية، هاني الصفيان، موقع العربية،
http://www.alarabiya.net/ar/saudi-today/201301/09/
- المدن التعليمية في قطر، سعد راشد المطوي المهندي،
dr-alkuwari.net/sites/akak/files/q-ed-city-saad.pdf..
- المذكرات، محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.
- مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي، الجزائر، دار القصبة، ٢٠١٤ م.
- مذكرة مثيرة للجدل تتضمن توصيات غاية في الجرأة، محمد الورياكلي، موقع منتديات جبالة،
http://montadajbala.ahlamontada.net/t3547-topic.
- المرآة، حمدان بن عثمان خوجة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP.
- المساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني بالمغرب، عبد الله الدامون، صحيفة المساء، العدد ٢٨٠٨، ١٧ أكتوبر ٢٠١٥ م.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣، ٢٠٠٦ م.
- المسألة اللغوية في تقرير الخمسينية، عبد المجيد جحفة، بصمات - سلسلة جديدة،ع ٤، ٢٠٠٩ م.
- المسألة اللغوية في المغرب وآفاق إصلاح التعليم، محمد العمري، مجلة رهانات، ع ٢٩، ٢٠١٤ م.
- مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، ٢٠١٢ م.
- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٦ م.
- مستقبل العربية في سوق اللغات، صحيفة العلم، ٢/ ٤/ ٢٠٠٩ م.

- مستقبل اللغة العربية ورهاناتها في ظل العولمة، أبو عبد الله غلام الله، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- مستقبل المغرب واللغة الفرنسية، أدراعي محمد، موقع هسبريس.
http://www.hespress.com/writers/ .
- المشروع الاحتلالي الصليبي للجزائر وردود الفعل الوطنية ١٨٣٠ - ١٩٦٢، عبد الله مقلاتي، الجزائر، منشورات سيدي نابل، ٢٠١١ م.
- محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسير، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٨٦ م وبيروت، دار نعمان للثقافة، ١٩٨٤ م.
- المدارس الأجنبية في الخليج: البحرين أنموذجا، عبد العزيز أحمد البداح، التقرير الإستراتيجي الصادر عن مجلة البيان: مستقبل الأمة وصراع الإستراتيجيات، ٢٠٠٩ م.
- المدارس الأجنبية في الخليج العربي: واقعها وآثارها، عبد العزيز أحمد البداح، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- مظاهر التعريب في جامعة الكويت: آراء عينة من أعضاء الهيئة التدريسية، علي أسعد وطفة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٣٩، يناير ٢٠١٣ م.
- معركة العروبة والإسلام، محمد أبو الفتوح،
http://alarabnews.com/alshaab/GIF/042003-04-/Fotoh.htm.
- مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، فؤاد بو علي، الرباط، وزارة الثقافة، ط١، ٢٠١٥ م.
- المقالات المحظورة، فهمي هويدي، القاهرة وبيروت، دار الشروق، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- مقترح للتعليم بالعامية يثير جدلا جزائريا، من برنامج «الواقع العربي»، موقع الجزيرة نت،
www.aljazeera.net/programs.

- ملاحظات أولية حول العربية من محنة الكولونيالية إلى هيئتها الاستشارية، محمد العربي ولد خليفة، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠٧ م.
- ملف تخصصي: الجامعات الأمريكية مهمات في الشرق الأوسط، علي الطالقاني، ٣٠ أيلول ٢٠٠٧ م، شبكة النبأ المعلوماتية،
https://www.annabaa.org/~annabaao/nbanews/.
- من ديوان السياسة، عبد الله العروي، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، د، ت.
- من الذي دفع للزمار: الحرب الباردة الثقافية، ف. س. سوندرز، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط ٤، ٢٠٠٩ م.
- المواجهة باللغات، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم،
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/confrontation.htm.
- ميثاق التربية والتكوين (المغربي).
- النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري وأساليب المواجهة الجزائرية له ١٨٦٧ - ١٨٩٢ م، سعيدي مزيان، الجزائر، مطبعة النجاح، ١٤٣٤ هـ.
- نص الحوار الذي أجرته مجلة «الفرقان» الكويتية مع عبد الفتاح الفاتحي، المسؤول الإعلامي للجمعية المغربية لحماية اللغة العربية.
- نظرة عن تدريس اللغات وتعلمها من خلال مسار الإصلاحات التعليمية بالمغرب، عبد الرحمن الرامي، تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين: مقاربات تشخيصية واستشرافية، ٢٠ إلى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩ م.
- نكبة التعريب في الجزائر ٢، محمد العربي الزبيري، صحيفة الشروق، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦ م.
- نور الدين عيوش وعقدة الفرانكفونية خالد الشرقاوي السموني، موقع هسبريس
http://www.hespress.com/writers/256865.html
- نيوزيلاندا: سفَّاح المسجدين يوجه رسائل عنصرية ضد المسلمين والأتراك والدولة العثمانية، موقع أخبار تركيا،
http://www.akhbarturkiya.com.

- ها أنت أيتها الثورة، محمد مصمولي، تونس، الدار التونسية للكتاب، ط١، ٢٠١٢ م.
- هل هي الضربة القاضية ضد اللغة الفرنسية واللوبي الفرنكفوني؟ موقع تحيا الجزائر،
http://www.123-vivadz.com/201627/05//.
- هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟، اللغة الإنجليزية ومستقبل البحث العلمي، سكوت ل. مونتغمري، ترجمة فؤاد عبد المطلب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠١٤ هـ.
- الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، رشيد بلحبيب، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ م.
- الهويات والتعددية اللغوية: قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن، عز الدين المناصرة، عمان، دار مجدلاوي، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق، عبد السلام المسدي، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٤ م.
- الهوية والاغتراب في الوعي العربي، حسن حنفي، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ م.
واحد وستون عاما على التفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر.. مآسيها متواصلة وباريس ترفض التعاون،
https://arabic.rt.com/middle_east/1202021.
- واقع اللغة العربية في الإعلام المسموع والمرئي، عمر الدقاق، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٤، الجزء ٣، ربيع الأول ١٤٢٠ هـ.
- واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام، أحمد بن نعمان، اللغة العربية إلى أين؟، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ١٤٢٦ هـ.
- واقع اللغة العربية في الوطن العربي وآفاق التطوير، محمود أحمد السيد، موقع دار المنظومة.

- الواقع اللغوي في العالم العربي في ضوء هيمنة اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية، عبد الجواد توفيق محمود، رؤى إستراتيجية، المجلد ٢، العدد ٥، يناير ٢٠١٤.
- واقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، عائض الردادي، موقع حماسة،
http://www.hamassa.com/201615/04/.
- وحي الرسالة، أحمد حسن الزيات، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٣٨١ هـ.
- وزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا وخطاب بوتفليقة بعث صراعا كان في طريقه إلى الخمود، الشرق الأوسط، ع ١٨٦١، الاثنين ٧/ ١/ ١٤٢٢ هـ.
- وضع العربية خلال العهد الاستعماري، محمد الميلي، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠٧ م.
- الوضع اللغوي في المغرب: صدامية النص والواقع، عبد الرحيم الدحماني، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، ع ٧، ١٤٤٠ هـ.
- ويل لأمة مغصوبة اللسان، فهمي هويدي، صحيفة الخليج، ٢٤/ ٨/ ١٩٩٩م.
- اليورانيوم الذي ألقي بالعراق يساوي ٢٥٠ قنبلة ذرية، موقع الجزيرة،
https://www.aljazeera.net/news/healthmedicine/.

# سلسلة الحرب الباردة على الكينونة العربية

## التجني على الهوية

درس الكتاب ما أُلصق بالعربية من تهم، كالصعوبة، والشيخوخة، وعدم الصلاحية للعلم، وأبان أن ما نُسب إليها من ذلك كان بعضه في معرض التبغيض، وتسويغ الدعوة إلى التبدل بها. وبيَّن أن ليس في اللغة الإنسانية لغة صعبة بإطلاق، وأخرى سهلة بإطلاق، وأن في كل لغة ما يصعب وما يسهل، وأن صعوبة اللغة -إن فرضت صحتها- لا تسوغ التبدل بها، وإنما يجب عدُّها قدَرا، ليس للشعوب إلا التكيف معه. وليس في اللغات ما يصلح للعلم وما لا يصلح له بالطبع، وكل لغة عظيمة كانت يوما لهجة فقيرة، محدودة الانتشار، ثم صارت إلى ما صارت إليه بسلطان أهلها، وجدهم في ترقيتها. ولا معنى لشيخوخة اللغة ما دامت تؤدي ما يريد أهلها، واتصال حياة العربية وقدمُها فضيلة من فضائلها؛ لأنها ربطت حاضر العرب بماضيهم ومستقبلهم، وأتاحت لهم أن ينتفعوا بأقدم تراثهم كما ينتفعون بأحدثه، وعدم اتصال غيرها جعل تراث أهلها المكتوب قبل قرون يسيرة تراثا أجنبيا، لا تفيد منه إلا كما تفيد من تراث اللغات الأجنبية بالترجمة.

مختار الغوث

أ.د. بجامعة طيبة في المدينة المنورة

له من الكتب والبحوث: "لغة قريش"، و " الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى"، والسموأل: أخباره والشعر المنسوب إليه"، و "النقد الأدبي في رسالة الغفران"، و "معلقة عمرو بن كلثوم: دراسة وتحليل"، و "دراسة في معلقة عنترة بن شداد"، و "اللهجات العربية الغربية القديمة لكايم رابين"، و"الوجيز في العروض والقافية"، و "مناهج البحث في اللغة والأدب" (بالاشتراك)، و " الحقيقة والخيال في الغزل العذري والغزل الصريح"، و "هل كان للجاهلية نقد أدبي؟"، " والنحل في شعر امرئ القيس"، و" شعر قريش في الجاهلية"، و " على الأطلال: دراسة في البناء واللغة"، و"النقد الأدبي في صدر الإسلام والعصر الأموي: دراسة نقدية للأخبار والمأثورات"، و "عبيد الشعر كل كانوا عبيدا؟، و "ابن قتيبة ومنتقدوه"، و "الحركة الإسلامية في تركيا"، و"العقل أولا" و "بناء الفكر" و "قضايا النقد العربي القديم".

وله مقالات كثيرة وبحوث في الأدب والنقد واللغة والفكر والسياسة، منشورة في صحف ومجلات إلكترونية شتى.

ISBN 978-9921-721-40-9

9 789921 721409

صوفيا

+965 5222 4643
@sophia_kwt
info.sophiakw@gmail.com